التصوف الاسلامى

شخصيات ونصوص

مع كتاب المنقذ من الضلال

بقلم

الدكتور عبد الحليم محمود

شيخ الإسلام رضي الله عنه

تقديم

الأستاذ الدكتور/ منيع عبد الحليم محمود

عميد كلية أصول الدين بالقاهرة

جامعة الأزهر

مكتبة الإيمان

٤ش أحمد سوكارنو - العجوزة

ت: ٣٤٥٢٣٠٢

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

رقم الإيداع : ٨٦٨٨ / ٢٠٠٤م

الترقيم الدولى I.S.B.N.

977-5260-40-X

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة. ت: ٤٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

للأستاذ الدكتور منيع عبد الحليم محمود عميد كلية أصول الدين بالقاهرة جامعة الأزهر

الأسس الفكريه للتصوف الاسلامى – مقال فى المنهج

إن الحديث عن الأخلاق الإسلامية هو حديث عن المقربين ، والوصول إلى القرب من الله تعالى، ليس بالأمر السهل ، إنه يحتاج إلى كثير من المجاهدة من أجل تزكية النفس ، ولن يصل الإنسان إلي تزكية النفس ، إلا إذا تحرر من متاع الدنيا ، ومتاع الدنيا بينه الله تعالى بقوله :

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(١) .

ويعقب الله سبحانه وتعالى على ذلك بقوله :

﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ .

والعدول عن متاع الدنيا إلي حسن المآب عند الله سبحانه وتعالى – وهو عدول عن النقص في اتجاه نحو الكمال – له ثمنه من الجد فى العبادة ، والأخذ بالعزائم .

إن ثمنه هو ما عبر عنه الإمام أبي حامد الغزالى فى إجمال مجمل :

(تقديم الهمة ، ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى)(٢) .

وكل ذلك يتعارض مع ما زين للإنسان من متاع الدنيا .

لابد منذ المبدأ – من (رياضة وإرادة) على حد تعبير ابن سينا . إرادة صارمة فى محاولة القرب من الله تعالى : مصدر الكمال ومصدر التجليات ، ولابد من اتجاه الكيان الإنسانى – فى صورة قوية إلى الحق سبحانه وتعالى .

---

(١) آل عمران آية: ١٤.

(٢) إحياء علوم الدين والمنقذ من الضلال (للإمام أبي حامد الغزالى) .

والحديث عن الأخلاق الصوفية الإسلامية – إذن – إنما هو حديث عن : ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين ، وهو إذن حديث لقليل من الآخرين إنه حديث للمجتبين من عباد الله :

﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ﴾[١] .

متى بدأ هذا الاتجاه فى الإسلام ؟

إنه بدأ مع شروق حياة رسول الله ﷺ .

إن الأنبياء يصطنعهم الله تعالى لنفسه[٢] ، ويصنعهم على عينه[٣] ، وهم جميعاً بأعينه[٤] .

ونحن حينما نقرأ سيرة رسول الله ﷺ نجد حديثاً من أحاديثه ﷺ يلخص سيرته قبل مولده .

يقول رسول الله ﷺ :

(إن الله تعالى خلق الخلق فجعلنى فى خير فرقهم وخير الفرقتين ، ثم تخير القبائل ، فجعلنى فى خير قبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلنى فى خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً)(٥) .

أما بعد مولده ﷺ فإننا نقرأ فى السيرة الشريفة هذه الحادثة الرمزية حادثة شق الصدر ، وهذا الحادث وقع لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه منذ الطفوله المبكرة : لقد كان صلوات الله وسلامه عليه إذ ذاك فى بادية بنى سعد عند مرضعته وبينما هو يلعب مع الغلمان – على ما يروى الإمام مسلم – أتاه جبريل عليه السلام ، فأخذه فأضجعه فشق عن قلبه فاستخرجه فاستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه .

(١) سورة الشورى أية: ١٣ .

(٢) يقول الله تعالى عن سيدنا موسى. (واصطنعتك لنفسى) .

(٣) يقول الله تعالى عن سيدنا موسى (ولتصنع على عينى) .

(٤) يقول الله تعالى عن سيدنا محمد ﷺ (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) .

(٥) رواه الترمذى عن العباس بسند صحيح.

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعنى مرضعته - أن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، وكان ذلك وهو ابن أربع سنين تقريباً ، فلما كان ابن عشر سنين ، تكرر حادث شق الصدر، فقد روى الإمام أحمد ، وابن حبان، والحاكم وابن عساكر ، عن أبى بن كعب : أن أبا هريرة (رضى الله عنه) كان جرئياً أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأل عنها غيره فقال :

يارسول الله ما أول ما رأيت فى أمر النبوة ؟

فاستوى رسول الله ﷺ جالسا وقال :

لقد سألت أبا هريرة : إنى لفى صحراء ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسى وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟

قال : نعم

فاستقبلانى بوجوه لم تر لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط، فاقبلا إليه يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدى لا أجد لأحدهما مسا.

فقال أحدهما لصاحبه : اضجعه ، فاضجعانى بلا قسر ولا هصر .

وقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره .

فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بدون دم ولا وجع ، فقال له : أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ، ثم نبذها فطرحها ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذى أخرج يشبه الفضة ، ثم هز إبهام رجلى اليمنى فقال : أعدوا وأسلم . فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ورحمة على الكبير .

وإن المغزى الواضح لهذه الحادثة إنما تزكية للنفس فى بواكير الحياة الإنسانية ، وفى بواكير الحياة الروحية ، وذلك أنه إذا استخرج حظ الشيطان من القلب أصبح القلب طاهراً، ليس للشيطان عليه من سبيل .

مراحل الطريق إلى الله :

وأول مراحل الطريق إلى الله التوبة الصادقة ، التى تنتزع - فى قوة - حظ الشيطان من القلب .

وتمضى السنون برسول الله ﷺ، وليس للشيطان عليه من سبيل .

إنه فى طهر الملائكة ﷺ إلى أن كانت الليلة المباركة :

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(١) .

وهى ليلة القدر .

يقول الله تعالى :

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾(٢) .

وكان ذلك فى رمضان – يقول سبحانه :

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾(٣) .

وكانت الكلمات الأولى من الوحى

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(٤) .

وكانت إقرأ رمزا لكل الأعمال التى يأتيها الإنسان، وذلك أنه يجب على الإنسان أن تكون أعماله (باسم ربك) ما يأتى منها وما يدع .

ومما يبين الاتجاه هذا الذى بدأ منذ مشرق الرسالة، قول الله فيما بعد:

﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾(٥) .

فالأكل مما لم يذكر اسم الله عليه فسق محرم على المؤمن .

---

(١) الدخان آية: ٣ – ٦.
(٢) سورة القدر بتمامها.
(٣) البقرة آية: ١٨٥ .
(٤) سورة العلق آية: ١ .
(٥) سورة الأنعام آية: ١٢١.

ويقــول الله تعــالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾(١) .

فما أهل به لغير الله فسق ، وما ذبح على النصب فسق، وكل ما كان لغير الله فهو فسق محرم ، كما جاءت به الآيات الكريمة ، وكانت على الطريق المشروع .

أما الطيبات : فهى ما اتجه الإنسان بها إلى الله سبحانه ، إنها ما كانت باسم الرب، ما كانت باسم التربية الإلهية ، ما كانت باسم المربى ، ويشرح الله تعالى ذلك فى الآيات الكثيرة التى نذكر منها بحسب الترتيب القرآنى مبينا فيها الاتجاه إلى الله وإسلام الوجه له سبحانه :

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢) .

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾(٣) .

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٤) .

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾(٥) .

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾(٦) .

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾(٧) .

---

(١) سورة المائدة آية: ٣.
(٢) سورة البقرة آية: ١١٢.
(٣) سورة النساء آية: ١٢٥.
(٤) سورة الأنعام آية: ٧٩.
(٥) سورة لقمان آية: ٢٢.
(٦) سورة الروم آية: ٣٠.
(٧) سورة الروم آية: ٤٣.

ويجمل الله تعالى كل ذلك فيقول:

﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(١).

أن تكون الحياة : نوما ويقظة ، قولا وصمتا ، حركة وسكونا ، خالصة لله تعالى ، بل والممات أيضاً يكون خالصاً لله فى سبيله .

وينبثق عن كل ذلك فى صورة حتمية :

فضيلة الإخلاص : ولقد تحدث الإسلام -- قرآنا وسنة – عن الإخلاص لله وحده فى صورة مستفيضة ومن ذلك الآيات القرآنية الكريمة الآتية :

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾(٢) .

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(٣).

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾(٤).

وفى السنة المطهرة :

ما روى عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ :

(من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لاشريك له ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة فارقها والله عنه راض)(٥).

وعن معاذ بن جبل أنه قال – حين بعث إلى اليمن – يا رسول الله أوصنى ؟

قال ﷺ: (أخلص دينك يكفك العمل القليل)(٦).

(١) سورة الأنعام الآيات: (١٦٢ – ١٦٣).
(٢) سورة الزمر الآيات: ٢ – ٣.
(٣) سورة غافر آية: ١٤.
(٤) سورة البينة آية: ٥.
(٥) رواه ابن ماجه والحاكم.
(٦) قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين

ولقد سئل رسول الله ﷺ- فيما رواه البيهقى – عن الإيمان، فقال : (الإخلاص)[١].

ويروى الإمام مسلم (رضى الله عنه) عن أبى هريرة رضوان الله عليه أن رسول الله ﷺ قال :

(إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم)[٢].

وروى البزار – بإسناد لا بأس به – أن رسول الله ﷺ قال : فيما يرويه عن ربه ، أن الله تبارك وتعالى يقول:

(أنا خير شريك فمن أشرك معى شريكاً فهو لشريكى ، وأيها الناس أخلصوا أعمالكم فإن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له ولا تقولوا : هذا لله وللرحم فإنها للرحم وليس لله منها شيئ ولا تقولوا : هذه لله ولوجوهكم فإنها لوجوهكم وليس لله منها شئ)[٣].

وكل ما ذكر تجمعه كلمة واحدة هى الإسلام .

وسواء نظرنا لكلمة إسلام من الوجهة اللغوية ، أو نظرنا إليها من الوجهة الدينية ، فإنها تشتمل على كل المعانى التى ذكرناها . أما من الوجهة اللغوية ، فيقول ابن الأنبارى (المتوفى سنة ٣٢٨هـ) :

المسلم : معناه المخلص لله عبادته من قولهم : سلم الشئ لفلان خلص له ، فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى .

أما من الوجهة الدينية ، فقد سئل رسول الله ﷺ عن الإسلام فقال :

(أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك) .

ولقد سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال :

(الإيمان :الإخلاص) .

ولا يخرج كل ذلك عن كلمة الإخلاص : لا إله إلا الله .

وكلمة الإخلاص توضحها سورة الإخلاص :

---

(١) رواه البيهقى.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه وابن ماجه فى سننه.

(٣) أخرجه البزار والبيهقى.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ، (الذى يستعان به ويلجأ إليه ، ويقصد فى اليسير من الأمور والعظيم منها) ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

ويتناسق مع كلمة الإخلاص ، وسورة الإخلاص ، موضحاً ومفسراً قوله تعالى :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(١).

ويتناسق مع كل ذلك موضحاً أيضاً ومفسراً :

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢).

كل ما فى الكون من : حركة وسكون ، وقول وعمل، وفكر وحال :

الكيف من كل ذلك والكم والزمن والمكان .

(وهو الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن) .

وتأتى أحاديث مستفيضة فى بيان كلمة الإسلام منها :

ما روى عن رسول الله ﷺ فيما رواه عن رب العزة سبحانه :

يا عبادى : إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا .

يا عبادى : كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ؛

ياعبادى : كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ؛

يا عبادى : كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ؛

يا عبادى : إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم:

يا عبادى : إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ؛ يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم : كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً !

---

(١) فاتحة الكتاب.

(٢) سورة آل عمران آية: ٢٦.

ياعبادى : لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر .

يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

كنت خلف النبى ﷺ ، يوما فقال : يا غلام إنى أعلمك كلمات :

(احفظ الله يحفظك – احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله – وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضرونك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف)[١] .

وفى رواية :

احفظ الله تجده أمامك ، وتعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك واعلم أن النصر مع الصبر ؛ وأن الفرج مع الكرب ؛ وأن مع العسر يسرا .

وكل هذا من معانى : (لا إله إلا الله) .

ولا إله إلا الله : هى التوحيد والإسلام طابعه وشعاره هو التوحيد .

التوحيد :

توحيد الله فى ذاته ، وتوحيده فى قوله :

أما ذاته فهى أحديته ، وأما أفعاله فهو سبحانه فى حكمته السامية :

﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾[٢] .

---

(١) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) سورة القصص آية: ٦٨.

وليس لأحد من الأمر معه شيء ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه وهو أحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين ، وإليه يرجع الأمر كله وإليه المصير .

والإسلام إذن هو : (إسلام الوجه لله) ، إنه (إسلام الذات لله) وهو (إياك نعبد وإياك نستعين) وهو : (لا إله إلا الله) وهو : (التوحيد) .

وإذا كان الإمام الشبلى يعرف التصوف بقوله : (بدؤه معرفة الله ، ونهايته توحيده) .

فإن هذه هو المراد فى الخلق الإسلامى ، إن بدؤه معرفته تعالى على أساس من العمل – وفى جو من المعرفة الصادقة .

معرفته : أحدا عالما مريداً قادراً .

معرفته : جليلا – جميلاً – معرفته : هيبة وأنسا تذوب من هيبته الجبال ، ويأنس به عباده الذين أنعم عليهم .

ونهايته توحيده : (لا إله إلا الله) .

وتوحيد الله سبحانه وتعالى يتفاوت فيه الناس إلى ملايين ملايين الدرجات .

إن منهم من يقول : (لا إله إلا الله) .

ومنهم من يقتنع بأن (لا إله إلا الله) .

ومنهم من يؤمن بأن (لا إله إلا الله) .

ومنهم من يعتقد أن (لا إله إلا الله) .

ولكن الذروة ، ذروة الإيمان والإسلام ، ذروة العقيدة وذروة السلوك أيضاً هى : (أشهد أن لا إله إلا الله) .

وهؤلاء الذين يشهدون أن : (لا إله إلا الله) إنما يشهدونها مع ملائكته سبحانه : (شهد الله أنه : لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

إنهم يشهدون التوحيد ؛ وشهادة التوحيد هى قمة الإيمان ، وهى قمة التدين وهم بطبيعة الأمر قلة: (ثلة من الأولين ؛ وقليل من الآخرين) .

وإذا كان الإمام الكتانى يعرف التصوف فيقول أنه : (صفاء ومشاهدة)

فإن تعريفه يتناسق مع : (أشهد ألا إله إلا الله) .

وهذه القمة هى الهدف الأخير ؛ وهى الغاية التى تعز على من رامها إلا بالجهد المتواصل ومع توفيق الله سبحانه لا يصل إليها إلا من اجتباهم الله سبحانه وتعالى :

إنه لا يصل إليها إلا المقربون ، ومع صعوبتها الشامخة ؛ فإن باب الله مفتوح أمام الذين يسيرون على صراطه ليدخلوا فى إطار من أنعم عليهم .

أشهد أن لا إله إلا الله : كيف نرتقى إلى هذه القمة .

إن الله سبحانه وتعالى يأمر فيقول :

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾[1] .

ويذكر سبحانه قول سيدنا إبراهيم :

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾[2] .

﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾[3] .

كيف نهاجر إلى الله ؟

يقول رسول الله ﷺ :

(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)[4].

ولقد سئل رسول الله ﷺ فى حديث طويل رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح :

أى الإيمان أفضل ؟

قال : الهجرة .

فقيل له : وما الهجرة ؟

قال : أن تهجر السوء .

---

(١) سورة الذاريات آية: ٥٠.

(٢) سورة الصافات آية: ٩٩.

(٣) سورة العنكبوت آية: ٢٦.

(٤) أخرجه البخارى وأبو داود والنسائى عن ابن عمر وقال حديث صحيح.

فقيل له : أى الهجرة أفضل ؟

فقال : الجهاد :

وعن أم أنس رضى الله عنها أنها قالت : يا رسول الله أوصنى :

قال : (أهجرى المعاصى فإنها أفضل الهجرة وحافظى على الفرائض فإنها أفضل الجهاد ، وأكثري من ذكر الله فإنك لا تأتين الله بشيء أحب إليه من كثرة ذكره)(١).

وفى رواية لهما عن أم أنس :

(واذكرى الله كثيراً فإنه أحب الأعمال إلى الله أن تلقاه بها)(٢).

وتبدأ هذه الهجرة بالنية :

يقول رسول الله ﷺ فيما رواه عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) :

(إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل إمرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدينا يصيبها أوامرأه ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)(٣) .

أن يهجر الإنسان السوء فى النية ، وأن يصبح القلب سليما :

عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر الله قلوبكم)(٤) ، وأن يهجر السوء فى الأعمال فتصبح أعماله دائما مجردة عن الإثم وأن يجاهد فذلك أفضل الهجرة .

والجهاد فى سبيل الله هو جهاد أوسع وأشمل مما تحتمله الكلمة :

إنه جهاد النفس للتزكى ، وجهاد الأسرة لتستقيم ، وجهاد فى المجتمع ليهتدى إلى التى هى أقوم ، وجهاد الأعداء فى كافة المجالات .

(والمؤمنون أشداء على الكفار رحماء بينهم) .

ولقد فسر رسول الله ﷺ الجهاد بكل هذه الألوان منه وذلك أول الطريق .

(١) رواه الطبرانى بأسناد جيد.

(٢) قال الطبرانى: أم أنس هذه يعنى الثانية ليست أم أنس بن مالك.

(٣) متفق عليه.

(٤) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه.

والذهاب إلى الله هجرة دائمة إليه ، إنه هجرة :

من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان

ومن ظلمات البدعة إلى نور السنة

ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة

ومن ظلمات الحظوظ إلى نور الحقوق

ومن ظلمات طلب الدنيا إلى نور طلب الآخرة

ومن ظلمات المعصية إلى نور الطاعة

ومن ظلمات الكثائف إلى نور اللطائف

ومن ظلمات الهوى إلى نور اليقين

ومن ظلمات الدعوى إلى إشراق نور التبرى من الحول والقوة

ومن ظلمات الكون إلى شهود نور المكون

ومن ظلمات التدبير إلى إشراق نور التفويض ، إلى غير ذلك مما لا يحصره العدد[١] .

والنهج الذى ارتضاه الله سبحانه وتعالى الأمة بالذات هو :

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ .

وتعليل الفرار : ﴿إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ .

يقول الإمام الصاوى فى ذلك :

قوله تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ مفرع على ما علم من توحيد الله ، والمعنى : حيث علمتم أن الله واحد لا شريك له ، وأنه الضار النافع المعطى المانع فالجأوا إليه ، واهرعوا إلى طاعته .

والفرار مراتب :

ففرار العامة من الكفر والمعاصى إلى الإيمان والطاعة ، وفرار الخاصة من كل شاغل عن الله : كالمال والولد ، **إلى شهود الله والإنهماك فى طاعته ، فلا يصرف جزء من**

(١) أنظر لطائف المنن للإمام ابن عطاء الله السكندرى.

أجزائه لغير الله ، فكما أن الله فى خلق العبد واحد ، فليكن العبد فى إقباله على ربه واحدا ، بحيث لا يجعل فى قلبه غير حب ربه (وفى ذلك فيتنافس المتنافسون) .

كيف يفر الإنسان إلى الله ؟

ما هو المنهج ؟

إن هذا المنهج رسمه الله سبحانه وتعالى فى كثير من آيات القرآن الكريم ، موجزاً أحياناً فيكون :

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١] .

أو : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[٢] .

أو : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[٣] .

ونحب أن نتحدث فى شىء من التفصيل الموجز عن منهج أجمله القرآن فى آيات محددة من الكتاب الكريم :

يقول الله تعالى فى سورة الزمر : تلك السورة التى أخرج النسائى عن عائشة رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقرؤها كل ليلة ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٤] .

عن أبى عبد الرحمن المزنى يقول سمعت ثوبان مولى رسول الله ﷺ يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) سورة النحل آية: ٩٧.

(٢) سورة الأعراف آية: ٩٦.

(٣) سورة فصلت الآيات: ٣ – ٣٢.

(٤) سورة الزمر آية: ٥٣.

(ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية) :

﴿ قُلْ يا عِبادِى الَّذينَ اسْرَفُوا علّى أنفُسهِمْ ﴾ إلى آخر الآية، فقال رجل : يا رسول الله فمن أشرك ؟ فسكت النبى ﷺ ثم قال : (ألا ومن أشرك) ثلاث مرات [١] .

وجاء فى مسند الإمام أحمد : أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ شيخ كبير يدعم على عصا له فقال : يا رسول الله : إن لى غدوات وفجرات ! فهل يغفر لى ؟

فقال ﷺ : ألست تشهد أن : لا إله إلا الله ؟

فقال : بلى أشهد أنك رسول الله ؛

قال ﷺ : قد غفر لك غدراتك وفجراتك .

إن الله سبحانه وتعالى يفتح الطريق واسعاً أمام الطالبين مغفرته ، الراجين رحمته ؛ لأن لا يقنط أحد من رحمة ربه ، فإنه :

﴿ لا يَقْنَطُ مِنْ رحْمَةِ ربِّه إلا الضَّالُّون﴾ .

ولا ييأس من روحه تعالى ، فإنه :

﴿ لا ييأسُ مِنْ رَوْحِ اللَّه إلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

فإذا كان الحج المبرور يطهر الإنسان من ذنوبه حتى يخرج منها ، كيوم ولدته أمه كما قصت السنة المطهرة على هذا ، وروت الكتب الصحاح ، فإن الجو الإسلامى كله مفعم بفتح أبواب الرحمة أمام عباد الله المخلصين :

(من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)[٢] .

(من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه)[٣] .

والإسلام يجب ما قبله .

وتبين لنا سورة الزمر فى آياتها الكريمة مقدار رحمة الله الواسعة وترسم لنا الطريق لذلك ؛

(١) تفرد به الإمام أحمد فى مسنده.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والبخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه.

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده والبخارى ومسلم فى صحيحيهما.

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾(١) .

فالطريق إلى مغفرة الله ورحمته هو التوبة الخالصة النصوح ، وهى الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى أى : التوبة فى أسمى درجاتها .

وإسلام الوجه لله سبحانه وتعالى ، وبعد أن يندم الإنسان على ذنوبه ويخرج منها ويتبرأ ترسم له الآية التى تتلو ذلك طريقه :

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾(٢) .

وأحسن ما أنزل إلينا من ربنا هو القرآن الحكيم – إنه :

(يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين) .

مهيمن على غيره ، مبين للحق فيما يختلف فيه أهل الكتب السماوية .

ثم يلتو ذلك آيات ثلاث تبين موقف الإنسان الذى لم يتب أو الذى تاب ولم يتبع :

(أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الخاسرين) .

أو تقول : لو أن الله هدانى لكنت من المتقين .

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٣) .

وكل ذلك لا جدوى منه والرد عليه واضح حاسم من الله سبحانه وتعالى : ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾(٤) .

ويبين الله حالة هؤلاء يوم القيامة فيقول :

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾(٥) ؟

---

(١) سورة الزمر آية: ٥٤.
(٢) سورة الزمر آية: ٥٥.
(٣) سورة الزمر آية: ٥٦ – ٥٨.
(٤) سورة الزمر آية: ٥٩.
(٥) سورة الزمر آية: ٦٠.

لاشك أن فيها مثوى للمتكبرين مثوى يختلف ويتفاوت باختلاف درجاتهم فى الكبرياء والمعاصى وتفاوتهم فيها .

ويختم الله سبحانه هذه الآيات التى ترسم المنهج وتبين المصير بالنسبة للذين تابوا ، وأنابوا ، واتبعوا الذكر الذى نزل عليهم من ربهم ، بقوله تعالى :

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] .

فى هذا المنهج الواضح نتبين رحمة الله الواسعة الشاملة العامة ، التى لا تضيق بمن لجأ إليها ، فلا يأس ولا قنوط من غفران الله سبحانه وتعالى ويكفينا قول رسوله ﷺ (أنا نبى التوبة)[2] .

فإذا كانت التوبة الصادقة هى أول الطريق ، فإن لها من المكانة فى الجو الإسلامى ما يتناسب مع تأثيرها فى حسن الخلق .

وبعد : فإن الآيات القرآنية التى أجملت المنهج تحدثت بعد التوبة عن :

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾.

ولقد رسم رسول الله ﷺ منهج العمل وبين ثمرته ، روى الإمام البخارى بسنده عن رسول الله ﷺ فيما رواه عن ربه :

(من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنه) .

والتوبة الصادقة تثمر العمل ، ولكن هذا العمل يتفاوت فى درجاته ، ولقد أبان الله سبحانه وتعالى درجات من العاملين :

---

(١) سورة الزمر آية: ٦١.

(٢) جزء من حديث صحيح أخرجه أحمد ومسلم عن أبى موسى، وأخرجه الطبرانى ونصه: (أنا محمد وأحمد، والمقفى والحاشر، ونبى التوبة ونبى الرحمة).

فمنهم ظالم نفسه .

ومنهم مقتصد .

ومنهم سابق بالخيرات .

وهؤلاء السابقون بالخيرات بين الله سبحانه وتعالى ما لهم عنده فقال :

(جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) .

(وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور) .

(الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب)

ولقد بين الله سبحانه وتعالى فى سورة الواقعة طبقات الناس بالنسبة للهداية والاتباع ، فقال سبحانه :

وكنتم أزواجاً ثلاثة – أى أصنافاً ثلاثة :

(أ) فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة .

(ب) وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة .

(جـ) والسابقون السابقون ، أولئك المقربون) أ . هـ .

وهؤلاء المقربون ليسوا بالكثيرين ، إنهم على حد التعبير القرآنى :

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾

ويتحدث الله سبحانه وتعالى عن النعيم الذى أعد للمقربين فيقول بعد ذكرهم فى السورة نفسها فى الآية الخامسة عشرة وما بعدها :

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ .

﴿مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ .

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ .

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ .

﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَلاَ يُنزِفُونَ﴾ .

﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ .

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ .

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ .

﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ .

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا﴾ .

﴿إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ .

أما أصحاب اليمين فإنهم :

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾

وهنا لم يقل القرآن الكريم وقليل من الآخرين كما ذكر فى المقربين ، وذلك لأن المقربين صفوة الصفوة وهم بحكم ذلك أقل عددا .

ويصف الله سبحانه وتعالى – فى السورة نفسها – النعيم الذى أعده لأصحاب اليمين فيقول – فى الآية الثامنة والعشرين وما بعدها .

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ .

﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ .

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ .

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ .

﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ .

﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ .

﴿لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾ .

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ .

﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ .

﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ .

﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ .

﴿لأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ .

ثم يذكر الله سبحانه وتعالى أصحاب الشمال وما أعد لهم من عذاب فيقول :- فى الآية الثانية والأربعين وما بعدها ... بعد قوله :

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ .

﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ .

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ .

﴿لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴾ .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ .

﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ .

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ : أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ .

﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ .

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ .

﴿لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ .

﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ .

﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ .

﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ .

﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ .

وفى السورة الجميلة سورة الإنسان ، والتى تسمى أيضاً : سورة الأبرار ، يتحدث سبحانه وتعالى عن الأبرار فيقول فى الأسلوب القرآنى الجميل - المعجز فى الآية الخامسة وما بعدها :

﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ من كَأْسٍ كَانَ مزَاجُهَا كَافُوراً﴾ .
﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عبَادُ اللَّه يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾ .
﴿يُوفُونَ بالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ .
﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّه مسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيراً﴾ .
﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لوَجْه اللَّه لا نُرِيدُ منكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾ .
﴿إِنَّا نَخَافُ من رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيراً﴾ .
﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ .
﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ .
﴿مُتَّكئِينَ فيهَا عَلَى الأَرَائك لا يَرَوْنَ فيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيراً﴾ .
﴿وَدَانيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ .
﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنيَةٍ مِّن فضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ﴾ .
﴿قَوَارِيرَ من فضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾ .
﴿وَيُسْقَوْنَ فيهَا كَأْسًا كَانَ مزَاجُهَا زَنجَبِيلاً﴾ .
﴿عَيْنًا فيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً﴾ .
﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُوراً﴾ .
﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيراً﴾ .
﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ من فضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُوراً﴾ .
﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً﴾ .

ويتحدث الحق تبارك وتعالى عن الأبرار فى سورة المطففين فيقول :

﴿كَلاَّ إِنَّ كتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي علِّيِّينَ﴾ .
﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا علِّيُّونَ﴾ .
﴿كتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ .

﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ .

﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ .

﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ .

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ .

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾ .

﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ .

﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ .

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ .

ومهما كانت منزلة الأبرار من الرفعة والتفاضل فإن المقربين يتفضل الله عليهم بأكثر.

يقول الإمام الألوسى عند قوله تعالى :

﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ .

(قال ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وأبو صالح : (يشرب بها المقربون صرفا وتمزج للأبرار) .

ومذهب الجمهور : أن الأبرار هم أصحاب اليمين ، وأن المقربين هم السابقون كأنهم إنما كان شرابهم صرف التنسيم لاشتغالهم عن الرحيق المختوم بمحبة الحى القيوم ، فهى الرحيق التى لا يقاس بها رحيق ، والمدامة التى تواصى على شربها ذوو الأذواق والتحقيق :

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم

ونعود إلى التوبة من جديد :

إذا صدقت نقلت الإنسان مباشرة إلى (أهل اليمين) ومن أهل اليمين من يلتزم أداء الواجبات وترك المنهيات ، ويكتفى بذلك ، وهذا يصدق عليه قول رسول الله ﷺ : (أفلح إن صدق) .

روى الإمام البخارى بسنده عن طلحة بن عبيد الله يقول : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوى صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام ؟

فقال رسول الله ﷺ : خمس صلوات فى اليوم والليلة .

فقال : هل على غيرها ؟ ، قال : لا إلا أن تطوع .

قال : فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص .

قال رسول الله ﷺ : (أفلح إن صدق) .

وهذا المومن وأمثاله والقريب منه ، يستمرون طيلة حياتهم بتوفيق الله من : (أهل اليمين) .

ولكن التوبة الصادقة تقود الإنسان أحيانا إلى أداء الواجبات والانتهاء عن المنهيات ثم العمل فى قوة فى سبيل الله ، فتكون التوبة ثمرة إرادة لا تلين فى الاتجاه إلى الله وتكون ثمرة الإرادة الصادقة .

والتوبة النصوح : رياضة يتجه بها الإنسان إلى الله تعالى .

ويتوافر فى هؤلاء ، ما عبر عنه ابن سينا عن العارفين ، من أن طريقهم يتلخص فى: (رياضة وإرادة) .

والرياضة هنا : عبادة خالصة لوجه الله تعالى ، مصحوبة عادة بصوم إنهم اللذين ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[1] .

وهم : ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ .

ويعقب الله سبحانه وتعالى على وصفهم الطيب هذا بقوله :

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2] .

وهم الذين : ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3] .

---

(١) سورة الكهف آية: ٢٨ . (٢) سورة السجدة الآيات: ١٦ – ١٧ . (٣) سورة النور الآيات: ٣٧ – ٣٨ .

ولقد وصف الله سبحانه طريق المتجهين إليه عدة مرات فى القرآن الكريم :

وصف طريقهم ووصف ما ينتظرهم فى الدنيا والآخرة من ذلك ما يقوله سبحانه :

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١) .

والوصفان : الأول والثانى : يقف عندهما أصحاب اليمين ، أما المقربون فإنهم أيضاً حامدون – وقد أمر الله تعالى بالحمد – فقال سبحانه :

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾(٢) .

والحمد لله آخر دعاء أهل الجنة ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣) .

ولأهل الحمد بيوت فى الجنة ، روى (الإمام الترمذى وحسنه) بسنده عن أبى موسى الأشعرى (رضى الله عنه) ، أن رسول الله ﷺ قال : (إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته :

قبضتم ولد عبدى ؟

فيقولون : نعم .

فيقول : فماذا قال عبدى ؟

فيقولون : حمدك واسترجع .

فيقول الله تعالى : ابنو لعبدى بيتاً فى الجنة وسموه بيت الحمد)(٤) .

وروى الإمام مسلم بسنده عن أنس (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ :

(إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها) .

---

(١) سورة التوبة آية: ١١٢.
(٢) سورة النمل آية: ٥٩.
(٣) سورة يونس آية: ١٠.
(٤) رواه الترمذى.

وكما يختم الإنسان عمله بالحمد ، فإنه يبدأه أيضاً بالحمد ، عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال :

(كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد فهو أقطع) .

والحامدون هم أول من يدعى إلى الجنة : أخرج بن مردويه ، وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الشعب ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : (أول من يدعى إلى جنة الحمادون الذين يحمدون على السراء والضراء) .

وجاء عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى إذا أتاه الأمر يسره ، قال : (الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وإذا أتاه الأمر يكرهه قال : (الحمد لله على كل حال) .

والمقربون أيضا سائحون :

والواقع أن الاختلاف فى معنى السياحة هما لا مبرر له ، وذلك أنها تتضمن كل ما قيل فيها ، ويتصف المقربون بكل ما قيل فيها : إن السائحين هم الصابرون ، وقد جاء عن عائشة رضى الله عنها: (سياحة هذه الأمة الصيام) ، لأنه رياضة روحية ينكشف بها كثير من أحوال الملك والملكوت ، فشبه الإطلاع عليها بالإطلاع على البلدان ، والأماكن النائية ، إذ لا يزال المرتاض يتوصل من مقام إلى مقام ويدخل من مدائن المعارف إلى مدينة بعد أخرى على مطايا الفكر[1] .

والسائحون المهاجرون :

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد : أن السائحين هم المهاجرون وليس فى أمة محمد ﷺ سياحة إلا الهجرة .

وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، عن عكرمة : أنهم طلبة العلم ، لأنهم يسيحون فى الأرض لطلبه.

والسائحون هم المجاهدون :

أخرج الحاكم وصححه ، والطبرانى ، غيرهما ، عن أبى أمامة ، أن رجلاً أستأذن رسول الله ﷺ فى السياحة فقال :

---

(١) تفسير الألوسى جـ١ ص٣١.

(إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله) .

والمقربون راكعون ساجدون : إنهم راكعون ساجدون فى صلواتهم وهاتان الصفتان رمزان للخضوع والخشوع لله تعالى ، وكما أن من معانى السجود وضع الجهة على الأرض فى الصلاة فإن من معانيه الخشية ، والخضوع ، والسجود بهذه المعانى كلها من سمات المقربين الأصيلة، يقول سبحانه : (واسجد واقترب) أى اقترب من الله سبحانه وتعالى بسجودك ، سجود الجبهة، وسجود القلب الذى تسجد بسجوده الجوارح ، وإن للقلب سجوداً يعرفه الصوفية ، وإذا سجد القلب سجدت الجوارح ، ولا يتأتى مع سجود القلب والجوارح أن يقترف الإنسان المعصية ، وإذا سجد القلب فمعنى ذلك حسن الخاتمة بتوفيق الله تعالى ، وذلك أنه إذا سجد فإنه لا يرفع من سجوده إلا بلقاء الله تعالى ، وما دام ساجدا فإنه هو والجوارح فى جو دائم من رضاء الله تعالى ، لأنه هو والجوارح فى جو دائم من خشية الله تعالى ، ويقول رسول الله ﷺ :

(أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)[١]

وكثرة السجود طريق إلى الجنة :

روى الإمام مسلم هذا الحديث اللطيف الرائع :

عن أبى فراس ربيعة بن كعب الأسلمى – خادم رسول الله ﷺ وهو من أهل الصفة (رضى الله عنه) قال :

كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فآتيه بوضوئه وحاجته فقال : سلنى ؟

فقلت : أسألك مرافقتك فى الجنة .

فقال : أو غير ذلك ؟

قلت : هو ذاك .

قال ﷺ : **(أعنى على نفسك بكثرة السجود)** .

---

(١) وتمام الحديث: فأكثروا فيه من الدعاء، وهو حديث صحيح أخرجه مسلم فى صحيحه وأبو داود فى سننه والنسائى عن أبى هريرة رضي الله عنه

وذلك يعنى : أعنى على نزعاتك وأهوائك بسلوكك طريق الخشية وآصل مظهر له : السجود ، فإذا ما وصل الإنسان إلى السجود فقد وصل إلى منتهى التواضع لله سبحانه وتعالى ، إنه وصل إلى العبودية فى أظهر مظاهرها ، ووصل فى الوقت نفسه إلى أقرب ما يكون العبد من ربه وعندئذ يترتب على ذلك مسئوليته فتكون :

(الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر) .

وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ – فيما رواه الإمام مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه : قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان) .

وعن ابن مسعود (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال :

(ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون ما لايفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل) .

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى من عوامل خيرية الأمة الإسلامية : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

فقال تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1] .

ولقد لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان عدة رسل منهم : داود وعيسى ابن مريم عليهما السلام ، لأنهم ما كانوا ينهون عن المنكر فقال سبحانه :

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[2] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحة.

(٢) سورة المائدة الآيات: ٧٨ – ٧٩.

وثمرة السجود الحقيقى إذن : ﴿ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ .

وإنه لمن الملاحظ الواضح أن المدارس الصوفية الصادقة التى تسمى الطرق مهمتها الأولى : الدعوة إلى الله المتضمنة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهؤلاء المقربون من دورهم الأصيل ما عبر – الله سبحانه وتعالى عنه بقوله :

﴿ والحَافِظُون لِحدُود اللَّه﴾ .

ورسول الله ﷺ يقول :

(لا تزال طائفة من أمتى قوامة على أمر الله لا يضرها من خالفها)[١] .

وفى رواية : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة[٢] .

ولكن الأسلوب القرآنى المعجز بدأ كل هذه الصفات بأعظم صفة للمقربين ، إنه سبحانه قبل أن يشرع فى تعداد صفاتهم التى بدأها بقوله : (التائبون) قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[٣] .

إن المؤمن فى عقد الإيمان باع نفسه وماله لله ، وهذا العقد بينه وبين الله :

فالمؤمن هو البائع !

والشارى هو الله ! والمبيع هو النفس والمال !

والثمن هو الجنة ، أى على هذا النوع من النعيم الذى بلغ من النفاسة إلى ما لاعين رأيت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر !

أما مكان التسليم فإنه المعركة ، ورسول الله ﷺ يقول :

(الجنة تحت ظلال السيوف) .

وليس من شروط هذا العقد أن يستشهد المقاتل ، كلا !

---

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك.

(٣) سورة التوبة آية: ١١١.

فمن قاتل وانتصر وعاد سالما فله الجنة ، ...

إن الجنة للمقاتل سواء استشهد أو انتصر وعاد إلى بيته ...

ولقد روى الحسن (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال : فيما يتعلق ببيع النفس :

(إن فوق كل برَ برَ حتى يبذل العبد دمه ، فإذا فعل ذلك فلا بر فوق ذلك) .

وقال الشاعر – عن بيع النفس – :

الجود بالمال جود فيه مكرمة والجود بالنفس أقصى غاية الجود !

وقال الحسن : مر أعرابى على النبى ﷺ وهو يقرأ هذه الآية :

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ...﴾

فقال : كلام من هذا ؟

قال : كلام الله .

قال : بيع والله مربح ، لا نقيله ولا نستقيله – فخرج إلى الغزو واستشهد ، ولقد سجل الله هذا العقد فى التوراة والإنجيل فقال :

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾.

ولأجل ذلك حينما سمع الصحابة هذه الآية الكريمة قالوا :

(ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل) .

أما التقدير الصادق لهذا العقد ، فإنه الذى قرره الله سبحانه وتعالى بقوله :

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

وإذا وقف أهل اليمين – بعد التوبة – عند العبادة المفروضة أو عندها وعند سنتها الراتبة فإن المقربين – وقد ذكرنا من صفاتهم مع العبادة المفروضة ، أنهم :

﴿ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾

وقد يتساءل إنسان :

أليس للمقربين صفات أخرى غير هذه ؟

والواقع أن للمقربين صفات جميلة أخرى كثيرة ، ولكن صفاتهم فى جوهرها الأصيل تنطوى فى صفة (الساجدون) حين تفهم من السجود ، سجود القلب وسجود الجوارح بسجوده ، وكل هذه الصفات تتبلور فى تفسير رسول الله ﷺ للإسلام .

(أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك) .

وتتبلور فى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

وتتبلور فى التوحيد الذى يتناسق معه الشبلى فيعرف التصوف بأنه (بدؤه معرفة الله ونهايته توحيده) ، ولكنها تتبلور فى صورة هى قمتها وهى :

(أشهد أن لا إله إلا الله) .

هذه الشهادة التى معها الإمام الكتانى يعرف التصوف بأنه : (صفاء ومشاهدة) .

ومن اجتباهم الله تعالى تقودهم توبتهم العميقة إلى الذكر ، وإذا كان لأركان الإسلام نفلها وسنتها : صلاة التطوع وصيام التطوع ... الخ فإن نقل الركن الأول منها : الذكر ، ذكر الله تعالى بكل طرقه وذكره سبحانه عن طريق الصلاة على رسول الله ﷺ ، وذلك أنه سبحانه وتعالى أمر بها .

والركن الأول هو : (أشهد أن لا إله إلا الله سبحانه وتعالى ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ﷺ ، وكما أن الركن الأول أهم الأركان وأساسها ، فإن نفله أهم السنن ، ومن هنا كان اهتمام الإسلام بالذكر اهتماما لا حدود له .

يقول الإمام القشيرى وهو من زعماء الصوفية وكبار كتابهم : (والذكر ركن قوى فى طريق الحق سبحانه) ، ثم يستدرك الإمام القشيرى ليكون أكثر دقة فيقول (بل هو العمدة فى هذا الطريق) .

ثم يحسم الأمر حسما فيقول : (ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر) .

أما عن حدود الذكر فإن الإمام القشيرى يقول : ومن خصائص الذكر :

أنه غير مؤقت ، بل ما من وقت من الأوقات إلا والعبد مأمور بذكر الله ؛ إما فرضا ، وإما ندبا، والصلاة وإن كانت اشرف العبادات فقد لا تجوز فى بعض الأوقات . والذكر بالقلب مستدام فى عموم الحالات . أ. هـ .

وللإمام الصاوى الرجل العالم الصالح صاحب الحاشية المباركة على تفسير (الجلالين) توجيهات نفسية فيما يتعلق بالذكر ، إنه يقول :

ولا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه ، فربما ذكر مع غفلة يجر لذكر مع حضور ، لأنهم شبهوا الذكر بقدح الزناد ، فلا يترك الإنسان القدح لعدم إيقاده من أول مرة مثلا ، بل يكرر حتى يوقد فإذا ولع القلب نارت الأعضاء فلا يقدر الشيطان على وسوسته ، لقوله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾[1] .

وخفت العبادة على الأعضاء ، فلا يكون على الشخص كلفة فيها ، قال العارف :

إذا رفع الحجاب فلا ملالمة   بتوفيق الإله ولا مشقة

ويكفى الذاكر من الشرف ، قول الله تعالى فى حديث قدسى :

(أنا جليس من ذكرنى)[2] .

وقوله تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3] .

ويقول الإمام النووى : (الذكر يكون بالقلب ويكون باللسان) .

والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان جميعا ، فإن اقتصر على أحدهما فالقلب أفضل ، ثم لا ينبغى أن يترك الذكر باللسان مع القلب خوفاً من أن يظن به الرياء ، بل يذكر بهما جميعاً ويقصد وجه الله تعالى وقد قدمنا عن الفضيل رحمه الله : (أن ترك العمل لأجل الناس رياء) .

(١) سورة الأعراف آية: ٢٠١.

(٢) رواه الديلمى عن عائشة مرفوعا، وأخرجه أبو الشيخ عن محمد بن نصر الحارثى، ورواه الحاكم وصححه عن أنس بلفظ الله تعالى: (عبدى أنا عند ظنك بى، وأنا معك إذا ذكرتنى) وروى أحمد وابن ماجة بسند صحيح: (أنا مع عبدى ما ذكرنى).

(٣) سورة الأنفال آية: ٤٥.

ولو فتح الإنسان عليه باب الملاحظة للناس ، والاحتراز من تطرق ظنونهم الباطلة لا نسد عليه أكثر أبواب الخير ، وضيع على نفسه شيئاً عظيماً من مهمات الدين ، وليس هذا طريقة العارفين.[١] أ. هـ

وهؤلاء جميعاً يتسابقون القرآن ، ويتناسقون معه وذلك أن القرآن الكريم لم يعين للذكر وقتا معيناً، وذلك أن جميع الأوقات صالحة للذكر ، يقول الله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ .

لقد جعل الله سبحانه جميع آناء الليل والنهار صالحة للذكر : يقول بن عباس فى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾[٢] .

يقول : أى بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، والسفر والحضر ، والغنى والفقر ، والمرض والصحة، والسر والعلانية .

والآيات فى القرآن كثيرة تبين أن ذكر الله مستحب فى جميع الأمكنة والأزمنة وفى هذا المعنى يقول فى أوصاف أولى الألباب :

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[٣] .

وأما عن ذكر اللسان وذكر القلب فإن صاحب الرسالة القشيرية يقول :

(فإذا كان العبد ذاكراً بلسانه وقلبه : فهو الكامل فى وصفه فى حال سلوكه) .

وإذا كان المسلمون يتابعون القرآن ويتناسقون معه فى موضوع الذكر ، فإنهم فى كل ذلك يقتدون برسول الله ﷺ ويتخذونه قدوة ، وهو إمام الذاكرين وإمام كل المقبلين على طريق الله تعالى ولم يصل ولن يصل إنسان إلى الله تعالى منذ أرسل صلوات الله وسلامه عليه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها إلا عن طريقه ﷺ .

---

(١) حاشية الصاوى على الجلالين جـ١ ص٩٣.

(٢) سورة النساء آية: ١٠٣.

(٣) سورة آل عمران الآيات: ١٩١ - ١٩٤.

صفات عباد الرحمن

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾[1] .

وبعد أن ذكر الله فى الآية السابقة جعله الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ، ناسب بعد ذلك أن يتكلم على أوصاف المؤمنين ومدى طاعتهم لله سبحانه وتعالى ، وشكرهم وذكرهم وحسن عبادتهم واجتنابهم للمحرمات .

وعباد الرحمن : مبتدأ خبره ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾، أو خبره الموصول بعده ، وعباد جمع عبد، كبحار جمع بحر ، من العبودية وهى الرضا بما يفعله الرب .

وقال الراغب : العبودية إظهار التذلل ، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ويمكن اعتبار المعنيين فى تفسير العبادة ، لأن الرضا بما يفعله الرب هو غاية التذلل .

﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ وهو صفة لمصدر محذوف ، أى مشيا هونا ، أو حال من فاعل يمشون ، أى يمشوا هينين فى غاية التواضع والسكينة ، لا يخفقون بنعالهم ولا يضربون الأرض بأرجلهم غرورا وخيلاء .

والهون مصدر بمعنى اللين ، ووضعه موضع الصفة زيادة فى المبالغة .

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ لما بين الله حال المؤمن فى خاصة نفسه ذكر حاله مع أفراد المجتمع ، وأن الحلم هو مثال من أمثلة الأخلاق الإسلامية التى يجب أن تتبع ، والمراد أنه إذا هاجمهم أحد من الناس أو اعتدى عليهم لم يردوا السيئة بالسيئة ، ولم يعتدوا عليه اعتداء بهيميا ، ولكنهم دائما خلقهم الحلم والترفع مع الإيمان والثقة فى أن الله سينتقم من هؤلاء الجاهلين ، وهذا ما فيه من السعادة فى الآخرة والأولى ، وليس معنى ذلك أن الحلم يؤخذ به فى جميع الأمور وجميع الحوادث ، فإن الغضب لأمور الشريعة والدين والعرض والكرامة يجب على الإنسان ، فإن تعرض المؤمن للهوان والضياع ، فالغضب لهذا مما يوجب عليه .

وسلاما : مصدر وضع موضع التسليم ، ومؤكد لفعله المضمر ، والتقديم نسلم منكم تسليما ، والمعنى إذ واجههم السفهاء بالشيئ من القول والفحش من اللسان ، قالوا لهم : سلاما ، أى تسليما منكم وهو سلام متاركة وبعد ، لاسلام تحية .

(١) سورة الفرقان آية: ٦٣.

لقد تضمنت الآية الكريمة صفتين من أهم صفات المؤمنين وأجلها :

أولاهما : السكينة ، والثانية : التواضع ، ونجد ذلك فى كثير من الأحاديث النبوية التى تحض على ذلك وتحث عليه فذكر منها :

عن ابن مسعود (رضى الله عنه) قال :

كأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى نبيا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول :

(اللهم أغفر لقومى فإنهم لا يعلمون)(١) .

وعن السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها قالت : (ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ولا امرأة ولا خادما إلا أن يجاهد فى سبيل الله وما نيل منه شىء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شىء من محارم الله تعالى فينتقم لله تعالى)(٢) .

وعن عياض رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد)(٣) .

وعن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال :

(ما أنقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)(٤) .

وعن عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ قال :

لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل : أن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة :

قال : (إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس)(٥) .

(١) أخرجه الشيخان فى صحيحيهما. (٢) رواه مسلم فى صحيحه.
(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه.
(٤) أخرجه مسلم.
(٥) رواه مسلم.

وعن أبى سعيد الخدرى (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ قال : احتجت الجنة والنار فقالت النار : فى الجبارون والمتكبرون .

وقالت الجنة : فى ضعفاء الناس ومساكينهم ، فقضى الله بينهما أنك الجنة رحمتى أرحم بك من أشاء ، وأنك النار عذابى أعذب بك من أشاء ، ولكلتيكما على ملؤها)[١] .

وعن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول اله ﷺ قال :

(ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب)[٢] .

ثم يقول الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾[٣] .

البيتوتة : أن يدركك الليل ، نمت أو لم تنم ، قال الزجاج : كل من أدركه الليل قيل بات وإن لم ينم ، كما يقال بات فلان قلقا .

وقياما جمع قائم كصيام جمع صائم ، أو مصدر أجرى مجراه .

وسجداً جمع ساجد كضرب فى ضارب وهو خبر ليبيتون .

قال العلامة الجمل فى حاشيته على الجلالين :

ويضعف أن تكون تامة ، أى يدخلون فى البيانات ، وسجدا حال ، ولربهم متعلق بسجدا : وقدم للفاصلة والتخصيص ، أى يبيتون ساجدين قائمين لربهم سبحانه .

وذكروا هذا الوصف دون لفظ الجلالة للإشارة إلى قيامهم بخدمة سيدهم وغامرهم بإحسانه ومربيهم .

وتخصيص البيتوتة : لأن العبادة فى الليل أحمز وأبعد عن الرياء .

وعندى أن تقديم سجداً على قياما لأن السجود أكمل درجات الخشوع ، ولأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد .

وهذا الوصف من الآية للمؤمنين هو وصف لحالهم مع ربهم ، بعد أن وصف فيما سبق حالهم فى تعاملهم مع الخلق ، فإن كل هم هؤلاء العباد هو إحراز رضا الله سبحانه

(١) أخرجه الإمام مسلم.

(٢) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما.

(٣) سورة الفرقان آية: ٦٤.

وتعالى ، والتقرب منه، سواء فى معاملتهم مع الناس ، أو مع الله سبحانه وتعالى ، بخلاف غيرهم الذين يقضون الليل فى اللهو والفراغ ، والبعد عن الله سبحانه وتعالى :

ورد عن الشيخان عن السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها أن النبى ﷺ كان يقوم من الليل حتى تنفطرقدماه فقلت له :

(لم تصنع هذا يارسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

قال : أفلا أكون عبدا شكورا)

وروى الشيخان عن سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم ، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال :

(نعم الرجل عبد الله ، لو كان يصلى من الليل ، قال سالم : فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلا) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، قال قال رسول الله ﷺ :

(يا عبد الله لا تكن مثل فلان ، كان يقوم الليل فترك قيام الليل)(١) .

وعن عبد الله بن سلام (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال :

(أيها الناس افشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام)(٢) .

وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ ، كان ينام أول الليل ، ويقوم آخره فيصلى(٣) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال :

(أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، ويصوم يوما ويفطر يوما)(٤) .

---

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح.
(٣) رواه البخارى ومسلم.
(٤) أخرجه البخارى ومسلم.

وعن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال رسول الله ﷺ :

(أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل)[١] .

وعن أنس (رضى الله عنه) قال : كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهر حتى نظن ألا يصوم منه ، ويصوم حتى نظن ألا يفطر منه شيئا .

وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصليا إلا رأيته ، ولا نائما إلا رأيته[٢] .

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[٣] .

بعد أن مدح الله سبحانه وتعالى عباده بقيام الليل وسجودهم له ، ذكر خوفهم وخشيتهم من عقابه وعذابه فهم لم يفتروا بعبادتهم إياه ، ولم يروا فيها سبباً لدخولهم الجنة ، بل يرون أن النجاة من عذاب الله يكون بفضل الله وبرحمته .

والغرام – كما فى الصحاح – الشر الدائم والعذاب ، وقوله تعالى :

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ .

قال أبو عبيد : أى هلاكا ولزاما أ. هـ .

وقال الزمخشرى : أى هلاكا وخسرانا ملحا لازما .

والمعنى والذين يقولون فى أغلب وأعم أوقاتهم طالبين من الله ومتضرعين إليه سبحانه وتعالى، وأن لا يكون جزاؤهم جهنم ، فقد قال الله سبحانه وتعالى معبراً عن هذا المعنى :

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[٤] .

وهذا مدح لهم لأنه تحقيق لإيمانهم بالجزاء .

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه.

(٣) سورة الفرقان الآيات: ٦٥ – ٦٦.

(٤) سورة المؤمنون آية: ٦٠.

أحاديث فى وصف عذاب جهنم :

أخرج الترمذى والبخارى فى تاريخه عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ :

(لجهنم سبعة أبواب منها باب لمن سل السيف على أمتى) .

وروى الطبرانى فى الأوسط : أن جبريل جاء إلى النبى ﷺ فقال:

(يا جبريل مالى أراك متغير اللون؟)

فقال : ما جئتك حتى أمر الله عز وجل بمنافح النار ، فقال ﷺ :

(يا جبريل : صف لى النار أو انعت جهنم) :

فقال جبريل : إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم فأوقد عليهم ألف عام حتى ابيضت، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسودت، فهى سوداء مظلمة لا يضئ شررها ولا يطفأ لهبها .

(والذى بعثك بالحق نبيا : لو أن قدر ثقب إبرة : فتح من جهنم لمات من فى الأرض كلهم جميعاً) .

(والذى بعثك بالحق : لو أن خازنا من خزنة جهنم برز إلى أهل الدنيا لمات من فى الأرض كلهم جميعاً : من قبح وجهه ونتن ريحه) .

(والذى بعثك بالحق : لو أن حلقة من حلق سلسل أهل النار الذى نعت الله فى كتابه: وضعت على جبال الدنيا : لارفضت : وما تقارن : حتى تنتهى إلى الأرض السفلى ، فقال رسول الله ﷺ:

(حسبى يا جبريل : لا يتصدع قلبى فأموت) .

قال : فنظر رسول الله ﷺ ، إلى جبريل وهو يبكى : فقال تبكى يا جبريل وأنت من الله بالمكان الذى أنت به ؟

فقال : وما لى لا أبكى : وأنا أحق بالبكاء : لعلى أكون فى علم الله : على غير الحالة التى أنا عليها ، وما أدرى لعلى أبتلى بما ابتلى به إبليس ، فقد كان من الملائكة وما أدرى لعلى أبتلى بما ابتلى به هاروت وماروت .

قال : فبكى النبى ﷺ : وبكى جبريل : فما زالا يبكيان حتى نودى : أن يا جبريل ويا محمد : إن الله آمنكما أن تعصياه : فارتفع جبريل ، وخرج رسول الله ﷺ : فمر بقوم من الأنصار يضحكون ويلعبون .

فقال : أتضحكون وتلعبون ووراءكم جهنم ، فلو تعلمون ما أعلم : لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ، ولما أسقم الطعام والشراب ولخرجتم إلى الصعدات ، تجأرون إلى الله عز وجل :

(فنودى : يا محمد : لا تقنط عبادى : إنما بعثتك مبشراً ولم أبعثك معسراً) .

فقال ﷺ سددوا وقاربوا .

وأخرج أحمد والطبرانى وابن حبان : فى صحيحه والحاكم وصححه :

(أن فى النار حيات كأمثال أعناق البخت) .

تلسع إحداهن اللسعة فيجد حرها سبعون خريفا .

وأن فى النار عقارب كأمثال البغال الموكفة تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموها أربعين سنة .

وأخرج الترمذى وابن حبان فى صحيحه : والحاكم وصححه : عنه ﷺ : فى قول الله تبارك وتعالى (كالمهل) قال : كعتر الزيت .

فإذا قرب إلى وجهه سقطت فروة وجهه فيه .

وأخرج الترمذى : وقال حسن صحيح غريب :

إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما فى جوفه حتى يمرق من قدميه : وهو الصهر : ثم يعاد كما كان : والحميم الماء الحار : الذى يحرق .

وقال الضحاك : الحميم يغلى منذ خلق السموات والأرض إلى يوم القيامة يسقونه : ويصب على رؤوسهم .

وقيل ما يجتمع من دموع أعينهم فى حياض النار فيسقونه :

وقيل غير ذلك : وهو المذكور في قوله تبارك وتعالى :

﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[١] .

وأخرج أحمد والترمذي ، وقال غريب ، والحاكم . وقال صحيح على شرط مسلم : عن رسول الله ﷺ في قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾[٢] .

قال يقرب إلى فيه : فيكرهه ، فإذا أدنى منه : شوى وجهه ، وقعت فروة رأسه : فإذا شربه قطع أمعاءه : حتى يخرج من دبره ، قال الله عز وجل :

﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ .

وقال جل ذكره :

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾[٣] .

أخرج الترمذي : وقال حسن صحيح : أنه ﷺ قرأ هذه الآية :

﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ هي[٤] .

فقال ﷺ : لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا : لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن يكون طعامه .

وفي رواية : فكيف بمن ليس له طعام غيره ؟)

وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما : في قوله تعالى : (وطعاما ذا غصة) : شوك: يأخذ بالحلق : لا يدخل ولا يخرج .

أخرج الشيخان : ما بين منكبي الكافر مسيرة ثلاثة أيام : للراكب المسرع : والمنكب : مجمع رأس الكتف والعضد .

وأخرج مسلم : ضرس : أو قال : ناب الكافر مثل أحد : وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام .

(١) سورة محمد آية: ١٥.
(٢) سورة إبراهيم آية: ١٦ – ١٧.
(٣) سورة الكهف آية: ٢٩.
(٤) سورة آل عمران آية: ١٠٢.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾(١) .

لقد مدح الله فى الآية الماضية عباد الرحمن بأنهم يخافون يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار ، وأنهم يرجون رحمة ربهم وخافون عذابه وهم يعتبرون هذه الدنيا وسيلة إلى غيرها من نعيم الآخرة، وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم لا يهتمون بهذه الدنيا فلم يسرفوا فيها ، والمقصود بالإسراف هنا جميع أنواع الإسراف فى الملذات الحلال أى حبها حبا شديد الدرجة الإسراف فيها .

ولم يقتروا : الأقتار هنا يشمل حب الدنيا أيضاً ، فإن البخل حب للأموال ومحاولة الخلود فى الحياة الدنيا ، والإبقاء عليها إلى أبد الآبدين .

ولكنهم وسط بين هؤلاء وهؤلاء ، لم يسرفوا فى محرم ، ولا فى شهوات ، ولم يقتروا على حلال ولا على صدقة وزكاة .

وتساعد على هذه المعنى الأحاديث التالية :

أخرج أحمد والطبرانى عن أبى الدرداء : عن النبى ﷺ قال : (من فقه الرجل أفقه فى معيشته) .

وأخرج ابن ماجه فى سننه عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(إن من السرف : أن تأكل كل ما اشتهيت) .

ومما يساعد على المعنى قوله تعالى :

﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾(٢) .

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾(٣) .

﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾(٤) .

وإذا كانت هذه الآيات فيها دلالة قوية ومبينة عن أن الإسلام هو دين الوسطية ، فإن الأحاديث التالية ، تبين معنى الآية التى فى أيدينا بتوضيح لا يدع مجالا لشك ، وتبين النموذج الذى يجب أن يحتذى إسلاميا بالنسبة للفظ **(قواما)** .

---

(١) سورة الفرقان آية: ٦٧.
(٢) سورة الإسراء آية: ٢٩.
(٣) سورة الفرقان آية: ٦٧.
(٤) سورة الإسراء آية: ١١٠.

روى البخارى رضي الله عنه قال ، قال ر سول الله ﷺ :

(أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟

قالوا : يارسول الله ، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه قال :

فإن ماله ما قدم ، ومال وارثه ما أخذ) .

وروى الشيخان عن عدى ابن حاتم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

(اتقو النار ولو بشق تمرة) .

وروى الشيخان عن جابر رضي الله عنه قال : ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال : لا.

وروى الشيخان عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما :

(اللهم أعط منفقا خلفا) .

ويقول الآخر : (اللهم أعط ممسكا تلفا) .

وعنه أن رسول الله ﷺ قال : قال الله تعالى : انفق يا بن آدم ينفق عليك (متفق عليه) .

وروى الشيخان ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : أى الإسلام خير ؟

فقال : (تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف) .

وروى الشيخان عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال :

(لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها) .

عن أبى إمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(يا ابن آدم أن تبذل الفضل خير لك وأن تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف ، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى)[1] .

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، والطبرانى فى المعجم الكبير.

﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾[1] .

والذين لا يشركون بالله سبحانه وتعالى إلها آخر ، يجعلونهم شركاء له فى العبادة ، ولا يقتلون أحد إلا إذا كان يستحق القتل شرعا ، كما فى حالة الجهاد فى سبيل الله ولا يطؤون فرجا محرما عليهم ، والزنا فى عرف اللغة والشرع : إدخال المكلف الطائع حشفته فى قبل مشتهاة حالا أو ماضيا بلا ملك أو شبهة أو تمكينه من ذلك أو تمكينها فى دار الإسلام ، فعلم أنه لا زنا للصبى والمجنون – أى موجب للحد – ومن أكرهه السلطان، ولا للمولج فى دبر أو فى فرج صغيرة غير مشتهاة أو ميتة أو بهيمة ، ولمن كان فى دار الحرب ، ولا لمن زنا مع شبهة ، وهو من أمهات الكبائر ، ولذا قرنه الله بالشرك وقتل النفس فى هذه الآية .

وقد جاء الله سبحانه وتعالى بنفى هذه الجملة من المعاصى عن المؤمن كمناسبة لا ذكره الله سبحانه وتعالى عن المؤمنين من الاعتدال فى النفقة فكان الاعتدال بالبعد عن المعاصى هو الأولى ذكره بعد ذلك .

يقول العلامة زادة فى حاشيته على البيضاوى :

كأنه جواب عما يقال : ما الفائدة فى نفى هذه القبائح عن الموصوفين بالخصال المرضية السابقة ، مع أنهم يبعد منهم ارتكاب : هذه القبائح فلا وجه إذاً لنفيها عنهم ، لأنه إنما يحسن نفى صفة عن أحد إذا كانت الصفة المنفية مما يتوهم ثبوتهم له ؟

وتقرير الجواب أن الاتصاف بالفضائل السابقة لا يستلزم الاجتناب عن هذه القبائح ، فإن المصوف بتلك الصفات قد يتدين بالشرك ويقتل النفس بغير الحق ويتلبس بالزنا .

فبين الله أن المرء لا يصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن حتى يجتنب الكبائر أيضاً ، إلا أنه خص من الكبائر أمهاتها ، واشعر بذلك أن الأجر المذكور فى قوله

(١) سورة الفرقان آية: ٦٩ – ٧١.

﴿أولَئك يُجزَون الغُرفَة﴾ موعود للجامعين بين ذلك .

(وفى هذا النفى تعريض بما كان عليه الكفار ، كأنه قيل وعباد الرحمن هم : الذين لا يدعون مع الله ، وأنتم تدعون ، ولا يقتلون نفساً بغير حق وأنتم تقتلون ، ولا يزنون وأنتم تزنون ، ويحسن النفى تعريضاً وإن لم يكن النفى عنه مظنة لثبوت المنفى له) .

ويقول الإمام الألوسى :

والمراد من نفى هذه القبائح عنهم التعريض به لما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم وإلا فلا حاجة إليه بعد وصفهم بالصفات المتقدمة من حسن المعاملة ، وإحياء الليل بالصلاة ، ومزيد خوفهم من الله لظهور استدعائها واستلزامها نفى ما ذكر عنهم .

ومن هذه يعلم هل ما قيل الظاهر عكس هذا الترتيب وتقديم التحلية على التخلية ، فكأنه قيل : الذين طهرهم الله وبرأهم مما أنتم عليه من الاشراك ، وقتل النفس المحرمة ، كالموؤدة والزنا .

وقيل : إن التصريح بنفى الإشراك مع ظهور إيمانهم لهذا ، أو لإظهار كمال الاعتناء والإخلاص وتهويل أمر القتل والزنا بنظمهما فى سلكه .

وقد صح فى رواية الشيخين والترمذى عن ابن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أى ذنب أكبر ، فقال :

(أن تجعل لله تعالى ندا وهو خلقك) .

قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك .

قلت : ثم أي ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك ، فأنزل الله تصديق ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ : الآية ﴾ .

وأخرج الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما أن ناساً من أهل الشرك قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمدا ﷺ فقالوا :

(إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزلت :

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ : الآية ﴾ ونزلت :

﴿ قُل يَا عِبادِى الَّذينَ اسْرَفُوا : الآية ﴾ .

وجاز أن يقال فى وجه تقديم التخلية على التحلية : كون الأوصاف المذكور فى التخلية أوفق بالعبودية التى جعلت عنوان الموضوع لظهور دلالتها على ترك الأنانية ، ومزيد الانقياد ، والخوف والاقتصاد فى التصرف ، بما اذن المولى بالتصرف فيه ، ولا يأبى هذا قصد التعريض بما ذكر فى التخلية ويؤيد هذا القصد التعقيب بقوله عز وجل (ومن يفعل ذلك : الآية) أ. هـ .

فإذا فعل أحد هذه الأمور التى تقدمت يلاقى عذابا عظيما فيضاعف له هذا العذاب ويخلد فيه مهانا ، بالذنوب التى اقترفها ، لأنه ضاعف الذنوب فضوعفت له العقوبة .

ومن تاب عن الشرك ، وآمن بالله وبرسوله ، وكتابه ، وعمل عملا صالحا ، بدل الأعمال السيئة التى اقترفها ، فأولئك يتجاوز الله عن سيئاتهم التى عملوها ويغفر لهم ، وان الله غفورا رحيما عن السيئات ، رحيما بتبديلها بالحسنات ، ومن تاب عن جميع المعاصى وعمل صالحا يكفر به عن سيئاته ، فإنه يرجع إلى الله عصمته وسبل هدايته ورشاده ، ينجيه من عقاب الله ومن عذابه .

وإذا كان لنا أن نتعرض بشيء من التفصيل لموضوع التوبة باعتبارها التى يكفر بها الله سبحانه وتعالى ما ارتكبه عباده العاصون من الذنوب ، فإننا نذكر الآيات القرآنية التى تتعلق بهذا .

التوبة : كالتوب والمتاب ، مصدر تاب ، أى رجع إلى الله تعالى ، وتحول عن المعصية إلى الطاعة : قال تعالى :

﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾[1] وقال :

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾[3] ، وهى واجبة على العبد لظاهر قوله تعالى :

---

(١) سورة غافر آية: ٣.   (٢) سورة الرعد آية: ٣٠.

(٣) سورة النساء آية: ١٧.

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١) .

وهى ماحية للذنوب :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾(٢) .

الأحاديث المتعلقة بالآيات :

الشرك : عن زيد بن أسلم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

(من غير دينه ، فاضربوا عنقه) أخرجه مالك : قال :

(الأمر عندنا ، أن من خرج من الإسلام إلى الردة : أن يستتاب فإن تاب ، وإلا قتل.

قال : ومعنى قوله ﷺ : (من ترك دينه فاقتلوه) ، أى من خرج من الإسلام إلى غيره ، لا من خرج من دين غير الإسلام إلى غيره كمن خرج من يهودية إلى نصرانية، أو مجوسية ومن فعل ذلك من أهل الذمة : لم يستتب ولم يقتل .

وعن أنس رضي الله عنه : أن ناساً من عكل وعرينه قدموا على النبى ﷺ : وتكلموا بالإسلام وقالوا يا رسول الله :

إنا كنا أهل ضرع ، ولم نكن أهل ريف : واستوخموا المدينة فأمر لهم بذود وراع ، وأمرهم أن يخرجوا فيه : فشربوا من ألبانها وأبوالها : فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرة، كفروا بعد إسلامهم. وقتلوا راعى النبى ﷺ، واستاقوا الذود ، فبلغ ذلك النبى ﷺ، فبعث الطلب فى آثارهم فأمر بهم ، فسمروا أعينهم ، وقطعوا أيديهم وتركوا فى ناحية الحرة : حتى ماتوا على حالهم(٣) .

القتل : عن سعيد بن العاص رضي الله عنه ، عن بن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ:

(لا يزال المؤمن فى فسحة من دينيه مالم يصب دما حراما) .

وقال عمر رضى الله عنهما :

(١) سورة النور أية: ٣١.

(٢) سورة التحريم آية: ٨.

(٣) أخرجه الخمسة.

(إن من ورطاط الأمور التى لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حل[١]) .

وأخـرج أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (الإيمان قيد الفتك ، لا يفتك مؤمن)[٢] وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ليس من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها : لأنه أول من سن القتل)[٣] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

لا يحل دم أمرئ مسلم، شهد أن لا إلا الله وأنى رسول الله: عدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه، والمفارق للجماعة[٤] .

الزنا : روى عن بعض الصحابة: أنه قال: إياكم والزنا فإن فيه ست خصال: ثلاثة فى الدنيا وثلاثة فى الآخرة: فأما التى فى الدنيا فنقصان الرزق، وقطع الأجل، وسواد الوجه.

وأما التى فى الآخرة فغضب الله وشدة الحساب، ودخول النار.

وروى أن موسى عليه السلام قال: يارب مالى من زنا؟ قال الله تعالى ألبسه درعا من النار، لو وضع على جبل شاهق لأصبح رماداً.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبى ﷺ : أنه قال: من لاط لا يجد رائحة الجنة، وأن رائحتها التوبة من مسيرة خمسمائة عام.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: لا ينظر الله تعالى إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة فى دبرها[٥] .

وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به[٦] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه.

(٢) أخرجه البخارى فى التاريخ، وأبو داود فى سننه، والحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة، وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن الزبير وعن معاوية.

(٣) أخرجه الخمسة. (٤) أخرجه الخمسة.

(٥) أخرجه الترمذى فى سننه.

(٦) أخرجه أبو داود والترمذى فى سننيهما وابن ماجه وأحمد والحاكم والبيهقى.

وجاء فى الحديث الشريف عن ابن عمر رضي الله عنه:

قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ : فقال يا معشر المهاجرين، خمس خصال: إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن.

لم تظهر الفاحشة فى قوط قط: حتى يعلنوا بها إلا فشى فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا[١] ... الحديث.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال:

لعن الله سبعة من خلقة: من فوق سبع سموات: ورددت اللعنة على واحد منهم ثلاثا، ولعن كل واحد منهم لعنة تكفيه قال:

ملعون من عمِل عملَ قوم لوط، ملعون من عمِل عملَ قوم لوط، ملعون من عمِل عملَ قوم لوط، ملعون من ذبح لغير الله، ملعون من أَتى شيئاً من البهائم، ملعون من عق والديه، ملعون من جمع بين امرأة وابنتها، ملعون من غير حدود الأرض، ملعون من ادعى لغير مواليه.

التوبة: عن أبى هريرة رضي الله عنه : قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(والله أنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة)[٢].

عن أبى حمزة أنس بن ملك الأنصارى أنه قال: قال رسول الله ﷺ : (لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضل فى أرض فلاه)[٣].

وفى رواية لمسلم: (الله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان علي راحلته بأرض فلاه، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى منها فأتى شجرة فاضجع فى ظلها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك: إذا هو بها: قائمة عنده، فأشد بخطامها ثم قال من شدة الفرح:

(اللهم أنت عبدى وأنا ربك: أخطأ من شدة الفرح)[٤].

(١) أخرجه الحاكم والبيهقى.
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه.
(٣) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحهما.
(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه.

﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[١].

ذكر الله سبحانه وتعالى نوعين من الذنوب يجتنبها المؤمن ويبعد عنهما عباد الرحمن بعد أن ذكر حكم التوبة من السيئات.

هاتان الصيغتان هما: شهادة الزور، وعدم الاهتمام باللغو والتجاوز عنه.

وقد ركز الله سبحانه وتعالى على شهادة الزور نظراً لدخولها فى كثير من الأحكام الشرعية التى تحتاج إلى الشهادة كالزنا والقتل والسرقة وغيرهم.

وأيضاً ركزت الآية على اللغو الذى يدخل فيه الكذب، والقول الفاحش، وانتهاك حرمات المسلمين.

والمعنى المراد:

والذين لا يشهدون شهادة الزور، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه لينصب على أنه صفة له.

ولا يحضرون مواضع الكذب أو الغناء مأخوذ من الشهود والأول من الشهادة:

لأنه مساعدة لأهل الباطل على ما هم فيه ووجودهم معهم دليل على استحسانه والرضا به، وعلى المؤمن أن يترفع بنفسه عن مخالطة أهل الشر ومشاركتهم فى باطلهم، لأن من حام حول الحمى: يوشك أن يقع فيه[٢].

ويصح أن يكون المراد من الزور: كل شئ باطل، مـــائل عن الحق، من الإزوار كالشرك، والكذب، والغناء، والنياحة وغيرها، أى لا يشهدون مجالسها ومجامعها.

وإذا مروا: مصادفة واتفاقا بما يجب أن يلقى ويهمل لعدم نفعه وخيريته «مروا كراماً» منصرفين عنه غير ملتفتين إليه، صيانة لسمعهم ونفوسهم، وأن تتجه إلى مالا خير فيه

(١) سورة الفرقان آية: ٧٢.

(٢) عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله (ص) يقول: (إن الحلال بين وأن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات أستبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب).

من اللغو الذى يسبب الانقطاع عن الله تعالى، فهم يكرمونها من تعرفه والوقوف عليه، وعدم الخوض فيه، لأن ترك ذلك من حسن إسلام المرء:

وأصل الكلمة من قولهم ناقة كريمة إذا كانت تعرض عند حلبها تكرماً كأنها لا تبالى بما يؤخذ منها: لغزارة لبنها:

وأخرج ابن أبى حاتم، وابن عساكر، عن إبراهيم بن ميسرة، قال بلغنى: أن ابن مسعود رضي الله عنه : مر بلهو معرضاً ولم يقف، فقال النبى ﷺ :

لقد أصبح ابن مسعود (وأمسى كريماً) ثم تلى إبراهيم ابن ميسر:

(وإذا مروا باللغو مروا كرماً) وقيل اللغو، هو ما يستهجن من القول: وكرمهم إذا مروا به: التعبير عنه عند ذكره بطريق الكتابة والإيماء إليه، من غير تصريح بلفظه الذى وضع له: كلفظ النكاح، والفرج، وغير ذلك مما تنبوا عنه الأسماع وتنفر منه:

وقيل المراد باللغو: الزور، وهو الأمر بالباطل: ذكر تارة بأنه زور كبطلانه، ومرة بأنه لغو لأنه لا فائدة فيه، وأصل الكلام: وإذا مروا به فوضع الظاهر موضع المضمر: أى والذين لا يحضرون الباطل: وإذا مروا به اتفاقا أعرضوا عنه.

وأنت تعلم أن شهادة الزور نوع من الكذب الفاحش الذى يدخل فى المعاصى كلها، ومرتكبه فاسد المروءة، خبيث الطعمة، خبيث الغرض آثم قلبه، يبدل الحق باطلا والباطل حقاً، ليبيع دينه وكرامته وآخرته بدنيا ذاهبة، وعرض يسير، وسيرة سيئة فى الناس، فأهون به وبمكانته الذليلة الوضيعة عند الله والناس وإنك لتعجب كثيراً لهذه الفئة التى كثر سوادها، والتى تنصب نفسها لأداء هذه الشهادة الفاجرة، ويتكلف بعضهم الصلاح والتقوى ليتصيد قلوب العامة وأموالهم حتى إذا دعى لأداء هذه المهمة جاد بنفسه لنصرة الضلال، وخطى هذه الخطوات فى سبيل الشيطان.

وأما الاشتغال باللغو فهو مضيعة للوقت الذى هو رأس مال المؤمن، وعليه أن يستغله فى طاعة الله من قبل أن يأتيه الموت، فيضيع من يده أو يقول: رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب، فأصدق وأكن من الصالحين.

ولو علم العبد قيمة ما ينفقه من الزمن على الكلام الذى يحبط عمله- كالغيبة، والتفوه بما يقبح ذكره والتصريح به- لما فرط فى لحظة واحدة من عمره، ولما تبرع للهو وإخوان السوء بشئ من هذا المال الذى هو فى قدرة على استثماره وتنميته.

وهذه الأحاديث فيما اشتملت عليه الآية:

١ - عن أبى بكرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ.

(ألا أنبئكم بأكبر الكبائر) ؟

قلنا: بلى يا رسول الله: (قال الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس، فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور، فما زال يكررهما حتى قلنا ليته سكت)[(١)].

٢ - وعن أيمن بن خريم «بن فاتك» قال: قال رسول الله ﷺ.

عدلت شهادة الزور إشراكا بالله تعالى، ثم قرأ:

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾[(٢)]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ.

(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده: والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه[(٣)]) .

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت الناس الذى يحب أن يؤتى إليه[(٤)]) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : قال: قال رسول الله ﷺ:

(وما كان المؤمن بالطعان ولا الفاحش ولا البذئ) .

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(ما كان الفحش فى شئ إلا شأنه ولا كان الحياء فى شئ إلا زانه)[(٥)].

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذى، والآية رقم ٣٠ - ٣١ من سورة الحج.

(٣) متفق عليه. (٤) رواه مسلم فى صحيحه.

(٥) رواه الترمذى وقال حديث حسن.

وعن صفوان بن سليم رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله:

(أيكون المؤمن جبانا؟ قال: نعم

قلنا أفيكون بخيلا؟ قال نعم

قلنا أفيكون كذابا؟ قال: لا)[١].

وعن مالك أنه بلغه أن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

(لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب، فينكت فى قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه، فيكتب عند الله من الكذابين)[٢].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: (أن الصدق يهدى إلى البر وأن البر يهدى إلى الجنة وأن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً.

وأن الكذب يهدى إلى الفجور، وأن الفجور يهدى إلى النار، وأن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا)[٣].

(ويل للذى يحدث بالحديث ليضحك منه القوم، فيكذب، ويل له)[٤].

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ:

(يكون فى آخر أمتى أناس دجالون كذابون: يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم لا يضلونكم ويفتنونكم)[٥].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

(نهى رسول الله ﷺ عن التحريش بين البهائم[٦]، والتحريش بينها إغراء بعضها ببعض).

---

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن.

(٢) رواه مالك فى الموطأ.

(٣) رواه مالك فى الموطأ.

(٤) أخرجه أبو داود والترمذى.

(٥) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه.

(٦) أخرجه أبو داود والترمذى.

وعن بردة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(من لعب بالنرد شير: فإنما صبغ يده فى دم خنزيز).

(النرد شير) هى المعروفة اليوم بالطاولة.

وعن عائشة رضى الله عنها: أنها أرسلت إلى قوم سكان فى دارها عندهم نرد: لأن لم تخرجوها وإلا أخرجتكم من دارى، وأنكرت ذلك عليهم، أخرجه مالك.

وعن محمد بن المنكدر قال:

بلغنى أن الله تعالى يقول يوم القيامة:

(إن الذين كانوا ينزهون بأسماعهم عن اللهو، ومزامير الشيطان؟ أدخلوهم فى رياض المسك، ثم يقول للملائكة عليهم السلام أسمعوهم حمدى، وأخبروهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[1].

قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[2]

اعلم أنه تعالى وصف عباده فى الآية السابقة بأنهم عباده المعرضون عن الدنيا التى تحول دون إقبالهم على ربهم، ولذلك فهم لا يشهدون الزور وهم يكرمون أنفسهم عن سماع اللغو إذا مروا به.

وفى هذه الآية نعتهم بأنهم متوجهون إلى عمل الآخرة التى يريدونها ويسعون لها سعيا.

فالآية الأولى منبئة عن أنهم لا يرجون حرث الدنيا ونصيبها وهذه تفيد أنهم يبتغون حظ الآخرة وجزاءها.

والمعنى: والذين إذا ذكروا بآيات القرآن المشتملة على العبر والمواعظ لم يعلموا عمل الكافرين والمنافقين، من عدم الانتفاع بها والاستفادة منها، بل يقبلون عليها كل الإقبال لتعيها آذانهم وترعاها أبصارهم، فالنفى متوجه إلى القيد كما هو الأكثر عند العرب

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود.

(٢) سورة الفرقان آية: ٧٣.

والمراد إثبات الغرور ونفى أن يكونوا عند حصوله منهم صما وعميانا، والتعبير به دون لم يكبوا لإفادة شدة تأثرهم بالقرآن، فهم حين يسمعونه يخرون عليه متدبرين فيه متأثرين به، والخرور السقوط على غير نظام، وترتيب، ويجوز أن يراد بهذه الآية معناها اللغوى، أى العلامة الدالة على قدرة الله المنبتة فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ كما فى قوله تعالى فى حق أضدادهم:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(١)

قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(٢).

تقدم فى الآية السابقة، أن الله تعالى وصف المؤمنين بأنهم حريصون على مرضاته وطاعته، وذكر هنا أنهم يسألونه تعالى أن يقر أعينهم بصلاح أزواجهم وذرياتهم وأن يجعلهم أئمة فى الدين فهم يطلبون السعادة لأتباعهم بعد ما حصلوها لأنفسهم.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم:

(ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا بالجمع وقرأ باقى السبعة وذرياتنا بالأفراد ذهابا إلى قصد الجنس).

والمعنى: والذين يقولون فى دعائهم: ربنا هب لنا من جهة أزواجنا وذرياتنا سرورا عظيماً، وفرحا جزيلا، بأن توفقهم للعمل الصالح، والإخلاص فيه ابتغاء وجهك، ورجاء ثوابك، وخوفا من عقابك ليكونوا عونا لنا على عبادتك، ولتطيب الحياة بالسكون إليهم، والعيش معهم، قانتين لربهم مطيعين، وليقوى طمعنا فى أن يكونوا معنا فى الجنة، كقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾(٣).

ولأن استجابة هذا الدعاء منا مع تذكيرهم والقيام على إصلاحهم وإرشادهم تحقق لنا الخروج من عهدة التقصير، لأننا مسئولون عنهم ومطالبون بعهدهم، والمراد: أن عباد

(١) سورة يوسف آية: ١٠٥.

(٢) سورة الفرقان آية: ٧٤.

(٣) سورة الطور آية: ٢١.

الرحمن لا يريدون أن تقر أعينهم بأن تحوز أزواجهن وذريتهم مظاهر الدنيا من المال والجمال، ولكن الذى يملأ قلوبهم بشراً وحبوراً أن يكونوا على جانب عظيم من الدين متمسكين به لا يجيدون عنه، ولا يخطئون طريقه.

ولاشك أن فى ذلك هناءة الأسرة ورفاهيتها والفوز بشرف الآخرى والأولى، ومن ابتدائية متعلقة بتهب، أى هب لنا من جهتهم أو بيانية بناء على صحة تقدم المبين بالكسر وهو الأزواج والذرية على المبين بالفتح وهو قرة أعين، والقرة مأخوذة من القر، وهو البرد، لأن دمعة السرور باردة، بخلاف دمعة الحزن فهى حارة، أو من القرار إذ السرور بالشئ يستقر نظره فيه لا ينتقل عنه إلى ما دونه.

والتنكير للتعظيم، أى قرة عظيمة الشأن، وتنكير أعين لأنه لا طريق لتنكير المضاف إليه، للقاعدة المستمرة من أن المضاف إلى واحد من المعارف يكون فى مرتبته والمتتبع لأسلوب القرآن يرى أنه يجمع العين بمعنى الباصرة على أعين دائما، وبمعنى الجارية على عيون كذلك.

﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

أى اجعلنا أئمة يقتدى بهم فى الدين، بأن تعلمنا وتوفقنا لصالح العمل، حتى نصلح لرياسة المسلمين وقيادتهم إلى الله على منهج القرآن والسنة.

وإنما قال: إماما بالإفراد للدلالة على الجنس فى قوله تعالي:

﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾[1] أو المراد واجعل كل واحد منا إماماً.

وإنما لم يقل: وعباد الرحمن الذين يمشون ويبيتون لربهم إلى آخره، ويقولون ربنا اصرف عنا عذاب جنهم بإسقاط الموصلات السبعة للدلالة على أن ما ذكر فى الصلة من الأمور الهامة الجليلة التى يجب أن تقصد لذاتها، وأن يجعل لها موصوف مستقل بها غير تابعة بما قبلها عناية واهتماما بشأنها.

وذكر العاطف فى قوله: والذين يبيتون وما بعده، لجعل الاختلاف العنوانى بمثابة الاختلاف الذاتى.

---

(١) من الآية رقم ٥ من سورة الحج.

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[1]

لما ذكر سبحانه وتعالى أوصافهم السيئة، وأثنى عليهم ببلوغ النهاية فى الطاعة، وإحراز شرف العبودية، التى يجب أن يسعى إليها ويتنافس فيها، بين ما أعده لهم من الجزاء، وحسن المثوبة، والكرامة فى الدار الآخرة، على صبرهم عن الشهوات، وعلى مشاق التكاليف، لينبه على أن صفقتهم رابحة، وأنهم لهم تجارة لن تبور، وأنهم هم الفائزين.

وقرأ حمزة، والكسائى، وشعبه، عن عاصم:

﴿وَيَلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾ بفتح الياء والقاف، بينهما لام ساكنة.

وقرأ الباقون: يلقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف مفتوحة.

والمعنى فأولئك الذين تقدم نعتهم بما لا مزيد عليه من الخلال الكريمة، الدالة على منزلتهم، وخضوعهم لله تعالى، يجزون الغرفة بما صبروا، أى يدخلون أعلى منازل الجنة، جزاء لهم بسبب صبرهم على امتثال الأوامر واجتناب النواهى، ورياضة النفس، وجهاد الأعداء، وأذى المشركين وغير ذلك.

والغرفة الدرجة العالية من المنازل، وكل بناء مرتفع، وهى اسم جلس قصد به الجمع، ليوافق قوله تعالى:

﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[2]، وقيل الغرفة اسم للجنة، وأولئك مبتدأ، وما فيه من معنى البعد للتنبيه على علو درجتهم، وبعد منزلتهم فى الفضل. ويجزون خبره، والجملة لا محل لها من الإعراب مستأنفة لبيان أنواع إحسان الله تعالى عليهم بعد وصفهم بما ذكروا على القول الثانى وهى فى محل رفع خبر لعباد الرحمن على القول الأول، والباء سببية وما مصدرية، وحذف مفعول صبروا ليعم كل ما تقدم، وغيره ليكون ذلك أبلغ فى مدحهم، وأدل على مزيد انقيادهم له تعالى.

---

(١) سورة الفرقان آية: ٧٥ – ٧٦.
(٢) سورة سبأ آية: ٣٧.

وإنما لم يقل فعلوا لأن ما معنا أدخل فى باب الثناء عليهم لأنهم عالجوا أنفسهم وراضوها على فعل الخير وترك الشر، حتى ذلك لهم وانقادت.

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾ أى دعاء بالتعمير ودوام البقاء، وسلاماً من الآفات والعلل، وأصل التحية من قولهم: حياك الله وأبقاك، وهى مشتقة من الحياة. والمراد: أن الله تعالى يجمع لهم بين سكنى الجنة والانتفاع بما فيها.

وبين هذه المقالات السارة. وفاعل التحية والسلام: إما الله عز وجل لقوله تعالى: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[1]

وإما الملائكة كقوله تعالى:

﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[2].

وإما بعضهم مع بعض كما هو الظاهر من قوله تعالى:

﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾[3]

والغرض من هذا الكلام: إدخال الفرح على قلوبهم، وتهنئتهم بما وصلوا إليه من الدرجات العلى، لا أن الداعى يطلب لهم ما ليس حاصلا إذ بقاؤهم فى الجنة ثابت من غير تحية ولا دعاء، ونعيمهم دائم خالص من شائبة الضرر خالدين فيها حال من فاعل يلقون مفيد: لأن ما هم فيه من الخير والتكريم بدعاء الملائكة لهم بالسلام وتحيتهم أبدى لا أنقضاء له:

﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أى ما أحسنها، أو حسنت بمعنى نعمت، فيها ضمير مبهم تقديره هى. والتأنيث باعتبار الجنة. ومستقرا نصبا على التمييز.

وهذه أحاديث فى ما أعده الله للمؤمنين فى الجنة.

وفقنا الله للعمل لها:

---

(١) سورة يس آية: ٥٨.

(٢) سورة الرعد الآيات: ٢٢ - ٢٣.

(٣) سورة يونس آية: ١٠.

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه: عن النبى ﷺ قال:

أن أهل الجنة ليتراءون أهل القرن من فوقهم: كما تراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم.

(قالوا يارسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟)

قال بلى (والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله. وصدقوا المرسلين)[(١)].

وعن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

إذا دخل أهل الجنة الجنة. ينادى مناد: أن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً

وأن لكم أن تصحوا فلا تشقوا أبدا.

وأن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا.

وأن لكم أن تنعموا فلا تبتلسوا أبدا.[(٢)]

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

(إن آدنى مقعد أحدكم من الجنة أن يقول له تمن، فيتمنى ويتمنى: فيقول له هل تمنيت؟ فيقول: نعم. فيقول له: فإن لك ما تمنيت ومثله معه)[(٣)].

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة: فيقولون لبيك: ربنا وسعديك، والخير فى يديك.

فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ومالنا لانرضى، يا ربنا فقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟

فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأى شئ أفضل من ذلك؟

فيقول: أجل عليكم رضوانى فلا أسخط بعده أبدا[(٤)].

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه الإمام مسلم.

(٣) رواه مسلم فى صحيحه.

(٤) متفق عليه.

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ: فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال: إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر: لا تضامون فى رؤيته[١].

وعن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

إذا دخل أهل الجنة الجنة: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيد بكم؟

فيقولون: ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة؟ وتنجنا من النار؟

فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم[٢]

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

(إن أهل الجنة ليتراءون بالغرف فى الجنة كما تراءون الكوكب فى السماء)[٣].

وعنه رضي الله عنه قال:

شهدت من النبى ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال فى آخر حديثه:

(فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)، ثم قرأ:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ: إلى قوله تعالى:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٤]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

إنى لأعلم آخر آهل النار خروجاً منها، أو آخر أهل الجنة دخولا من النار حبوا، فيقول الله عز وجل:

أذهب فادخل الجنة، فيأتيها: فيخيل إليه أنها ملئ: فيرجع: فيقول الله عز وجل:

(إذهب فأدخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا عشرة أمثالها، أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا).

فيقول: أتسخر بى؟ أو تضحك بى؟ وأنت الملك؟

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه.

(٣) متفق عليه.

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه والآيات رقم ١٦ - ١٧ من سورة السجدة.

قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ: ضحك حتى بدت نواجذه، فكان يقول ذلك أدنى أهل الجنة منزلة[١].

وعن أبى موسى رضي الله عنه: أن النبى ﷺ قال:

(إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن، ولا يرى بعضهم بعضاً)[٢]

وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال:

(إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع فى ظلها مائة عام ما يقطعها)[٣].

وعن أبى هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (لقاب قوسين فى الجنة خير مما تطلع عليه الشمس أو تغرب)[٤].

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

(إن فى الجنة سوقاً يأتونها كل جمعة: فتهب ريح الشمال فتحسر فى وجوههم وثيابهم فيزدادوا له حسناً وجمالا فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالا:

فيقول لهم أهلوهم: والله لقد أزددتم حسناً وجمالاً، فيقولون: (وأنتم والله، لقد أزددتم بعدنا حسناً وجمالاً)[٥].

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[٦].

لما ذكر الله سبحانه وتعالى فيما تقدم جزاء المؤمنين ووصفهم قبل ذلك بالصفات المنبئة عن العبودية الحقة، والإخلاص فى خدمته تعالى، وامتثال أوامره، والبعد عما نهاهم عنه.

---

(١) متفق عليه. (٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده، ومسلم فى صحيحه، والبخارى فى صحيحه، والترمذى فى سننه عن أنس، وأخرجه البخارى ومسلم عن سهل بن سعد، وأخرجه أحمد فى مسنده والبخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه فى سننه عن أبى هريرة.

(٤) متفق عليه. (٥) أخرجه مسلم فى صحيحه.

(٦) سورة الفرقان آية: ٧٧.

عقب ذلك بذكر أن ما يدعوهم إليه من العبادة، ليس لمنفعة ترجع إليه، إذ هو الغنى عنهم، وعن طاعتهم، بل وعن كل مخلوق كائنا من كان، وإنما يرشدهم بهذا الدين إلى ما يفيدهم، ويحقق لهم السعادة الأبدية.

فعلى جميع الناس أن يعقلوا هذه الرحمة، ويقدروها حق قدرها، فيعبدوه وحده، لا يشركوا به شيئاً.

ويتبعوا هذا النور الذى أنزل لهدايتهم وصلاح أمرهم فى الدنيا والآخرة:

والمعنى: قل يا (محمد) لكل الناس متحدثاً معهم عما حصل من جنسهم من خير وشر، وحتى يتبين لهم أن السبب فى ظفر البعض بتلك الخيرات الكثيرة والمقامات الرفيعة، هو تمسكهم بالإسلام وما يحث عليه من فضائل.

(ما يعبؤا بكم ربى لو لا دعاؤكم)، أى شئ يعبؤا بكم، وأى اعتداد يعتد بكم، ولولا عادتكم له تعالى، فإنكم إنما خلقتم لطاعته، والإقرار له بالألوهية والوحدانية.

كما قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1]

وإلا فقد شاركتم البهائم فى هذا الوجود الخسيس القاصر على جمع الطعام والشراب، وتلبية الشهوات وعواطف الشر، ونبذ العقل والتفكير فى أمر المعاش والمعاد، على ضوء الحكمة والبصر بعواقب الأمور، وأصل العبء الثقل:

تقول ما عبأت بفلان، أى ما أعددت له ما يكون ثقلا على، وما استفهامية منصوبة على المصدرية، كما مر تقديره وذكر الرب مضافا إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لإفادة، أن هذا الكلام من جملة تربيته تعالى لعباده، وأن الرسول ﷺ مأمور من قبله تعالى، بأن يقول: وليس عليه إلا الإتباع والدعاء بمعنى العبادة، وهو مصدر مضاف إلى الفاعل.

وقال الزجاج: أى وزن يكون لكم عنده تعالى: لولا عبادتكم وجواب لولا محذوف، والتقدير لولا دعاؤكم لما اعتد بكم لدلالة ما قبله عليه.

(١) سورة الذاريات آية: ٥٦.

وقيل المعنى: ما يصنع بكم ربى، لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام، فالدعاء بمعنى الدعوة وهو مضاف إلى المفعول.

وقيل ما يصنع بعذابكم، لولا دعاؤكم، معه آلهة، كقوله: تعالى:

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾[1]

وقيل ما يعبؤا بكم بعذابكم لولا دعاؤكم إياه، وتضرعكم إليه فى الشدائد، كقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[2].

ويصح أن تكون ما نافية، أى لا يعبأ بكم: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ هو بيان الحال من كفر بين المخاطبين، بعد بيان حال من آمن منهم.

والمعنى: فقد كذبتم بما أنزلته عليكم أيها الكفرة، وعصيتم أمرى واتبعتم غير سبيل المؤمنين: ومثل ذلك ما يقول الملك لمن خرج على أمره، إن من عبادتى أن أحسن إلى من يطيعنى، وقد عصيتنى، فسوف ترى ما سينزل بك من العقاب بسبب عصيانك.

فإنه تعالى قال:

قد أعلمتكم بأن حكمى ألا أعتد بعبادى إلا لعبادتهم، فقد خالفتم بتكذيبكم حكمى. فسوف يكون لزاماً، أى يكون أثر التكذيب، أو جزاؤه لازماً، يحيق بكم، فلا مفر لكم منه ولا خلاص، وذلك فى الآخرة، وقيل اسم يكون هوالعذاب وعدم التصريح بالاسم، لتفخيم شأنه والتنبيه على أنه من الهول والشدة بحيث لا يمكن وصفه:

وقانا الله ونجانا من موجباته وعصمنا من الزيغ بعد الهداية والضلال بعد الهدى.

---

(١) سورة النساء آية: ١٤٧.

(٢) سورة العنكبوت آية: ٦٥.

من هو الصُّوفيُّ؟

يقول الإمام الأكبر عبد الحليم محمود شيخ الإسلام رضى الله عنه إنه من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق، وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق.

الصوفية؟

إنهم قوم آثروا الله على كل شئ؛ فآثرهم الله على كل شئ.

– من أين جاء هذا الأسم؟

لقد سئل ذو النون: لمَ لزمتمْ هذا الاسم –اسم التصوف– وهل هو مشتق من معنى، أو لقب؟

فقال:

«قيل: إن اسم الصوفية كان فى الأصل «صَفَوِيَّة» من الصفاء، وذلك أنهم يسترون العمل ويكتمونه فلا يشوبه الرياء.

وقيل: إنهم كانوا فى الأصل «صُفِّيَّة»، مأخوذ من أهل «الصُّفَّة».

وقيل: إنه اسم لزمهم على غير اشتقاق، وإنما هو لمن تَبَتَّل منقطعاً إلى الله من العباد، فأخلص المجاهدة.

وقيل: إنه علَمٌ غير مشتق من نسبة ولا عمل.

وكانوا يلبسون الصوف؛ لأنه أدْعَى إلى التقشف، وأشبه بلباس الصالحين.

وكان التصوف سمة المجتهدين فى العبادة».

الطريق:

من طرائف ذى النون أنه سئل عن السِّفلة من هم؟

فقال:

«مَنْ لا يعرف الطريق إلى الله تعالى، ولا يتعرَّفه».

(٥)

والقرب من الله سبحانه وتعالى سعادة.

ويقول ذو النون:

«بأول قدم تطلبه تدركه وتجده».

لابد من البدء بالطلب، والطلب فى إخلاص وصدق، وهذا طريق الإنابة.

وأما طريق الاجتباء فلا شروط له.. إن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[1].

للتصوف -إذن- طريقان: طريق الاجتباء، وطريق الإنابة.. وعن ذلك يعبر ذو النون فيقول -فيما رواه يوسف بن الحسين-:

سمعت ذا النون يقول:

«العطايا مواهب، والطاعات مكاسب، والناس رجلان:

دَارِجٌ، ووَاصِلٌ.

.. فالدارج سائر على طريق الإيمان.

.. والواصل طائر بقوة المعرفة.

.. ولكلٍّ دليل؛ فدليل الإيمان: العلم. ودليل المعرفة: الله تعالى.

.. فمتى يلحق السائر الطائر».

ويلخص ذو النون الطريق إلى الله، والسعادة التى تتأتى عنه فى إيجاز محكم جميل، فيقول:

«إن المؤمن إذا آمن بالله واستحكم إيمانه خاف الله، فإذا خاف الله تولَّدت من الخوف هيبة الله، فإذا استقرت عنده درجة الهيبة دامت طاعته لربه، فإذا أطاع تولَّد من الطاعة الرجاء، فإذا استقرت درجة الرجاء تولَّدت من قِبَل الرجاء المحبة، فإذا استحكمت معانى المحبة فى قلبه استتبعت درجة الشوق، فإذا اشتاق أدَّاه شوقه إلى الأنس بالله، فإذا أنس بالله اطمأن إلى الله كان ليله فى نعيم، ونهاره فى نعيم، وسرُّه فى نعيم، وعلانيته فى نعيم».

---

(١) سورة الشورى آية: ١٣.

ومدار الطريق -فيما يرى ذو النون- على أربع:

«حب الجليل، وبغض الفانى القليل، واتباع التنزيل، وخوف التحويل».

وينبغى للمريد أن يُحْكم الأصل، ثم يطلب الفرع، كيف يسأل عن الزهد وهو لم يُحكم الورع، وقبل الورع التوبة، ولربما نظرت إلى الرجل يسأل عن الرضا وهو لا يدرى ما القنوع.

وإننا لا نتحدث هنا عن الاجتباء فإنه فى حقيقة الأمر ليس طريقاً بالمعنى العادى:

إنه جذبة من جذبات الحق فى لحظة بعدها يتبدل المرء حالاً بعد حال، ويدخل رحاب الحق -جل وعلا- عبداً من عباده المخلصين.

لقد اختارته العناية منذ الأزل، وأدركته فى الوقت الذى اختارته الحكمة.

أما طريق الإنابة فهو الطريق بالمعنى العادى للكلمة، ولابد فيه من الطلب، فإذا صدقت النية فى الطلب وصدقت العزيمة جاءت الهداية:

﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[1]

وإن قلّة تأسُّف إنسان -كما يقول ذو النون- على الحق إنما تكون من قلة قَدْر الحق عنده، فإذا عرف الإنسان قَدْر الحق فإنه يسعى فى طلبه.

ما هو أول القَدَم الصادق فى طلب الله سبحانه؟

إنه الفرار -من كل شئ إلى الله:

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾[2]

التوبة:

وأول مقام فى الفرار إلى الله التوبة الصادقة، حتى يبدأ المسير إلى الله على طُهْر، وحتى يكون العهد مع الله على ترك المعاصى.

وتوبه العوام من الذنوب، وتوبة الخواص تكون من الغفلة.

---

(١) سورة الشورى آية: ١٣.

(٢) سورة الذاريات آية: ٥٠.

يقول ذو النون:

«لله عبادٌ تركوا الذنوب حياء من كرمه، بعد أن تركوها خوفاً من عقوبته».

«ولو قال لك الله تعالى: افعل ما شئت، فلست آخذك بذنب. لكان ينبغى أن يزيدك كرمه استحياءً منه، وتركاً لمعصيته، إن كنت حراً كريماً عبداً شكوراً.. فكيف وقد حذَّرك؟».

لم يعصه حياء منه، وهذا من صفات أصحاب النفوس الكريمة.

المريد:

ومنذ أن يبدأ الإنسان الطريق بالتوبة الصادقة، يسمى «مُريداً».

ويوالى ذو النون النصح للمريد.. ومن كلامه:

«إياك أن تكون للمعرفة مدَّعياً، أو بالزهد محترفاً، أو بالعبادة متعلّقاً، وفرَّ من كل شئ إلى ربك».

وتحذير ذى النون من التعلق بالعبادة إنما هو توجيه إلى أن الرقىَّ فى مقامات القرب إنما مردُّه إلى الله سبحانه، لا إلى العبادة.. ولذلك يجب أن يكون تعلُّق المريد دائماً بالله، لا بأعماله.

وليس فى طريق الفرار إلى الله عقبات، وذلك أن الرزق مضمون والرزاق موجود، يقول ذو النون معاتباً الذين لا يفرُّون إلى الله:

«إن الله رَزَقَنا قُوْتَنَا، وكلَّفنا دونَ طاقتنا، فلا بما رَزَقَنا اكتفينا، ولا بما كلَّفَنا ائتمرنا».

وذو النون فى نصائحه للمريدين يحذِّرهم –باستمرار– «الدنيا».

والدنيا فى عُرف الصوفية إنما هى الشهوات والأهواء، وقد عبَّر الله سبحانه عنها بقوله:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1]

---

(١) سورة الحديد آية: ٢٠.

وبقوله سبحانه:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[1].

ويقول ذو النون:

«استقرت منازل الدُّجَى، وثبتت حُجج الله على خلْقه، فآخذُ بحظه، ومُضيِّعٌ لنفسه، فمناره حكمته، وحُجَّته كتابه؛ فقامت الدنيا ببهجتها فأقعدت المريد، وألْهت الغافل، فلا المريد طلب دواءه، ولا الغافل عرف داءه.

ثم خصَّ الله خصائص من خلقه، فعرَّفهم حكمته، فنظروا من أعين القلوب إلى محجوب الغيوب، فساحت أرواحهم فى ملكوت السماء، ثم عادت إليهم بأطيب جنى ثمار السرور، فعند ذلك صيَّروا الدنيا معبراً، والآخرة منزلاً، همَّتهم وقلوبهم عند ربهم... ولن تفنى النفس إلا بالعلم بالله».

وقد سئل عن الآفة التى يُخدع بها المريد عن الله، فقال:

«يُريه الألطاف والكرامات والآيات».

قيل له: يا أبا الفيض، فَبِمَ يُخدع قبل وصوله إلى هذه الدرجة؟

قال: «بوطء الأعتاب، وتعظيم الناس له، والتوسع فى المجالس، وكثرة الأتباع، فنعوذ بالله من مَكْرِه وخَدْعه».

قال: وسمعت ذا النون، وقد سئل:

– ما أساس قسوة القلب للمريد؟

فقال:

«ببحثه عن علوم رضيت نفسه بتعليمها دون استعمالها والوصول إلى حقائقها».

ومن أهم النواحى التى كان يهتم بها «ذو النون» –فى نصائحه للمريدين– هى «الادعاء».

(١) سورة آل عمران آية: ١٤.

فهو يقول مثلاً:

«كل مدح محجوب بدعواه عن شهود الحق.. لأن الحق شاهد لأهل الحق، لأن الله هو الحق، وقوله الحق، ولا يحتاج أن يدَّعى وإنما تقع الدعوى للمحجوبين».

وقال:

«من ادَّعى مقاماً حُجب به عن الله».

والمحققون لا يدَّعون.. يقول ذو النون:

«كلَّتْ ألسنة المحقِّقين عن الدَّعَاوَى.. ونطقت ألسنة المدَّعِين بالدَّعَاوَى».

وينصح المريد بالتزام العبودية:

«والعبودية: أن تكون عبداً فى كل حال، كما هو ربك فى كل حال».

وإذا خرج مريد من حوزة الأدب يرجع إلى حيث شاء.

ولكى يستفيد المريد لا بد له -مع الأدب- من التواضع..

يقول ذو النون:

«يا معشر المريدين: من أراد منكم الطريق فَلْيَلْقَ العلماء بإظهار الجهل، والزهَّاد بإظهار الرغبة، والعارفين بالصمت. وذلك: ليزيده العلماء علماً، والزهاد زهداً، والعارفون معرفة».

قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

ولقد حرص ذو النون -الحرص كله- أن يجعل طريق المريد أول الأمر طريقاً ربانياً، فبيَّن المسالك والمهالك.

لقد بين علامات الانحراف وعلامات القبول.. عن سعيد بن عثمان عن أبى الفيض ذى النون المصرى، قال:

---

(١) سورة التوبة آية: ٦٠.

«إن لله لَصفوةُ من خلْقه، وإن لله لخيرةُ من خلْقه».

قيل له: يا أبا الفيض، فما علامتهم؟

قال:

«إذا خلع العبد الراحة، وأعطى المجهود فى الطاعة، وأحبَّ سقوط المنزلة».

قيل له: يا أبا الفيض.. فما علامة إقبال الله -عز وجل- على العبد؟

قال:

«إذا رأيته صابراً، شاكراً، فذلك علامة إقبال الله على العبد».

قيل: وما علامة إعراض الله عن العبد؟

قال:

«إذا رأيته ساهياً، لاهياً، مُعْرِضاً عن ذكر الله، فذاك حين يُعرض الله عنه».

ثم قال:

«وَيْحَكَ، كَفَى بالمُعْرِضِ عن الله خسراناً، وهو يعلم أن الله مُقْبِلٌ عليه وهو مُعْرِضٌ عن ذكره».

قيل له: يا أبا الفيض، فما علامة الأنس بالله؟

قال:

«إذا رأيته يُؤنِسُكَ بِخلْقِهِ؛ فإنه يُوحِشُكَ مِنْ نفسه.. وإذا رأيته يُوحشكَ مِنْ خَلْقه؛ فإنه يُؤنِسكَ بنفسه».

ثم قال أبو الفيض:

«الدنيا والخلْق لله عبيد، خلَقَهم للطاعة، وضمن لهم أرزاقهم، ونَهاهم وحذَّرهم وأنذرهم، فحرصوا على ما نهاهم الله عنه، وطلبوا الأرزاق -وقد ضمنها الله لهم- فلا هم فى أرزاقهم استزادوا، ولا هم للطاعة استجابوا».

ثم قال:

«عَجَباً لِقُلوبِكُمْ.. كيْفَ لا تَتَصدَّع؟!!.. ولأجسامِكُمْ.. كيْفَ لا تتضعضع؟!!.. إذا كنتم تَسمعون ما أقول لكم وتعقلون!!».

ومن أقواله:

«إن المريد إذا صدق سَعْيُهُ فيما بينه وبين الله حلاّه فى صدور المؤمنين، وحلّى ذكره فى أفواه المحسنين؛ شغلهم شغلٌ يغلب على جميع الاشتغال، وحبهم له يحول بين الأهل والمال».

ويوجب ذو النون على المريد ألاّ يقول شيئاً إلا إذا كان مستنداً إلى حجة من الكتاب والسنة وفى ذلك يقول:

«أَشَدُّ المريدين نفاقاً: من لحظ لحظة، أو نطق بكلمة بلا حجة استبانها فيما بينه وبين ربه».

وقال:

«أَخْفَى المريدين نفاقاً: من تكلم بكلمة، أو عمل عملاً على سبيل الغفلة، ثم سئل عن الحجة فى ذلك فاحتج بحجة لم تقع له قبل الفعل استناداً عن الناس واستحساناً لقوله».

وننتهى فى هذا بهذه النصيحة التى يُسديها ذو النون للمريدين: عن العباس بن حمزة، قال:

«دخلت على ذى النون وعنده نَفَرٌ من المريدين وهو يقول لهم:

«تَوسَّدوا الموت إذا نمتم، واجعلوه نُصْبَ أعينكم إذا قمتم، كونوا كأنكم لا حاجة لكم إلى الدنيا ولابد لكم من الآخرة».

الـذِّكْـر:

إن المُريد، بعد أن يأخذ على شيخه العهد على التوبة، يبدأ -فيما يبدأ به- بالذكر.

والذكر فى عُرف القوم ركنٌ مهم من الأركان التى لابد منها للقرب من الله سبحانه وتعالى.

ولقد أمر الله تعالى بالذكر، إنه سبحانه أمر بالذكر الكثير، ولم يحدد له وقتاً وإنما أطلقه إطلاقاً، فهو مطلوب فى الصباح، وفى المساء، وفى الآصال، وفى الضحى، وفى الليل، وفى كل وقت.

ولم يحدد الله سبحانه له حالة بعينها، فهو مطلوب إذا كان الإنسان قائماً، وإذا كان قاعداً، وإذا كان مضطجعاً.

وقد جعله الله من صفات ذوى الألباب.

ورتّب الله عليه الكثير من الفوائد للعبد فى دنياه وفى أخراه.

والاستغفار من الذكر.. يقول الله سبحانه فى شأنه.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾(1).

ويقول سبحانه:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾(2).

ويقول رسول الله ﷺ:

«مَنْ لَزِمَ الاستغفارَ جعلَ الله له مِنْ كلِّ ضيقٍ مَخْرَجاً، ومِنْ كلِّ هَمٍّ فَرَجاً، ورزَقَهُ مِنْ حيثُ لا يحْتَسِب».

ويقول -صلوات الله وسلامه عليه-:

«أُعطيتُ أمانين لأمتَى».. ثم تلا:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(3)

ثم قال: «فإذا مضيت باقى الأمان الثانى: الاستغفار».

وكثرة التسبيح من الوسائل المنجية، يقول سبحانه:

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(4)

---

(1) سورة هود آية: ٩٠.

(2) سورة نوح الآيات: ١٠ - ١٢.

(3) سورة الأنفال آية: ٣٣.

(4) سورة الصافات الآيات: ١٤٣ - ١٤٤.

ويقول سبحانه:

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾[١].

والصلاة على رسول الله ﷺ من الذكر، وعنها يقول الشاعر:

إذَا كنتَ فى ضِـيْقٍ وهَمٍّ وفَـاقَـةٍ ** وأَمْسَيْتَ مَكْروباً وأَصْبَحْتَ فى حَرَجِ

فَصَلِّ عَلَى المُخْتَارِ مِنْ آلِ هاشِمٍ ** كَثِـيـراً؛ فَإِنَّ اللهَ يَأتيكَ بالفَـرَجِ

أما الفائدة الكبرى للذكر الصافى المخلص، فهى القرب من الله سبحانه.

والصوفية يستعملون الذكر للقرب من الله تعالى.

ولذى النون الكثير فيما يتعلق بالذكر.. إنه يقول:

«من القلوب قلوب تَستغفر قبل أن تُذنب؛ فتُثاب قبل أن تُطيع».

ولقد سئل عن الذكر، فقال:

«هو غيبة الذاكر عن الذكر».

ويقول:

«من ذكر الله ذكراً على الحقيقة؛ نسي فى جنب ذكره كل شئ، وحفظ الله عليه كل شئ، وكان له عوضاً عن كل شئ».

ومن كلام ذى النون:

«مَن استأنسَ بشئٍ من الدنيا لم يجدْ صَافىَ لذَّة ذِكْر موْلاه».

وقال أبو جعفر المغربى: سمعت ذا النون يقول:

«إذا أكرم الله عبداً ألزمه ذكره، وألزمه بابه، وتعرَّف إليه بالبر والفوائد، ومدَّه من عنده بالزوائد، ويصرف عنه أشغال الدنيا ويصرف عنه البلايا، فيصير من خواص الله وأحبابه.. فطوبَى له حياً وميتاً.

لو علم أبناء الدنيا بحظِّ المقرَّبين وتلذُّذ الذاكرين وسرور المحبِّين؛ لماتوا كَمَداً»[٢]

وقال ذو النون:

---

(١) سورة القلم آية: ٢٨.

(٢) أخرجه البيهقى.

«من المحال أن تجد طعم ذكره، ثم لا يشغلك به عما دونه».

وكان ذو النون ينبه إلى أن من علامة إعراض الله عن العبد:

«أن تراه ساهياً، لاهياً، لاغياً، مُعْرِضاً عن ذكر ربه.. تثقلُ عليه مُجَالَسَةُ الذاكرين».

وكان ينبه أيضاً إلى أن:

«لكل قوم عقوبة، وعقوبة العارف انقطاعُه عن ذكره».

وروى عن يوسف بن الحسين قال: سمعت ذا النون يقول:

«لن ينال أحدٌ اليقينَ فى المعرفة والتوكل إلا بدوام ذكر الله بالقلب، وكثرة مناجاته، وقطع ما شغل القلوب عن ذكر الله، والله ولى المؤمنين».

الـورع:

ونعود إلى التوبة من جديد ونتحدث عن آثارها..

إن التوبة إذا صدقت استتبعت –لا محالة– الورع.

والورع هو تحرِّى الحلال فى كل شئ، وله شأنه العظيم فى التقوى، وفى تنوير القلب.

ولقد تحدث الرسول ﷺ عن تحرِّى الحلال متناسقاً مع القرآن الكريم فى ذلك:

عن عطاء عن ابن عباس قال: تليت هذه الآية عند النبى ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً﴾[1]. فقام سعد بن أبى وقاص، فقال: يارسول الله، أُدْعُ الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة، فقال ﷺ:

«يا سَعْدُ، أطبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدعوة، والذى نَفْسُ محمدٍ بيده، إن الرجل ليقذفُ اللقمة الحرام فى جوفه ما يُتَقَبَّلُ منه أربعين يوماً، وأيُّما عبدٍ نَبَتَ لحمه من السُّحْتِ والربا فالنار أَوْلَى به».

وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ:

«يا أيُّها الناس.. إن الله طيِّبٌ، لا يقبل إلا طيِّباً.. وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال:

(١) سورة البقرة آية: ١٦٨.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[١].

وقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[٢].

ثم ذكر الرجلَ يُطيلُ السَّفرَ أشْعثَ أَغْبَرَ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّى بالحرام، يمدُّ يديه إلى السماء: يارب يارب، فأنَّى يُستجاب لذلك»[٣].

ويقول ذو النون»

«من لم يفتِّش على الرغيفين من الحلال لا يفلح فى طريق الله –عزَّ وجلَّ».

وذو النون –متابعاً للقرآن والسنة– لا يقصر الورع على الجانب المادى، وإنما يعممه على كل شئ، فقد قال له رجل مرة:

–إن امرأتى تقرأ عليك السلام.. فقال رضي الله عنه:

«لا تُقرئونا من النساء السلام».

إنه يحب أن يعيش فى سلام مع قلبه ونفسه.

على أن أمر الورع المادى سهل بالنسبة لذى النون ومن اتبعه على طريقته، لقد وصل ذو النون بالحياة المادية بالنسبة للمريد إلى حدها الأدنى، إنه يقول للمريد:

«من طلب مع الخبز ملحاً يأكله لم يفلح فى الطريق أبداً».

وكان ذو النون يعنى بذلك ألاَّ يتكلف الإنسان شيئاً، فإذا وجد الخبز الحلال ففيه الكفاية، ولله الحمد والشكر، وإذا وجد –دون طلب– مع الخبز شيئاً آخر فإن فضل الله عظيم وله الحمد والشكر.

وكان ذو النون يحذِّر دائماً من الجرى وراء شهوة الطعام، إنه يقول:

«لا تسكنُ الحكمةُ مَعِدَةً مُلِئتْ طعاماً».

(١) سورة المؤمنون آية: ٥١.

(٢) سورة البقرة آية: ١٧٣.

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه، والترمذى فى جامعه، والإمام أحمد فى مسنده.

وكان يقول:

«ما شبعتَ من الطعام -قَطُّ- إلا عصيتَ أو هممتَ بمعصية».

ولكن الأمر الشاق فى الورع هو الجانب الروحى، وهذا لابد له من جهاد النفس حتى تتزكى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾[1]

وهذا النوع من الجهاد مارسه ذو النون حتى تغلَّب على نفسه وهواه، وسيطر -بفضل الله- عليهما، وقال كلمته التى صدَّرنا بها هذا الكتاب:

«كيفَ لا أبتهجُ بكَ سروراً، وقد كنتُ أَكْدَحُ ببابكَ حتى جعلتنى من أهل التوحيد».

الـزهـد:

وإذا صدق الإنسان فى الورع قاده ذلك إلى الزهد، والزهد هو التحقق بقوله تعالى:

﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[2].

إنه عدم تعلق القلب بالدنيا، أو هو سيطرة الإنسان على دنياه بحيث لا تستعبده.. إنه:

ألاَّ يملكك شئ ولا يستعبدك شئ.

لقد تحدث ذو النون عن الزهد، وبيَّن بعض تعريفات الناس له، فقال:

«اعلموا -إخوانى- أن الناس قد تكلموا فى الزهد بمعان مختلفة، فبعضهم قال:

«الزهدُ تَرْكُ حُبِّ المنزلة».

وقالت طائفة:

«الزهدُ تَرْكُ راحة النفوس من جميع ما تستريح إليه».

وقالت طائفة:

«الزهدُ تَرْكُ ما شَغَلَ عن الله».

وقالت طائفة:

---

(١) سورة الشمس آية: ٩.

(٢) سورة الحديد آية: ٢٣.

الزهدُ رَفْضُ الدنيا وقِصرُ الأمل».

وقالت طائفة:

«الزهدُ الثقةُ بالله».

وقالت طائفة:

«الزهدُ الإيثارُ لله وتركُ كلّ ما شغلَ عن الله».

وقالت طائفة:

«الزهدُ إخراجُ المخلوقين من القلب، وحبُّ الخلوة».

ولعل ذا النون كان يرى أن كل هذه التعريفات صادقة، والواقع أنه لا يتأتى أن يكذِّب الإنسان تعريفاً منها؛ فكلها موجَّهة إلى الخير، وإلى الرشد.. بيد أن ذا النون يضيف إليها -هنا وهناك- توضيحاً جديداً لبعض زواياها.. ولقد قال:

«اعلموا أن صفةَ الزاهدِ مَنْ لم يطلبِ المفقودَ حتى يفقدَ الموجودَ».

وقال:

«سُلِبَ الغنَى مَنْ حُرِمَ الرضا، ومَنْ لم يُقنعه اليسيرُ افتقرَ فى طلب الكثير».

وقال:

مَنْ وثقَ بالمقادير لم يغتمَ».

وقال:

«من عرف الله رَضِيَ بالله وسُرَّ بما قَضَى الله».

وقال:

«عليك بالقصد، فإن الرضا بقليل الرزق يزكِّى يسيرَ العمل».

ومهما يكن من أمر الزهد، ومهما يكن من منزلته الرفيعة فى التقوى، فإنه ليس إلا مرحلة فى الطريق.

يقول ذو النون عن الزهاد:

«الزُّهَّاد مُلوك الآخرة، وَهُمْ فقراء العارفين».

ومرة أخرى يقول:

«وهُمْ مساكين العارفين».

الزهد مرحلة، إنه مرحلة ضرورية، وهو يُسْلِم إلى التوكل.

التَّوكُّل:

والتوكل من المقامات السامية، ولقد وعد الله سبحانه أن يكون حَسْبَ المتوكلين، فقال:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[1].

ويشرح ذو النون بعض جوانب التوكل فيقول -كما رواه يوسف ابن الحسين-:

«إن الله خَصَّ أهل ولايته بالانقطاع إليه، ليعرِّفهم فضله وإحسانه فانصرفت هموم الدنيا عن قلوبهم، وعَظُمَ شُغْلُ الآخرة فى صدورهم، لما ركبها من هيبة ربهم، فألزموا قلوبهم العبودية، وطرحوا أنفسهم فى ساحة التوكل».

قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[2].

«فالمتوكل على الله قد اكتفى -بعلمه بالله- عن الاشتغال بغيره؛ حتى اتصل خوفه ورجاؤه بالله، لأنه لامانع ولا معطى إلا الله، فَلِمَ ترغب عن الله بجهلك؛ فتخضع لمن دونه عند تخويف الشيطان؟!..

واعلم أن أَخَصَّ المتوكلين عليه، يحجب عنهم كل آمنة، فهم ينظرون إلى الله تعالى، ولا يأملون غيره، فقد حجب قلوبهم عمن سواه، بما يرجون من إحسانه، واستغنوا بذكره عن ذكر غيره..

واعلم أنك لاتكون متوكّلاً حتى تصفو من كل مالك، ولا ترى إلا الله وحده، ولا تقدر أن تفر من رزقك، كما لا تقدر أن تفر من الموت.. أما سمعت الله يقول:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[3].

(١، ٢) سورة الطلاق آية: ٣. (٣) سورة الروم آية: ٤٠.

فاقطع الاشتغال بذكر الأسباب من قلبك، واعلم أن الله يرزقك بسبب وبغير سبب، ألا ترى أنه وعدك أن يرزقك، وغيّب عنك علمه، ولو احتلتَ -بكل حيلة- أن يأتيك قبل وقته أو بعد وقته لم تقدر على ذلك فيما قصد لك، لا يمنعك غيره».

«والتوكل يزيد وينقص مثل الإيمان».

أما قوله:

«فاقطع الاشتغال بذكر الأسباب من قلبك».. فإنه هو وما ماثله من التعبيرات التى تتحدث عن التوكل، قد أثار الكثير من سوء الفهم، ومن الجدل الناشئ عن سوء الفهم.

إن رسول الله ﷺ وكبار الصحابة من أمثال أبى بكر رضي الله عنه، وعمر، وخالد بن الوليد، وأبى عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبى وقاص رضي الله عنهم أجمعين وغيرهم، كانوا من كبار المتوكلين على الله سبحانه، وكانوا -وعلى رأسهم الرسول الله ﷺ- يتخذون لك أمر عدته، فى الحرب، وفى السعى على المعاش، وفى تدبير الأمر الذى يوكل إليهم.

وكل ذلك اتّباعاً لتوجيهات القرآن الكريم:

﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾[1].

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[2].

﴿يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾[3].

لقد اتخذ أسلافنا رضوان الله عليهم الأسباب لكل أمر، والعدة لكل حادث... ولكنهم لم يعتقدوا -فى يوم من الأيام- أن الأسباب هى الفاعلة، إنها ليست إلهاً، والفاعل الحق هو الله سبحانه:

ومن هنا كان:

«إذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله».

إن الأسباب ليست مؤثرة بنفسها، وكل أمر مرجعه إلى الله:

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾[4].

(١) سورة الملك آية: ١٥.
(٢) سورة الأنفال آية: ٦٠.
(٣) سورة المزمل آية: ٢٠.
(٤) سورة هود آية: ١٢٣.

إن الصالحين يتخذون لكل أمر عدته، ولكنهم لا ينسون أن الفاعل هو الله، إنهم لا ينسون الله فى المبدأ.. فهو الموفّق، ولا ينسون الله فى الوسط.. فهو الميسّر، ولا ينسون الله فى الآخر.. فإليه المصير:

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾[1].

﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾[2].

وانظر معى إلى قوله تعالى:

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾[3].

وآيات الجهاد فى القرآن، وآيات العمل، وآيات كسب الرزق.. إن كل ذلك حث على الأخذ بالأسباب.

ومع ذلك فإن السبب الأول والعامل الأخير مردُّه إلى الله .

ولقد كافح رسول الله ﷺ كفاح الأبطال متخذاً الأسباب فى الصغير والكبير من ألوان كفاحه ، وكان فى كل خطوة من خطواته معتمداً على الله تعالى .

(١) سورة الواقعة الآيات: ٥٨ – ٧٢.
(٢) سورة عبس الآيات: ٢٤ – ٣١.
(٣) سورة التوبة آية: ١٤.

وفى ضوء ذلك ينبغى أن نفهم فكرة التوكل عند الصوفية .

أما ثمرة التوكل .. فإنها الاطمئنان إلى النتائج ، وكأن العبد يقول: يارب ، هأنذا قد بذلت كل ما أستطيع بوسائلى التى أملكها ، لم أقصِّر فى ذلك ، والنتيجة إليك وأنت الحكيم الرحيم ، عليك توكلت وإليك أنيب ، إنى واثق فى حكمتك ، مطمئن إلى رحمتك ، راضٍ بقضائك .

ويقول ذو النون فى التوكل :

«من توكَّل وثق، ومن تكلَّف ما لا يعنيه ضيَّع ما يعنيه » .

وسأله رجل فقال :

–يا أبا الفيض ، ما التوكل ؟

فقال له :

« خلْعُ الأرباب ، وقَطْعُ الأسباب » .

فقال له : زدنى فيه حالة أخرى ؟

فقال :

« إلقاءُ النفس فى العبودية ، وإخراجُها من الربوبية » .

وإذا صدق التوكل أسلم إلى الرضا ..

الـرَّضـا :

والرضا هو التسليم الكامل القلبى لكل ما يأتى عن الحكيم الرحمن .. إنه منزلة : ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾(١) .

ولن تجد بين المسلمين من لا يعترف بأن الرضا مقامٌ سامٍ ، وأنه المقام الذى يجب أن يكون عليه كل مسلم ، وذلك أن كل مسلم يعترف بأن الله أحكم الحاكمين ، وأنه أرحم الراحمين ، ومن كان كذلك فلابد من الرضا بقضائه .

وقد يجد الإنسان من يجادل فى مقام الزهد ، أما فى مقام الرضا فلا تجد – نظرياً – من يجادل فيه ، بيد أن واقع الناس يختلف عن نظرياتهم ؛ فواقع الناس هو عدم الرضا ،

(١) سورة المائدة آية: ١١٩.

وكل صغيرة وكبيرة إنما هى محل شكوى ، وقليل جداً من يقول فى كل أحواله : الحمد لله .

وإذا قالها فيما يرضيه فإنه لا يقولها فيما لا يتفق مع هواه .

وإن لذى النون – عن مقام الرضا – الكثير من النفائس ، إنه يقول :

« طُوبَى لمن أنْصَفَ ربَّهُ عز وجل » .

قيل : وكيف ينصف ربَّه ؟

قال :

« يقرُ بالآفات فى طاعته ، وبالجهل فى معصيته ، وإنْ آخَذَه بذنوبه رأى عدله ، وإن غفر له رأى فضله ، وإن لمن يتقبل منه حسناته لم يره ظالماً لما معه من الآفات ، وإن قبلها رأى إحسانه لما جاء به من الكرامات » .

ويقول :

« لم يحب الله من لم يَرْضَ بقدره ، ولم يَرْجُ الله من لم يثق بقسمه » .

وقال :

« مَنْ وثق بالمقادير لم يغتمّ » .

وعن يوسف بن الحسين قال : سمعت ذا النون يقول :

« من قال : لو ... لكان ، فقد ولّى الأمر غير الله » .

فإذا استمر المتصوف فى مقاماته مع « الذكر» أسلمه ذلك إلى معرفة الله بالله .

المعرفة :

وذو النون يقسّم المعرفة إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول :

حظ مشترك بين عامة المسلمين .

القسم الثانى :

معرفة خاصة بالفلاسفة والعلماء .

القسم الثالث :

وهو العلم بصفات التوحيد خاص بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم .

ولقد سئل ذو النون عن كمال العقل وعن كمال المعرفة فقال :

« إذا كنت قائماً بما أُمرت ، تاركاً لتكلُّف ما كُفيت ، فأنت كامل العقل . وإذا كنت بالله – عز وجل – متعلقاً ، وغير ناظر إلى سواه من أحوالك وأعمالك ، فأنت كامل المعرفة » .

أما أغلب الأحوال التى استعبد الله سبحانه بها العارف ، فهى بحسب رأى ذى النون :

* رؤية كل شىء منه .
* ورجوعه في كل شىء إليه .
* وسؤاله إياه كلّ شىء .

والعارف – كما يقول ذو النون – لا يلزم حالة واحدة ، إنما يلزم ربه فى الحالات كلها .

أما عبادة العارفين ، فعنها يقول :

« إن لله عباداً عبدوه بخالص من السِّرّ فشرّفهم بخالص من شكره ، فهم الذين تمرُّ صحفهم مع الملائكة فَرْغَى ، حتى إذا صارت إليه ملأها لهم من سرٍّ ما أسَرُّوا له .

إن حظ العارفين فى الأشياء « هو » .. ومن أجل ذلك : لا يبالون ما فاتهم ، مما هو دونه ، والعارف فى كل يوم أخشع ؛ لأنه كل ساعة أقرب » .

وسئل ذو النون : بِمَ عرف العارفون ربهم ؟

فقال :

« إن كان بشىء فبقَطْع الطمع ، والإشراف منهم على اليأس ، مع التمسك منهم بالأحوال التى أقامهم عليها ، وبذلك المجهود من أنفسهم ، ثم إنهم وصلوا – بعد – إلى الله بالله » .

وقال :

« إن العارف استغنى بربه .. فمَنْ أغنى منه ؟ وورّثه ذكره ، وأناخه بفنائه ؛ فاستأنس به » .

أمارسالة العارفين فهى :

* نشر « لا إله إلا الله » فى مجالس الذاكرين .

* وتفريج كُرَب التوابين .

* والدلالة على الله بلسان التوحيد لجميع العالمين .

ومع كل ذلك فإن لكل قوم - كما يقول ذون النون - عقوبة ، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله .

وإذا ما وصل الإنسان إلى « المعرفة » فقد أصبح صوفياً .

* وهنا يمكن أن نتساءل :

- إذا ما وصل إلى المعرفة هل يتأتى أن ينتكس ؟

- أيمكن أن ينتكس الصوفى فيصبح من أهل الدنيا ؟

عن ذلك يقول ذو النون :

« ما رجع مَنْ رجع إلا من الطريق ، ولو وصلوا إليه ما رجعوا .. فازهدْ فى الدنيا تَرَ العجب » .

إن العارف لا ينتكس ؛ لقد قطع المقامات التى تربطه بالدنيا ، إنه أصبح ربانيًا ، وأصبح قلبه خالياً مما سوى الله سبحانه ، إنه أصبح فى سعادة بالله ، أو أصبح - على حد تعبير ابن سينا - مبتهجاً بالله ، إنه وصل إلى الحالة التى يقول فيها الصوفية :

« نحن فى سعادة لو علَمَها الملوك لجَالَدُونا عليها بسيوفهم » .

إنها السعادة التى آثرها إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه على مَلاذّ الدنيا كاملة موفورة ، وإنها السعادة التى آثرها الفضيل بن عياض على حياة الفُتُوّة والشطارة ، وأمجاد القوة والغلبة ، وهى السعادة التى يؤثرها كل من وصل إليها على ما عداها .

أينتكس ؟ .. كلاً وحَاشَ لله أن ينتكسوا من وصلوا إليه .

إن مقام المعرفة هو مقام الواصلين ، وعن هذا المقام ينبثق مقام المحبة .

المحبـة :

يقول ذو النون :

أمـوتُ .. ومـا مـاتتْ إليك صَـبَـابتى ** ولا رويتْ من صـرف حـبكَ أوطارى
مُناى المنى كل المنى .. أنتَ لى مُنًى ** وأنتَ الغنى كل الغنَى ؛ عندَ إقـتـارى
وأنت نُهى سُـؤْلى وغـايةُ رغـبـتـى ** مـوضعُ شكوايَ ومكنونُ إضـمـارى
تَحَـمَّل قلبى – فـيكَ – مَـا لا أبثُّـهُ ** وإن طالَ سقمى فيكَ أو طالَ إضرارى
وبينَ ضلوعى منكَ مـا لكَ قـد بَدَ ** .. ولم يَبْـدُ باديه لأهلٍ، ولا جَـارِ
أنرتَ الهُـدَى للمـهـتـدينَ ولم يكنْ ** منَ النورِ فى أيديهم عُـشْـرُ مِـعْشَـارِ
فَنَلِّنى بِعَـفْـو منكَ : أحْـيَـا بقُـربه ** وغـثْنى بيُسْرٍ منكَ يَطردُ إعـسَارى

ويربط ذو النون المحبة والذكر .. فعن سعيد بن عثمان ، قال : سمعت ذا النون يقول :

« وَيْحَكَ ، مَنْ ذَكَرَ الله على الحقيقة نَسىَ فى حبه كل شىء ، ومن نَسِىَ فى حبه كل شىء حفظ الله عليه كل شىء وكان له عوضاً فى كل شىء » .

ويعتبر ذو النون محبة الله سرّاً لا يجوز الخوض فيه لئلاَّ يسمعه العوام ، وقد تذاكر القوم المحبة فى مجلسه ، فقال :

« كُفُّوا عن هذه المسألة حتى تسمعها النفس فتدَّعيها» ثم أنشد :

الخَـوْفُ أولَـى بـالمُـسِـئ ** إذا تـألَّـه والحَـزَنْ
والحبُّ يَجْـمُلُ بالتَّـقِـىِّ ** وبـالـنَّـقِـىِّ مِـنَ الـدَّرَنْ

وهذا الموقف هو موقف المقدَّس للمحبة الذى يصل تقديسه لها إلى السمو بها حتى عن الحديث عنها .

وكان ذو النون يهيجه السماع ، إذا اتصل بحب الله سبحانه ، فقد حدثوا أنه لما دخل بغداد اجتمع إليه الصوفية ومعهم قوَّال منشد .. فابتدأ ينشد :

صَـغِـيـرُ هَوَاكَ عَـذَّبنى ** فكَيْفَ بـه إذا احْـتَكمَـا
وأنتَ جَـمـعتَ من قلبى ** هَوًى قَـدْ كـانَ مُـشْـتَـركـا
أمَـا تـرثى لـمُكْتَـئِـبٍ ** إذا ضَـحِـكَ الخَـلِىُّ بَـكَـى

فـانتشى ذو النون ، ومن شـدة نشوته سـقط على وجـهه وظل الدم يقطر منه وهو لا يدرى .

ولحب الله على الحقيقة علامات منها ما حدَّث به محمد بن أحمد ابن عبد الله بن ميمون قال : سمعت ذا النون يقول :

« قلْ لمن أظهرَ حُبَّ الله : احذرْ أن تذلَّ لغير الله ، ومن علامة المحبِّ لله ألا يكون له حاجةٌ إلى غير الله » .

ومنها ما حدث به سعيد بن عثمان قال : سمعت ذا النون يقول :

« من علامة المحبِّ لله تَرْكُ كل ما شغلَ عن الله ؛ حتى يكون الشغل كله به له »[1].

ويصف ذو النون مدى تعلق المحبين بربهم فيقول :

« خَوفُ النار إذا قِيْسَ إلى خوفِ القَطع عن المحبوب ، كقطر الماء تُقذف فى أعظم المحيطات » .

الــوُدُّ :

وعن المحبة تنبثق أحوال عدة ، فعنها ينبثق حال «الود» وهو حال من الحالات الشريفة السامية ، ولقد سمى الله نفسه : الودود ، ويقول على لسان أحد رسله :

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[2] .

والصوفية كثيراً ما يلجأون إلى هذا الاسم الشريف فى دعائهم ، ومن ذلك قول شاعرهم :

ومُنَّ علينا يا ودودُ بجذبةٍ ... بها نلْحَقُ الأقوام مَنْ سَارَ قَبْلنا

(١) أخرجه البيهقى فى «الزهد».
(٢) سورة هود آية: ٩٠.

وعن الود يقول ذو النون :

« الحب لله عـامٌّ ، والودُّ لله خاصٌّ ؛ لأن كل المؤمنين يَذوقـون حُبَّهُ وينالونه ، وليس كل مؤمن يَنالُ وُدَّهُ » .

ثم أنشأ يقول :

مَــــنْ ذاقَ طَـــعـــمَ الـــوداد ** هَجَـــر جَـــمــيعَ العِـــبـــاد

مَــــنْ ذاقَ طَـــعـــمَ الـــوداد ** خَـلَّـى لـذيـذَ الـرُّقـــــــاد

مَــــنْ ذاقَ طَـــعـــمَ الـــوداد ** سَلَى طـريـقَ الـعـــــبـــاد

مَــــنْ ذاقَ طَـــعـــمَ الـــوداد ** أنـسَ بـربِّ الـعـــــبـــاد

وعن المحبة ينبثق حال الأنس بالله ..

الأُنْس :

ويقول ذو النون عن ذلك :

« الأنس بالله من صفاء القلب مع الله ، والتفرُّد بالله : الانقطاع مِنْ **كل** شيء سوى الله » .

وفى تاريخ ابن عساكر عن أحمد بن قطن بن أبى قطن ، قال :

سئل ذو النون – وأنا حاضر عنده – :

– متى يجد العبد حلاوة الأنس بالله عز وجل ؟

قال :

« إذا قَطَعَ العلائق ، ورَفَضَ الخلائق ، وكان مِنْ أهل الحقائق ، وعَمِلَ بالرقائق ، فحينئذٍ ينجو من البوائق » .

وقال :

« إذا أحبَّ القلبُ الخلوةَ ، فقد أوصله حبُّ الخلوة إلى الأُنس بالله ، ومَنْ أَنِسَ بالله استوحشَ من غير الله ، فلله درُّ قلوبٍ أنستْ بجلال الله ، وارتعدتْ فزعاً لهيبته » .

وعن البرقى قال : سمعت ذا النون يقول :

« الأُنس بالله نورٌ ساطع ، والأُنس بالخَلْق غَمٌّ واقع » .

ولقد وصل ذو النون بالأنس بالله إلى منزلة يقول عنها :

« أدْنَى منازل الأنس أن يُلْقَى فى النار فلا يغيب عن مأموله » .

الشوق :

أما عن الشوق فيقول ذو النون :

« الشَّوقُ أعلى الدرجات والمقامات ، إذا بَلَغَهُ استَبطأ الموتَ شوقاً إلى ربه ، وحباً للقائه والنظر إلى » .

وعن أحمدبن يوسف قال :

سئل ذو النون عمن استحق الاشتياق ، فقال :

« إذا استحقَّ الاشتياق قَرُبَ من باب الخلاَّق ، وشربَ مِنْ كأسِ المذَاق ، فشَاقَ واشْتَاق» .

وهذه كلمات تلقى بعض الضوء على ما سبق أن ذكرناه فى باب التصوف :

« سأل أبو عبد الله بن سهل ذا النون : قال : متى أتوكل ؟

قال :

اليقين إذا تَمَّ سُمِّى توكُّلاً .

قلت : متى يتم حبى لربى ؟

قال :

إذا سمُجتِ الدنيا فى عينيك ، وقَذَفْتَ أملك فيها بين يديك .

قلت : فمتى أخاف ربى ؟

قال :

إذا سَرَّحْتَ بصرك فى عظمته ، ومَثَّلْتَ لنفسك أمثال نقمته .

قلت : فمتى يتم صومى ؟

قال :

إذا جوَّعتَ نفسك من البغضاء ، وأمَتَّ لسانك من الفحشاء .

قلت : فمتى أعرف ربى ؟

قال :

إذا كان ما أسخطه عندك أمراً من الصبر .

قلت : فمتى أشتاق إلى ربى ؟

قال :

إذا جعلتَ الآخرة لك قراراً ، ولم تُسمِّ الدنيا لك مسكناً وداراً .

قلت : فمتى أشتد في بغض الدنيا ؟

قال :

إذا جعلتَ الدنيا طريق مخافةٍ لا تلتفتُ إلى ما قطعت منها ، وجعلت الآخرة ساحةً مأمونةً لا تأمن إلا بالنزول فيها .

قلت : فمتى أحب لقاء ربى ؟

قال :

إذا كنت تقدم على حبيب ، وتصبر عن أمر قريب .

قلت : فمتى أستلذ الموت ؟

قال :

إذاجعلت الدنيا خلفَ ظهرك ، وجعلتَ الآخرة نُصْبَ عينيك .

قلت : فمتى أتَّقى شهوات مطاعم الأرض ؟

قال :

إذا خالطَ قلبك الملكوت ، ومُزِج سَرائر الجبَروت .

قلت : فمتى تطيب معرفتى ؟

قال :

إذا استوحشت من الدنيا واشتدَّ فرحُك بنزول البلاء .

قلت : فمتى أستقبح الدنيا ؟

قال :

إذا علمتَ أن زينتها فساد كل معنى ، وأن محاسنها تُفضى إلى حسرة ..

قلت : فمتى أكتفى بأهون الأغذية ؟

قال :

إذا عرفتَ هلاك الشهوات ، وسرعة انقطاع عذوبة اللذات .

قلت : فمتى القنوع التام ؟

قال :

إذا كان زخرف الدنيا عندك صغيراً ، وكان خوف الآخرة لك ذكراً .

قلت : فمتى آمر بالمعروف ؟

قال :

إذا كانت شفقتُك على غيرك ، وخالفتَ العباد لمحبة ربك .

قلت : فمتى أُوثر الله ولا أُوثر عليه سواه ؟

قال :

إذا أبغضتَ فيه الحبيب ، وجانبتَ فيه القريب .

قلت : فمتى أفزع إلى ذكره ، وآنس بشكره ؟

قال :

إذا سررتَ ببلائه ، وفرحتَ بنزول قضائه .

الخلـوة :

والحديث عن «التصوف » يكون قاصراً إلا لم نتحدث عن «الخلوة» .

وما من شك فى أن الخلو فترة من الزمن ضرورية للمريد ، إنها تصرفه إلي الله صرفاً كلياً ؛ فتصفو تُربته ، ويستنير قلبه بالذكر المتوالى ويرى فى خلوته وتأملاته الدنيا على حقيقتها «متاع الغرور» ويقترب من الله فى خلوته بسجوده وبصفاء سريرته .

ولقد كتب السهروردى فى كتابه « عوارف المعارف » فصولاً جميلة عن الخلوة وشروطها وأذكارها وكتب غيره منها .

والناس – عادة – يستجمُّون جسمانياً كل عام ، وإن استجماهم الروحى – ولو أسبوعاً واحداً – أوجب لهم وأفضل أثراً لمجتمعهم ، وأهدى إلى الرشد .

ويقول ذو النون عن الخلوة :

« لم أرَ شيئاً أبعثَ لطلب الإخلاص من الوحدة ؛ لأنه إذا خَلاَ لم يرَ غير الله ، فإذا لم ير غيره لم يحركه إلا حكم الله . ومن أحب الخلوة فقد تعلَّق بعمود الإخلاص ، واستمسك بركن كبير من أركان الصدق ، ومن تَزَيَّنَ بعمله فحسناته سيئات » .

ولكن ذا النون حينما تمكَّن نور الإخلاص من نفسه قال :

« ليس من احتجبَ عن الخلْق بالخلوة كمَن احتجبَ عنهم بالله » .

سر الملكوت :

فى هذه الكلمة يبين ذو النون سر الملكوت ، وهى كلمة من النفاسة بحيث رأينا أن نختم بها فصل التصوف ؛ حتى تكون خاتمة لهذا الفضل .

يقول أبو جعفر محمد بن عبدالملك بن هاشم :

قلت لذى النون :

– كم الأبواب إلى الفطنة ؟

قال :

« أربعة أبواب : أولها الخَوفُ ، ثم الرَّجاءُ ، ثم المحبَّة ، ثم الشَّوق ..

ولها أربعة مفاتيح :

فالفَرْض مفتاح باب الخوف ، والنافلة مفتاح باب الرجاء ، وحبُّ العبادة مفتاح باب المحبة ، وذكر الله الدائم بالقلب واللسان مفتاح باب الشوق ، وهى درجة الولاية .

فإذا هممتَ بالارتقاء فى هذه الدرجة ، فتناول مفتاح باب الخوف . فإذا فتحتَه اتصلتَ إلى باب الفطنة مفتوحًا لا غلق عليه ، فإذا دخلتَه فما أظنكَ تطيق ما ترى فيه ، حينئذٍ يجوز شرفُك الاشرافَ ، ويعلو مُلْكُكَ مُلْكَ الملوك .

واعلمْ – يا أخى – أنه ليس بالخوف يُنال الفرض ، ولكن بالفرض يُنال الخوف ، ولا بالرجاء تُنال النافلة ، ولكن بالنافلة يُنال الرجاء ، كما أنه ليس بالأبواب تُنال المفاتيح ، ولن بالمفاتيح تُنال الأبواب .

واعلمْ أنه مَنْ تكَامَلَ فيه الفَرْض فقد تكَامَلَ فيه الخوف ، ومن جاء بالنافلة فقد جاء بالرجاء ، ومن جاء بمحبة العبادة فقد وصل إلى الله . ومن شَغَلَ قلبه ولسانه بالذكر ؛ قَذَفَ الله فى قلبه نور الاشتياق إليه ، وهذا سرُّ الملكوت فاعْلَمْهُ واحْفَظْهُ حتى يكون الله – عز وجل – هو الذى يناوله من يشاء من عباده » .

***

وهذا الكتاب القيم الذى بين أيدينا للإمام الأكبر شيخ الإسلام رضي الله عنه (التصوف الإسلامى شخصيات ونصوص) هو نفحة علوية من الله تعالى له تقدس سره فالإمام الأكبر عبد الحليم محمود رضي الله عنه لم يكن يعتمد فى كتاباته على مجرد البحث الأكاديمى فى إسلامياته ومؤلفاته عن السادة الصوفية – رضوان الله عليهم – ولكنه كان بالإضافة إلى ذلك مطبقا للفكرة التى يؤمن بها ، ومن كان كذلك يصل كلامه إلى القلب مباشرة ويتأثر به القارئ ، ولعل دراسة متأنية لما كتبه عن الشخصيات الصوفية توضح لنا أنه كان منفعلا بها ومتفاعلا معها ويظهر ذلك بوضوح فى كتابه (الحمد لله هذه حياتى) فهو لم يكن مجرد سرد تاريخى أو ذاتى ، بل هو أيضا استخراج لكثير من الأسس والمبادئ التى آمن بها وطبقها على نفسه قبل أن يطلب من الآخرين الإقتناع بها والعمل على تطبيقها .

لقد درس الإمام الأكبر عبد الحليم محمود رضي الله عنه مذهب النصيين ودرس علاقة اليقين بالعقل ، ودرس المذاهب العقلية سواء فى الجو الإسلامى أو الغربى وعن هذه الدراسات جميعا مع دراسة الفلسفة وعلم الإجتماع وعلم النفس يقول الإمام عبد الحليم محمود رضي الله عنه :

وانتهيت من دراسة الدكتوراه وأنا أشعر شعورا واضحا بمنهج المسلم فى الحياة ، وهو منهج الإتباع إن الإمام ابن مسعود رضى الله عنه يقول عن هذا المنهج كلمة موجزة كأنها إعجاز من الإعجاز اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم .. لقد كفينا وعلينا – إذن – الإتباع وبعد أن وقر هذا المنهج فى شعورى ، واستبقته نفسى أخذت أدعو إليه : كاتبا ومحاضرا ومدرسا ، ثم أخرجت فيه كتابا خاصا هو الإسلام والعقل ، وكل ما كتبته عن التصوف والشخصيات الصوفية فإنما يسير فى فلك هذا المنهج منهج الإتباع .

لقد اختبر الإمام الأكبر عبد الحليم محمد شيخ الإسلام تقدس سره الطرق الكلامية والنصية فلم يجد الطريق الصحيح إلا فى العبودية والإتباع .

فكان من أمر الشيخ عبد الحليم محمود تقدس سره أن أصبح هو الفضيل بن عياض وهو الإمام الغزالى وهو الشيخ الأكبر محى الدين بن عربى حتى وصل به الأمر أن امتزج امتزاجاً كاملاً بالمدرسة الشاذلية فكان قطبها بدون منازع ولقب بأبى الحسن الشاذلى القرن العشرين ولقب أيضا بأبى التصوف فى العصر الراهن فقد كان إليه رضى الله عنه المرجع والفتيا وريادة الفكر الإسلامى والتصوف فى العصر الحديث .

هذا وبالله التوفيق

أد/ منيع عبد الحليم محمود
عميد كلية أصول الدين بالقاهرة
جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين.

المنهج

دراسة التصوف عن طريق دراسة بعض الشخصيات، ودراسة بعض النصوص التى كتبوها.

وقد تخيرنا الشخصيات التالية:

١- المحاسبى: (النصف الثانى من القرن الثانى، والنصف الأول من القرن الثالث) وقد تخيرنا له نصوصاً من كتابه الرعاية.

٢- الخراز: (القرن الثالث الهجرى) وقد تخيرنا له كتاب الصدق.

٣- الغزالى: وقد تخيرنا له كتاب المنقذ من الضلال.

الحارث بن أسد المحاسبى
ونصوص من الرعاية

الحارث المحاسبى

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين.

روى صاحب طبقات الصوفية بسنده، عن الحارث بن أسد المحاسبى بسنده أن رسول الله ﷺ، قال:

« أثقل ما يوضع فى الميزان: حسن الخلق ».

ولقد وضع المحاسبى هدفاً له فى الحياة يسعى إلى تحقيقه، هو، «حسن الخلق».

لقد وضعه هدفاً يعمل على تحقيقه فى نفسه، ووضعه هدفاً يعمل على تحقيقه فى مجتمعه.

أما فيما يتعلق بنفسه، فأنه أخذها بتحقيق صفة العبودية على أساس من القرآن والسنة لا يحيد عنه.

وإنه ليعبر عن شعاره فى ذلك، فيقول هذه الكلمة التى تصفه حالا ومقالا:

« إذا أنت لم تسمع نداء الله، فكيف تجيب داعى الله؟ ومن استغنى بشىء دون الله، جهل قدر الله ».

ولم يجهل المحاسبى قدر الله، فلم يستغن بشىء دونه سبحانه.

وأما فيما يتعلق بالمجتمع، فإن المحاسبى أخذ فى نشر حسن الخلق فيه بسمته، واتباعه للسنة، وبدروسه التى كانت تفعل الأعاجيب فى القلوب، وبكتبه التى تبين حسن الخلق: وسائل وغايات، والتى لا يزال لها إلى الآن أريج عطرى يتجدد على مر الزمن، فيهدى الحيارى، وينير الطريق أمام السالكين.

* * *

ولكن من هو المحاسبى؟ ومالنا نتعجل، فنتحدث عن المحاسبى فى القمة قبل أن نبدأ معه من البداية؟

إنه الحارث بن أسد المحاسبى، وكنيته: أبو عبد الله.

ولقد نشأ بالبصرة، واستمر بها سنوات لا يتأتى لنا تحديدها فى يقين جازم.

ثم ذهب إلى بغداد ، ويبدو أنه ذهب إليها فى سن مبكرة، واستقر به المقام فيها.

متى ولد؟

إننا لا نعلم بالضبط تاريخ ميلاده إذ أن الكتب القديمة التى تحدثت عنه، لم تذكر ذلك، بيد أن جميع الملابسات ترشد إلى أنه ولد – على التقريب– فى العقد السابع من القرن الثانى الهجرى.

أما وفاته، فإن الكتب التى أرخت له تحدد سنة ٢٤٣هـ ثلاث وأربعين ومائتين للهجرة.

وحياته الشخصية لا نكاد نعلم عنها شيئاً، وقد يمكننا أن نقول: «استنتاجاً»:

إنه قضى طفولته فى شىء من اليسر، والرخاء، ذلك أن والده حينما توفى ترك ثروة تقدر بسبعين ألف درهم.

ويروى المؤرخون أن المحاسبى، حينما توفى والده لم يأخذ من هذه الثروة شيئاً تورعاً: ذلك أن والده كان يقول بالقدر أى أنه كان قدرياً يدين بمذهب المعتزلة: فلم يستسغ المحاسبى أن يشترك فى الميراث توسعاً فى تطبيق القاعدة الإسلامية التى تحرم التوارث بين أهل دينين مختلفين.

وما من شك فى أن المحاسبى امتنع عن ذلك لمجرد الورع، والزهد فيما تجره الثروة وتستتبعه من تفكير فيها، وتدبير لها، وتنمية وحفظ.

هذه الحادثة ترشد إلى أمور: الأمر الأول هو: أن أسرة المحاسبى، كانت أسرة ميسورة.

الأمر الثانى: هو أن والد المحاسبى كان من الذين اشتركوا فى الثقافة الدينية، والجدل الكلامى، وساهم فى ذلك بنصيب، وحدد المعسكر الذى يقف جندياً فى جيشه.

وما من ريب فى أن العامة حينئذ لم يكونوا فى صف المعتزلة، وما كان الذى يدين بما يدين به المعتزلة يفعل ذلك إلا بعد دراسة واختيار، وأن الطريق التقليدى الذى كان يتبعه الجمهور الأعظم من الأمة إنما هو طريق أهل السنة.

والأمر الثالث الذى ترشد إليه الحادثة هو ورع المحاسبى الذى حمله على أن يزهد فى الميراث مع حاجته إليه: تورعاً وتقوى.

ونبأ آخر نتبين منه شيئاً عن شخصية المحاسبى، يقول الجنيد:

كنت كثيراً أقول للحارث: عزلتى أنسى.

فيقول: كم تقول عزلتى أنسى!؟ لو أن نصف الخلق تقربوا منى ما وجدت بهم أنساً، ولو أن نصف الخلق الآخر نأى عنى ما استوحشت لبعدهم.

هذه القصة ترشدنا إلى قوة شخصية الإمام المحاسبى والواقع أن الظروف والأحوال الثقافية التى أحاطت بالمحاسبى، ومواقف المحاسبى منها، وحديث تلاميذه عنه، وإن كان نادراً ... كل ذلك يرشد إلى أنه كان صاحب شخصية إيجابية قوية.

ومما يستأنس به تأييداً للقصة السابقة، وإشارة إلى ما للمحاسبى من شخصية قوية، و بياناً عابراً عن بعض أساليبه فى تأليف كتبه، ما رواه الجنيد أيضاً بقوله:

كان الحارث المحاسبى يجئ إلى منزلنا، ليقول: أخرج معى تصحر: (نذهب إلى الصحراء) فأقول له:

تخرجنى عن عزلتى وأمنى على نفسى، إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات؟ فيقول:

« اخرج معى، ولا خوف عليك، فأخرج معه، فكان الطريق فارغاً من كل شيء، لا نرى شيئاً نكرهه».

فإذا حصلت معه فى المكان الذى يجلس فيه قال لى:

سلنى:

فأقول له: ما عندى سؤال أسأله.

فيقول: سلنى عما يقع فى نفسك.

فتنثال على السؤالات، فأسأله عنها، فيجيبنى عليها للوقت.

ثم يمضى إلى منزله فيعملها كتاباً.

ترشد هذه القصة إلى أن المحاسبى لم يكن يخشى: «الطرقات والآفات ورؤية الشهوات»، وأنه لم يكن يؤثر العزلة وما فيها من أمن على النفس وعدم تشتيت للفكر، كلا، إنه يجابه الحياة محاولاً السير بها إلى ما يراه حقاً وإصلاحاً.

أما فيما يتعلق بطريقته فى التأليف: فإنه يعمل أحياناً على تلبية ما يرغب المتحدثون الإجابة عنه، وهى طريقة حية: إنها استجابة لما يحب المجتمع أن يرى الرأى الصريح فيه.

ولم تكن كتبه كلها على هذا النسق، فإن بعضها كان إسهاما فى الحركة المقاومة لحركة الاعتزال.

وكان بعضها حلقات فى التخطيط الذى رسمه المحاسبى للإصلاح الأخلاقى فى المجتمع.

* * *

على أننا قد تعجلنا الحوادث مرة أخرى، فتحدثنا عن المحاسبى فى القمة ولم نتدرج معه تدرجاً طبيعياً.

ولنعد إلى المحاسبى أول مقدمه بغداد: كان ذلك فيما يبدو فى سن مبكرة نسبياً.

وكانت بغداد حينئذ تموج بمختلف التيارات الفكرية: ثقافة يونانية وافدة تريد أن تأخذ حق الإقامة سيدة متغلبة.

وثقافة فارسية، يحاول نشرها الفرس بما لهم من تأثير ونفوذ، وبما لهم من مال وثراء، وبما لديهم من ترف فكرى، وبما فى نفوسهم من كبت لزوال ملكهم يحاول أن يتنفس - شاعراً أو غير شاعر - فى صور ثقافة تنافس الثقافة الإسلامية البحتة.

وثقافة عربية مشوبة بثقافات أخرى، تريد أن تجد حلا للتعارض والتنافس بين مختلف الألوان والأجواء الثقافية.

وثقافة إسلامية بحتة، تجاهد فى أن تفوز فى قيادة المجتمع إلى الهداية الربانية، والرشاد الإلهى.

وجاء المحاسبى بغداد، متعلماً، ومتثقفاً، أو مستزيداً من العلم والثقافة: يبتغى السير على السنن المستقيم:

وأخذ فى الدرس فى جهد واجتهاد: فتشعبت به الطرق، وتجاذبته الثقافات المختلفة، تحاول كل منها، أن تستأثر به وحدها، ولكل منها مغرياتها، ولكل منها منطقها.

ووقف المحاسبى، مستوعباً، متأملاً، متروياً.

هل طال به الوقوف؟

متى خرج من تأمله؟

متى استقر به الاتجاه؟

ذلك مالا نعلمه، إذا نظرنا إلى الزمن.

بيد أن المحاسبى، وإن لم يعن بالتأريخ لحياته، تأريخاً زمنياً، فإنه ترك لنا أثراً نفسياً، أبان فيه عن بعض أحوال معاصريه، وتحدث فيه عن حيرته الفكرية وعن أسبابها، وعن كيفية خروجه منها.

وهذا الأثر نعتبره، أساساً لكتاب: «المنقذ من الضلال» راسماً للإمام الغزالى تخطيطه، موجهاً له إلى كتابته، بل وراسما له الطريق فى حياته الروحية.

ولعل التشابه بين هذا النص الذى نثبته الآن، وكتاب: «المنقذ من الضلال» يجعلنا نستنتج أن التشابه قوى بين المحاسبى، والغزالى فى حياتهما.

ولأهمية هذا النص بالنسبة، للمحاسبى ولعصره، وبالنسبة لصلته بكتاب المنقذ من الضلال ثقة وثيقة، نثبته بأكمله، وإن كان فيه بعض الطول.

وقد كتبه المحاسبى مقدمة، لكتابه: «الوصايا» الذى طبع أخيراً بالقاهرة.

يقول المحاسبى– فى مفتتح كتابه: الوصايا– بعد مقدمة موجزة.

« أما بعد، فقد انتهى إلينا: أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة، منها: فرقة ناجية، والله أعلم بسائرها.

فلم أزل، برهة من عمرى أنظر اختلاف الأمة، وألتمس المنهاج الواضح، والسبيل القاصد وأطلب من العلم والعمل، وأستدل على طريق الآخرة بارشاد العلماء، وعقلت كثيراً من كلام الله، عز وجل، بتأويل الفقهاء.

وتدبرت أحوال الأمة، ونظرت فى مذاهبها وأقاويلها، فعقلت من ذلك ما قدر لى.

ورأيت اختلافهم بحراً عميقاً، قد غرق فيه ناس كثير، وسلم منه عصابة قليلة، ورأيت كل صنف منهم يزعم أن النجاة فى تبعهم، وأن الهالك من خالفهم، ثم رأيت الناس أصنافاً:

فمنهم العالم بأمر الآخرة، لقاؤه عسير، ووجوده عزيز.

ومنهم الجاهل، فالبعد عنه غنيمة.

ومنهم المتشبه بالعلماء ، مشغوف بدنياه، مؤثر لها.

ومنهم حال علمى منسوب إلى الدين، ملتمس بعلمه التعظيم والعلو، ينال بالدين من عرض الدنيا.

ومنهم متشبه بالنساك، متجر بالخير، لا غناء عنده، ولا بقاء لعلمه، ولامعتمد على رأيه.

ومنهم حامل علم، لا يعلم تأويل ما حمل.

ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء، مفقود الورع والتقى.

ومنهم متوادون: على الهوى يتفقون، وللدنيا يتباذلون، ورياستهايطلبون.

ومنهم شياطين الإنس عن الآخرة يصدون ، وعلى الدنيا يتكالبون، وإلى جمعها يهرعون، وفى الاستكثار منها يرغبون، فهم فى الدنيا أحياء، وعن العرف موتى ، بل العرف عندهم منكر، والسوء معروف.

فتفقدت فى الأصناف نفسى ، وضقت بذلك ذرعاً.

فقصدت إلى هدى المهتدين، بطلب السداد والهدى، واسترشدت العلم، وأعملت الفكر وأطلت النظر، فتبين لى، فى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه، وإجماع الأمة: أن اتباع الهوى يعمى عن الرشد، ويضل عن الحق، ويطيل المكث فى العمى !!

فبدأت باسقاط الهوى عن قلبى، ووقفت عند اختلاف الأمة، مرتاداً لطلب الفرقة الناجية، حذراً من الأهواء المردية، والفرقة الهالكة، متحرزاً من الاقتحام قبل البيان، والتمست سبيل النجاة لمهجة نفسى.

ثم وجدت باجتماع الأمة فى كتاب الله المنزل، أن سبيل النجاة: فى التمسك بتقوى الله، وأداء فرائضه، والورع فى حلاله وحرامه، وجميع حدوده والإخلاص لله تعالى بطاعته، والتأسى برسوله، صلى الله عليه وسلم.

فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء فى الآثار فرأيت اجتماعاً واختلافاً، ووجدت جميعهم مجتمعين على أن علم الفرائض والسنن: عند العلماء بالله وأمره.

وأن الفقهاء عند الله، العاملين برضوانه الورعين عن محارمه المتأسين برسوله ﷺ، المؤثرين الآخرة على الدنيا: أولئك المتمسكون بأمر الله وسنن المرسلين.

فالتمست من بين الأمة هذا الصنف المجتمع عليهم، والموصوفين أقفوا آثارهم، واقتبس من علمهم، فرأيتهم أقل من القليل، ورأيت علمهم مندرساً كما قال رسول الله ﷺ:

«بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء».

وهم: المنفردون بدينهم.

فعظمت مصيبتى بفقد الأدلاء الأنقياء، وخشيت بغتة الموت أن يفاجئنى، على اضطراب من عمرى، لاختلاف الأمة، فانكمشت فى طلب عالم، لم أجد لى من معرفته بدأ، لم أقصر فى الاحتياط ولم أن فى النصح.

فقيض لى الرءوف بعباده قوما وجدت فيهم دلائل التقوى، وأعلام الورع، وإيثار الآخرة على الدنيا.

ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى، ووجدتهم مجتمعين على نصح الأمة لا يرجون أحد فى معصيته، ولا يقنطون أحداً من رحمته:

يرضون أبداً بالصبر على البأساء والضراء، والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء.

يحببون الله تعالى، إلى العباد بذكرهم أياديه وإحسانه، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى.

علماء بعظمة الله تعالى، وعظيم قدرته، وعلماء بكتابه وسنته، فقهاء فى دينه، علماء بما يحب ويكره، ورعين عن البدع والأهواء، تاركين التعمق والإغلاء مبغضين للجدال والمراء، متورعين عن الاغتياب والظلم والأذى، مخالفين لأهوائهم، محاسبين لأنفسهم، مالكين لجوارحهم، ورعين فى مطامعهم وملابسهم، وجميع أحوالهم، مجانبين للشبهات، تاركين للشهوات، مجترئين بالبلغة من الأقوات، متقللين من المباح، زاهدين فى الحلال، مشفقين من الحساب، وجلين من المعاد، مشغولين ببثهم مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم، لكل أمرىء منهم شأن يغنيه.

علماء بأمر الآخرة وأهاويل القيامة، وجزيل الثواب، وأليم العقاب.

ذلك أورثهم الحزن الدائم، وألهم المضنى، فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها.

ولقد وصفوا للآداب صفات، وحددوا للورع حدوداً، ضاق لها صدرى. وعلمت أن آداب الدين، وصدق الورع: بحر لا ينجو من الغرق فيه شبهى، ولا يقوم بحدوده مثلى، فتبين لى فضلهم، واتضح لى نصحهم، وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة، والمتأسون بالمرسلين، والمصابيح لمن استضاء بهم، والهادون لمن استرشدهم.

فأصبحت راغباً فى مذهبهم، مقتبساً من فوائدهم، قابلا لآدابهم، محباً لطاعتهم، لا أعدل بهم شيئاً، ولا أوثر عليهم أحداً.

ففتح الله لى علماً انفتح لى برهانه، وأنار لى فضله، ورجوت النجاة لمن أقربه أو انتحله، وأيقنت بالغوث لمن علم به، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه، ورأيت الرين متراكماً على قلب من جهله وجحده، ورأيت الحجة البالغة لمن فهمه، ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجباً على.

فاعتقدته فى سريرتى، وانطويت عليه بضميرى، وجعلته أساس دينى، وبنيت عليه أعمالى، وتقلبت فيه بأحوالى.

وسألت الله عز وجل، أن يوزعنى شكر ما أنعم به على، وأن يقوينى على القيام بحدود ما عرفنى به، مع معرفتى بتقديرى فى ذلك، وأنى لا أدرك شكره أبداً» .اهـ

ووجد المحاسبى نفسه حينئذ فى معسكر أهل السنة على وجه العموم وفى تيار الصوفيه منهم على وجه الخصوص.

ولم يكن المحاسبى، ذا طبيعة سلبية، فكان لابد من أن يدخل المعركة.

ودخل المعركة فى قوة قوية، مسلحاً بالعلم والتقوى.

ومن أجل ذلك، كان ذا أثر مزدوج.

لقد أثر باعتباره، قدوة وأسوة.

وأثر باعتباره عالماً باحثاً.

وأثره كعالم، كان يظهر فى دروسه ومناقشاته، ويظهر فى كتبه.

كتبــه:

أما كتبه، فإنها من الكثرة بحيث قدرها بعضهم بمائتى مصنف ، حسبما روى السبكى فى: «طبقات الشافعية» والمناوى فى: «الكواكب الدرية».

وهذه الكتب – فى أغلبها الأعم – إنما هى فى هداية النفوس، وترقيق القلوب، والسير بالأرواح إلى عالم الفلاح: إنها فى أغلبها فى علم التصوف والسلوك.

يقول التميمى – كما جاء فى الكواكب الدرية – عن المحاسبى:

« هو إمام المسلمين فى الفقه، والتصوف، والحديث والكلام» .أهـ

ولقد كتب المحاسبى فى هذه العلوم جميعها، بيد أن مسحته الظاهرة. ونزعته الواضحة، والكثرة الكثيرة من كتبه، إنما كانت فى التصوف والكلام.

أما كتبه فى الكلام، فإنها قد فقدت. ولقد رأينا قطعة لا بأس بها من كتبه فى الكلام الذى فقد والذى كان عنوانه: «فهم القرآن».

ومنهجه فى الكتاب، يفهم من عنوان: إنه كان يرجع إلى القرآن فى الرد، ويتخذ منه مرشداً وهادياً.

ولعل السبب فى إهمال كتبه الكلامية وفقدها: هو حملة الإمام أحمد ابن حنبل عليها.

يقول الخطيب البغدادى، فى كتابه: «تاريخ بغداد» جزء ٨ص٢١٤:

«وكان أحمد بن حنبل، يكره للحارث نظره فى الكلام، وتصانيفه الكتب فيه، ويصد الناس عنه».

ويذكر هذه المسألة الإمام الغزالى فى كتابه: «المنقذ من الضلال»، ويفصل الرأى فيها ويحسم المسألة بحل موفق فيقول:

لقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبى- رحمهما الله – تصنيفه فى الرد على المعتزلة.

فقال الحارث:

«الرد على البدعة فرض».

فقال، أحمد:

نعم، ولكن حكيت شبهتهم أولا ثم أجبت عنها، فبم تأمن أن يطالع الشبهة من تعلق بفهمه، ولا يلتفت إلى الجواب، أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه؟

وما ذكره أحمد: حق، ولكن فى شبهة لم تنتشر ولم تشتهر.

فأما إذا انتشرت، فالجواب عنها واجب، ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية. ولقد أصاب الإمام الغزالى التوفيق فى رأيه.

وما من شك فى أن المعتزلة إذ ذاك كانوا يعملون جاهدين على نشر بدعتهم وأن بدعتهم كانت معرفة مشهورة.

ومهما يكن من شيئ، فقد كان الإمامان: أحمد والمحاسبى متعاصرين، وحدث بينهما اختلاف فى الرأى يتعلق بالكتابة فى المسائل الكلامية.

وحمل الإمام أحمد على كتب الأمام المحاسبى فى علم الكلام فقل تداول الناس لها – **فيما يبدو – واختفت شيئاً فشيئاً، ولعل بعضها لا يزال موجوداً، بيد أننا لا نعلم عنها شيئاً.**

على أن رأي المحاسبى فى المسائل الكلامية معروف، تحدث عنه الشهرستانى وغيره ممن كتبوا فى الملل والنحل، وهو الرأى السلفى، ولم تكن حملة الإمام أحمد عليه لرأيه

وعقيدته، فذلك أمر يتفق فيه الإمامان وإنما كان إنكار الإمام أحمد عليه للأسلوب والطريقة التى ينصر بها الدين .

وما من ريب فى أن ما قام به الإمام المحاسبى، فى الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل الانحراف: إنما هو فى الوقت نفسه انتصارللإمام، أحمد بن حنبل، وتقوية له ، وعون على بلوغه غايته: رضى الله عنهما.

* * *

أما كتبه فى أدب النفس وتزكيتها، وفى الإنابة إلى الله، والرجوع إليه، وفى الرعاية لحقوق الله، وفى التصوف على وجه العموم: فقد بقى منها كثير، عرفنا عنه جملة صالحة، لا تزال مخطوطة، وطبع البعض فى أوروبا ، والقاهرة، وسوريا.

ومن كتبه المخطوط فى دور الكتب:

١- المسائل فى أعمال القلوب والجوارح.

٢- كتاب أدب النفوس.

٣- كتاب المسائل فى الزهد.

٤- فصل من كتاب العظمة.

٥- كتاب فى المراقبة.

٦- إحكام التوبة.

٧- كتاب العلم.

٨- كتاب الصبر والرضا.

أما كتبه المطبوعة، فنتحدث بكلمات موجزة عن كل منها،ثم نفصل القول عن كتاب الرعاية.

١- كتاب الوهم:

أول ما طبع للمحاسبى: «كتاب الوهم» طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٧، وقد على بنشره الدكتور ا.ج.آربرى، وكتب مقدمته الدكتور أحمد أمين وفى المقدمة، يقول عن الكتاب:

«نحا فيه منحا طريفاً يدل عليه اسمه، فلم يقتصر على ما ورد من الأخبار فى الخوف والرجاء، كما فعل غيره، بل استعمل توهمه، وبعبارة أخرى خياله فى وصف شعور أهل الجنة وأهل النار وما يلقون من: سعادة وشقاء ونعيم وعذاب، وأساس لخياله القياد، فتخيل ما تخيل وصورما صور، فهى لوحة جميلة لفنان أجاد ألوانها أو رواية رائعة لكاتب جمل منظرها، وفصل مواقفها وصقل لغتها، حتى يؤثر بالحقيقة التى تتضمنها فى نفوس القارئين والسامعين، أكبر الأثر وأبلغه».

٢- رسالة المسترشدين:

وطبع له فى «حلب» رسالة المسترشدين. «حققه وخرج أحاديثه، وعلق عليه: عبد الفتاح أبوغدة».

وهذه الرسالة اللطيفة الحجم يوجه فيها المحاسبى الإرشاد للمسترشدين الذين يريدون أن يكونوا من ذوى الألباب العالمين بالله وبأمره.

ومنهاج ذوى الألباب- كما تحدده الرسالة- إنما هو رعاية حدود الشريعة من كتاب الله تعالى، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وما اجتمع عليه المهتدون من الأئمة.

وهذا هو الصراط المستقيم الى دعا إليه عباده، فقال جل وعز:

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل، فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون».

وقال رسول الله ﷺ:

« عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى، عضو عليها بالنواجذ».

والرسالة: إنما هى إرشادات توضح بعض زوايا هذا المنهج، فهى تتحدث عن التوبة والتقوى والخطرات، والخوف من الله والصبر والرضا، وغير ذلك من أحوال اللائذين إلى الله، السالكين إليه.

٣- كتاب الوصايا:

وطبع له فى القاهرة أخيراً: «كتاب الوصايا» تحقيق وتعليق وتقديم: عبد القادر أحمد عطا».

والعنوان مكتوب هكذا: «الوصايا، أو النصائح الدينية، والنفحات القدسية، لنفع جميع البريه» وموضوعه هو موضوع الكتاب السابق، وإن كان على صورة أوسع، وبأسلوب فيه بعض الحدة، وهو أقل تأنقاً وجزالة من أسلوب الكتاب السابق.

٤- كتاب الرعاية، لحقوق الله عز وجل:

وكتاب الرعاية: هو أكبر الكتب التى بين أيدينا من كتب المحاسبى، مخطوطة كانت تلك الكتب أم مطبوعة، وربما لا يوجد فيما فقد من كتبه ما هو أكبر منه، ويقع فى حوالى أربعمائة وستين صحيفة من القطع الكبير.

وهو على كل حال أهم كتبه فى نظر القدماء والمحدثين، حتى لقد عرف به، وإذا لم يذكر أحد المؤرخين القدماء من كتب المحاسبى إلا كتاباً واحداً: فإنه يكون الرعاية، وهو بالنسبة للمحاسبى، كاحياء علوم الدين بالنسبة للغزالى ، وقد حاول المحاسبى أن يشرح فيه الطريق الذى يحقق الرعاية، لحقوق الله تعالى.

ويبدأ المحاسبى، كتاب: «الرعاية» بالحمد والثناء على الله سبحانه وتعالى، ثم يتحدث عن حسن الاستماع:

« فقدم حسن الاستماع منك، لما أجبتك به لعل الله عز وجل أن ينفعك بفهم ما أجبتك عنه: من الرعاية، لحقوق الله عز وجل والقيام بها، فإن الله تبارك وتعالى، أخبرنا فى كتابه. أنه من استمع كما يحب الله ويرضى. كان له فيما يستمع إليه ذكرى. يعنى: اتعاظاً، ثم يذكر المحاسبى الآيات الدالة على هذا والأحاديث.

ويرى القارئ فى هذا النص الذى نقلناه من الصحيفة الأولى للكتاب أمرين:

الأمر الأول: أن المحاسبى، يفترض مخاطباً يخاطبه، أو سائلا يسأله والمحاسبى يجيبه.

والواقع أن الكتاب كله يسير على هذا النسق: أسئلة من مخاطب وإجابات من المؤلف .

وما من شك فى أن بعض الأسئلة التى أوردها المحاسبى قد سئلها بالفعل وقد سبق أن أشرنا إلى أن بعض كتب المحاسبى ألف استجابة لأسئلة.

بيد أن كتاب: «الرعاية» يظهر فيه – فى وضوح– من التناسق والترتيب والتخطيط ما يبعد الظن بأنه ألف استجابة – مجرد استجابة – لأسئلة وقتية.

أما الأمر الثانى الى يتبينه الإنسان من النص، فهو أن المحاسبى يرجع إلى الكتاب الكريم، يستند إليه فى آرائه، إنه يقول:

« فإن الله تبارك وتعالى أخبرنا فى كتابه ....».

وهذا التعبير أو ما فى معناه: سار فى جميع أجزاء الكتاب، ويضاف إليه الاستناد إلى السنة، وقد كان المحاسبى من المحدثين، تلقى الحديث على أعلام السنة، وتلقى عنه أعلام السنة.

وبعد أن قدم المحاسبى، ضرورة حسن الاستماع، بدأ فى شرح معنى: الرعاية لحقوق الله. وهى أمر عظيم أصبح عامة الناس– كما يقول المحاسبى– له مضيعين:

ومامن شك فى أن: «كل ما أمر الله عز وجل بالقيام به. قد أمر برعايته». «وكل حق أوجبه الله جل وعز على عباده فى خاصة أنفسهم. أو فيما أوجب لبعضهم على بعض: فقد أمرهم بحفظه والقيام به. وذلك رعاية حقه الذى افترضه عليهم».

وسواء أقلت : الرعاية لحقوق الله أم قلت: «التقوى» فان المعنى لا يكاد يختلف، ذلك أن التقوى إنما هى: اتقاء الشرك فما دونه من ذنب من كل ما نهى لله عنه. واتقاء تضييع واجب مما افترضه الله.

والرعاية والتقوى هما: الاستجابة إلى الأمر والانتهاء عما نهى الله عنه.

ومن أجل ذلك تحدث المحاسبى عن التقوى بعد شرحه لمعنى الرعاية توضيحاً للرعاية وبيانا لها، وبين جزاء المتقين وأنهم: «فى مقام أمين»، ويقال لهم عن الجنة: «أدخلوها بسلام آمنين».

والناس دائماً يريدون الأمور محددة مرسومة، فيسألون عن الخطوة الأولى التى يخطوها من يريد أن يسلك الطريق إلى الله؟ وعن كيفية البدأ فى الإعداد للمقام بين يديه، سبحانه.

«فليكن أول ما تبدأ به من العدة لذلك المقام: تقوى الله عز وجل، فى السر والعلانية، ليأمن قلبك فى ذلك المقام مع قلوب المتقين حين ينجز لهم ما وعدهم من الأمن والغبطة والسرور».

فالتقوى أول منزلة العابدين، وبها يدركون أعلاها، وبها تزكوا أعمالهم، لأن الله عز وجل لا يقبل عملا إلا ما أريد به وجهه.

ولكن الإنسان قد يكون مغتراً مخدوعاً بعبادته:

فكم من متقشف فى لباسه، متذلل فى نفسه، آخذ من حطام الدنيا اليسير، ومن مصل وصائم وغاز وحاج وباك وداع ومظهر للزهادة فى الدنيا والرفض لها على غير صدق ولا إخلاص ولا صلاح حقيقى.

وإذا ما أراد إنسان من هؤلاء: أن يزن أعماله بموازين الدين، إذا استيقظ فؤاده فأراد أن يعرف أين هو من المخلصين؟ فعليه أن يرجع إلى نفسه ويعرض أيامه التى خلت من عمره فى عبادته وينظر: هل أتى عليه يوم منها حفظ فيه جوارحه وقلبه عما كره الله؟! وهل سلم من العجب والكبر والحسد والشماتة وسوء الظن؟!

ولعله بعد هذا العرض يتواضع ويبدأ فى إصلاح أمره.

على أن التقوى وإن كانت أول منازل السالكين، فإنها معنى عام، يبدأ أول ما يبدأ حينما يعلم الإنسان أنه عبد مربوب: «لأن أول ما يلزمك فى صلاح نفسك الذى لاصلاح لها فى غيره، وهو أول الرعاية: أن تعلم أنها مربوبة متعبدة، فإذا علمت ذلك علمت أنه لانجاة للمربوب المتعبد إلا بطاعة ربه وملاه».

والطاعة سبيل النجاة.

والعلم هو الدليل على السبيل.

ولابد للتقوى من المحاسبة، وقد كان المحاسبى كثير المحاسبة لنفسه. بل إنه لم يسم المحاسبى إلا لهذه المحاسبة.

وقد روى عن النبى ﷺ:

« الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت» .

وقوله: دان نفسه: يعنى حاسب نفسه.

ولقد قال سيدنا عمر رضي الله عنه :

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنو، وتهيئوا للعرض الأكبر» .

وكتب إلى أبى موسى: «حاسب نفسك فى الرخاء قبل حساب الشدة»

هذا الذى قدمناه للآن يعتبره المحاسبى كالمقدمات العامة للموضوع ثم يأخذ فى وصف: «منازل التوابين» ويبين فيه اختلاف الفطر والجبلات.

فمن الناس من نشأ على الخير فرعاية حقوق الله عز وجل عليه أسهل.

ومهم تائب بعد صبوته، وراجع إلى الله عن جهالته، وإنه ليدخل فى نطاق قوله تعالى: «والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم» .

أما الثالث: فانه المصر على ذنبه المقيم على سيئاته إنه: «محتاج إلى ما يحل به عقود الإصرار من قلبه فيتوب إلى ربه من ذنبه، فيلحق بصاحبيه اللذين من قبله: الناشيئ على غير صبوة، والمنيب بالتوبة إلى خالقه تعالى.

ما الذى يبعثه على التوبة وترك الإصرار أما الذى يبعثه على التوبة وترك الاصرار فهو الخوف والرجاء، يقول تعالى:

«وأما من خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى، فان الجنة هى المأوى» .

فأخبر عز وجل أنه لما خاف ربه نهى نفسه عن الهوى ولقد وصف الله أولياءه بأنهم يدعونه رغباً ورهباً: أى راجين خائفين:

وينال الخوف والرجاء، بأن تصبح المعرفة بعظم قدر الوعد والوعيد واضحة سافرة والله، سبحانه قد خوفنا بالعقاب لنخوف أنفسنا ورجانا لنرجيها ومما يعين على ذ لك، وقد أمرنا الله به: أن نفكر فى المعاد وهجوم الموت وعظيم حق الله عز وجل ووجوب طاعته.

وحقاً إن الفكر فى ذلك ثقيل على النفس بيد أنه مما يخففه علم الإنسان بعظيم قدر ما ينال بالفكرة من المنافع فى الدنيا والآخرة: ذلك أن فى نعيم الطاعة فى الدنيا والظفر بنعيم الآخرة سعادة لا تعد لا تعد لها لذة المعاصى.

ولن يتذكر متذكر أو يفكر فى المعاد والنجاة مفكر ما لم يجتمع همه فطريق الفكرة ومفتاحها إنما هو: «إجتماع الهم مع المطالبة بالعقل والتوكل على الرب لا على العقل».

واجتماع الهم إنما هو بعدم تشتت القلب والجوارح فى ميادين اللعب واللهو يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«طوبى لمن لم يشغل قلبه بما ترى عيناه ولم ينس ذكر ربه بما تسمع أذناه».

على أن المصريين فى منازل شتى: فمنهم من كثرت ذنوبه ومنهم من قلت ذنوبه، ومنهم تائب من بعض ذنوبه وهو مصر على البعض الآخر.

وعلاج كل ذلك هو إدمان الفكر بالتخويف. كالداء إذا أعضل لم يبرأ صاحبه إلا بدوام التداوى وإدمان الفكر بالتخويف يستمر إلى أن تسخو نفسه بالتوبة الخالصة النصوح التى يوقن فيها أنها كانت بمنة ربه وتفضله سبحانه لا بقوته هو فيستأهل بذلك الزيادة من الله عز وجل لأنه يقول:

«لئن شكرتم لأزيدنكم».

وفى التفسير: لأزيدنكم من طاعتى.

على أنه إذا سخت نفسه بالتوبة فتاب فانه يحب أن يستمر فى تيقظه وحذره فان الاهتمام والحذر إن ألزمهما قلبه يوقظاه فيما يستقبل من عمره فإذا استمر على توبته دخل تحت قوله تعالى:

«رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه».

ومما لا مماراة فيه: أنه لا بد للخلق أجمعين من معرفة حقوق الله عز وجل بأسبابها وأوقاتها وعللها وإرادتها ووجوبها، وفيم هى؟ وأيها بدأ الله عز وجل به خلقه؟

فعلى العبد أن يبدأ بما بدأ الله عز وجل، به فيبدأ برعاية حقوق الله عز وجل فى قلبه إذ عنه تكون أعمال الجوارح، وجمل حقوق الله عز وجل فى القلب ثلاث: اعتقاد الإيمان ومجانبة الفكر، واعتقاد السنة ومجانبة البدع، واعتقاد الطاعة ومجانبة الإصرار على ما يكره الله عز وجل من عمل قلب وبدن.

وجمل حقوق الله عز وجل فى الجوارح: القيام بالحركات فيما أوجب الله تعالى، وترك الحركات وهو السكن عما كره الله عز وجل.

على أنه مع كل ذلك لابد من مراعاة حقوق الله عز وجل عند خطرات القلب الداعية إلى كل خير وشر.

وقد تكون الخطرات من هوى النفس، والله سبحانه وتعالى يقول:

«إن النفس لأمارة بالسوء».

وقد تكون خيراً.

ومهما يكن من شيء فإنه إذا عرضت الخطرات عرضها على الكتاب والسنة: فما وافق قبله وما خالف رفضه: يجب أن يشهد له العلم، أن الله عز وجل، قد أمر بها وندب إليها، أو أذن فيها بأسبابها وعالمها ووقتهاوإرادتها فيها، فإنه قد يقبل الخطرة يرى أنه داعية إلى سنة وهى بدعة، وقد يرى أنها داعية إلى طاعة، وهى معصية، وقد يرى أنها داعية إلى خير وهى شر: كالخطرة تدعو إلى الإخلاص بترك العمل، وإلى التنزه عن الخلق بالفكر، وإلى الرجاء على العمل بالعجب والعزة، وإلى المنافسة بالحسد، وإلى الغضب لله عز وجل بتمنى البلاء فى الدين والدنيا للمسلمين واعتقاد استحلال ماحرم الله عز وجل، منهم، ونحو ذلك من الخطرات، وإلى القدر[1] بتنزيه الله عز وجل، وإلى رأى جهم[2]: بنفى التشبيه، وإلى التشبيه: بنفى رأى جهم، وإلى الاعتزال بتثبيت الوعيد، وإلى الخروج بالسيف بالغضب لله عز وجل، أو إلى الإرجاء بتعظيم الأقدار وتنزيه الإيمان من النقصان.

وقد تخطر الخطرة تدعو إلى بدعة فى الجملة يحسبها سنة، ومما يدل على ذلك: أن قلوب أهل البدع إذا خطر بها الخطرات تدعوهم إلى بدعة عدوها سنة، فكذلك أهل السنة: لن يدع العدو أن يدعوهم إلى البدع عند غفلاتهم من حيث لا يشعرون، ولولا ذلك ما ابتدع أحد بدعة بعد اعتقاده للسنة فى عبادة ولا غيرها لأنه قد يدعوه العدو إلى الابتداع

---

(١) القول بالقدر: هو القول بحرية الإرادة: أى أن الإنسان حر فيما يأتى وفيما يدع من الأفعال، وليس مجبوراً من الله على عمل من الأعمال.

(٢) رأى جهم فى الصفات: هو أن الصفات عين الذات.

فى زهده، وفى رضائه وتوكله فيخالف زهد الأئمة المتقدمين وتوكلهم، ورضاءهم، ويقينهم بمخالفته السنة واعتقاده البدعة، وهو يرى أنها سنة ، كما اعتقد قوم الزهد فى الدنيا بتضييع العيال وبترك وجوب حق الوالدين، والتوكل بترك الاكتساب على الأهل والأولاد والخروج فى السفر بلا زاد، والرضا بالسرور بالبلاء إذاوقع بالمسلمين وبتحريم الدواء والدعاء وترك التمنى أن المعاصى لم تكن ، وبالاشتغال بالله عز وجل، بترك الفرائض وبترك النوافل ودعوى البصائر واستنارة القلوب بادعاء علم الغيوب: من القطع على ما فى ضمائر الخلق وما يسرون ويكتمون؛ ويحتجون فى ذلك بآثار: مثل قوله صلى الله عليه وسلم:

«المؤمن ينظر بنور الله».

وكل فرقة ممن ذكرنا تحتج بالآثار، والكتاب، والمقاييس، ولكن يطول ذكرها، وإنما أردنا تحذير جملتها، ليعرفها العالم المثبت بالكتاب والسنة.

وكذلك الخطرات التى تدعو إلى تدين القلوب من غير عبادات بالأعمال: كالقدر.

ورأى جهم، والرفض ، والاعتزال ونحوه، فلن يميز العبد بين ذلك، وبين ما أحب الله عز وجل، من الأعمال والسنن إلا بشاهد العلم» .أهـ

لقد تعمدنا نقل هذا النص السابق بطوله، لأنه يدل على اتجاه المحاسبى فى الجانب العقدى أى أنه يحدد اتجاهه بالنسبة للفرق الموجودة فى عصره، وهو نص غاية فى الأهمية، من الناحية الصوفية، ومن الناحية الكلامية:

أما من الناحية الصوفية، فإن المحاسبى يحمل على من يدعو إلى الإخلاص بترك العمل وإلى التنزه عن الخلق بالفكر، ويرى أن ذلك خطرات شيطانية، وكذلك الأمر فى كل خطر، تدعو إلى نوع من الزهد، والرضا، والتوكل الذى يخالف زهد الأئمة ورضاءهم وتوكلهم ويقينهم، أى تخالف السنة.

ومن أمثال ذلك اعتقاد قوم الزهد فى الدنيا بتضييع العيال. وبترك وجوب حق الوالدين.

وإنه لمن الانحراف الشيطانى -فيما يرى- أن يمتنع قوم عن الاكتساب على الأهل والأولاد، أو الخروج فى السفر بلا زاد تحت تعلة التوكل، أو أن يرضى بالبلاء يقع بالمسلمين ويحرم الدواء ويمتنع عن الدعاء وكل ذ لك تحت تعلة الرضا ...

إلى آخر ما ذكره المحاسبى من ذلك.

أما من الناحية الكلامية، فإن هذا النص يبين أن المحاسبى، لا ينتسب إلى المعتزلة ولا إلى الجهمية. ولا يقول بالتشبيه، ولا بالتعطيل، ولا بوجوب تحقق الوعيد، وأنه ليس من المرجئة، وليس من الشيعة.

إن هذا النص الذى جاء فى صورة عابرة: يشير إلى بعض ما كان يمكن أن يفصل لو أننا عثرنا على الكتب التى فقدت، ولكن أهميته لا تقل بسبب إجماله ، إذ هو واضح كل الوضوح فى بيان موقف المحاسبى من الفرق الكلامية. ومن الاتجاهات المنحرفة فى التصوف.

ثم بعد هذا يأخذ المحاسبى فى شرح ما يبتدئ به الإنسان من أداء الفروض وترتيب ذلك.

فإذا عرض للعبد أمران واجبان فى وقت واحد بدأ بأوجبهما. مثال ذلك فى الوالدين: فإن العبد يبدأ بحاجة والدته، لأن برها مقدم فى سنة النبى ﷺ ، وكذلك إذا وجب عليه الحج بالاستطاعة المالية وعليه دين حل موعده. فليؤد إلى الدائن حقه.

وإذا عرض له واجبان، لأحدهما وقت يفوت والآخر لا يفوت وقته بدأ بما يفوت وقته قبل الآخر، كالرجل يريد الحج فى وقت فيه سعة من الأيام، فيأمره والده أن يقيم إلى آخر الوقت للحج فليطعهما.

وإذا كان فى فرض ، فعرض له فرض دونه: لم يخرج منه إلى ما هو دونه حتى يتمه، كما إذا كان فى الحج المفروض محرماً به، فكتب إليه والده بالحضور فليتمه ولا يخرج منه.

وإذا كان فى فرض فعرض له فرض أوجب منه: قطعه بعد ما يحل فيه كالصلاة، وكما إذا أمره والداه ألا يخرج من بلدهما، فيحضر النفير لظهور المشركين على المسلمين وليس فى وجوههم من يقوم بقتالهم فعليه الخروج وترك المقام.

وإن عرضت له نافلة وهو فى واجب لم يقطعه من أجلها.

وكذلك الفضل والتطوع: يبدأ بالأفضل فالأفضل.

على أن الواجب أن يبادر الإنسان بالعمل على نجاة نفسه حتى لا يكون مثله كمثل من قال الله فيه:

«حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب أرجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت».

قال الله عز وجل مجيباً:

« كلا إنها كلمة هو قائلها، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون».

قال عبد الرحمن بن يزيد. لرجل يعظه: يا فلان، هل أنت على حال ترضى فيها الموت؟

قال: لا

قال: فهل أجمعت للنقلة إلى حال ترضى فيها الموت؟

فقال: لا. ما سنحت نفسى بذلك بعد.

قال: فهل بعد الموت دار فيها مستعتب؟

فقال: لا

قال: فهل تأمن بغتة الموت؟

فقال: لا

قال: ما رأيت مثل هذا الحال رضى بها عاقل..

والعاقل هو الذى يتوب - قبل الموت- أى على الفور، توبة طاهرة عن الذنوب والخطايا: بأن لو قيل له: إنك تموت الساعة، فإنه لا يجد عنده ذنباً يحتاج إلى التوبة منه. فيسأل النظرة من أجله.

ولقد أجاد سيدنا عمر بن عبدالعزيز، فى الحض على الذكر والفكر. حينما قال فى خطبته:ألا ترون أنكم تتقلبون فى أسلاب الهالكين، ويرثها منكم الباقون. كذلك حتى تردون إلى خير الوارثين، وأنتم تجهزون كل يوم غادياً أو رائحاً إلى الله عز وجل،

تضعونه فى صدع من الأرض، ثم فى بطن صدع. قد توسد التراب، وخلف الأحباب، وقطع الأسباب، موجه للحساب، غنى عما خلف. فقير إلى ما قدم».

* * *

ثم يبدأ المحاسبى شرح وتحليل الرذائل النفسية، ووصف العلاج لها: تلك الرذائل التى تحبط الأعمال وتنفى الإخلاص.

وأول هذه الرذائل هو: «الرياء» ويستفيض المحاسبى فى الحدث عن الرياء استفاضة تتناسب مع تغلغله فى النفوس وتشعبه بحيث يظهر فيما لا يكاد يحصى من الأعمال، على أن جميع أعمال البر عرضة، لأن يعصف بها الرياء فتصبح كسراب بقيعة. ومن أجل كل ذلك كتب عنه المحاسبى حوالى خمس وعشرين ومائة صحيفة أى ما يزيد قليلاً على ربع الكتاب ووضعه تحت عنوان كتاب: «الرياء».

ويبدأ المحاسبى، كتاب الرياء على الصورة العادية فى كتاب الرعاية كله: سؤال السائل، وإجابة المؤلف قلت: قد وصفت لى مراقبة الله -عز وجل وذكره الرعاية لحقوق الله عز وجل، ووجوه طلبها.

والأول من الواجب والفضل فيما تخاف على إن قمت لذلك؟

قال : أخاف عليك أن تفسده بما يبطل ثوابه فى آخرتك، ويذهب بحلاوته من قلبك.

قلت: ذلك أعظم للحسرة: أن أتعنى ثم يحبط ويبطل عملى، وما ذاك المعنى؟». أهـ

ومما يحبط عمل المتقى: أن يحب ، أن يحمد ويوقر بسبب عبادته.

ولا بد من الإخلاص التام، حتى يصل الإنسان إلى منزلة الخاصة.

وما من شك فى أن الإخلاص: منزلة الأقوياء والخاصة من العابدين، ولكن الجميع مطالبون به وعلى قدر إخلاصهم يكون ثوابهم.

وقد سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: فيم النجاة؟ فقال:

ألا تعمل بما أمرك الله به تريد الناس».

فسأله عن نجاته فى أعماله، فأخبره بترك الرياء.

لا غنى للعبد إذن عن تركه: فإذا سألت الآن عن مفهوم الرياء فإنه:

« إرادة العبد العباد بطاعة ربه».

يقول تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

وقد روى عن معاوية بن أبى سفيان، وروى عن مجاهد فى تفسير هذه الآية قالا: «هم المراءون».

والآيات القرانية، والأحاديث النبوية، وكلام الصحابة والتابعين، رضى الله عنهم فى التحذير من الرياء لا تكاد تحصى.

ومن أشد ما يروى فى ذلك حديث رسول الله ﷺ، عن أبى هريرة –فيما رواه مسلم– سمعت رسول الله ﷺ ، يقول:

« إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت ولكنك قاتلت، لأن يقال جرىء، فقد قيل ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها، قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن قال: كذبت، ولكن تعلمت ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال: قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال: فما فعلت فيها، قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها ذلك، قال: كذبت ولكنك فعلتك ليقال جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار.

وفى رواية، أن النبى ﷺ خط، على فخذ أبى هريرة، وقال: «يا أبا هريرة أولئك أول خلق الله، عز وجل، تسعر بهم نار جهنم يوم القيامة» فذلك أعظم الرياء عند الله، عز وجل.

وإذا كان هذا إرادة غير الله بالطاعة، فإن من أنواع المرائين من يريد الله ويريد الناس أيضاً، وذلك أقل من السابق ولكنه أيضاً رياء.

يقول تعالى:

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً».

ويقول ﷺ فى حديث قدسى، عن الله عز وجل:

« أنا أغنى الشركاء عن الشريك من عمل لى عملا: وأشرك معى شريكا ودعت نصيبى لشريكى».

ومن أخس أنواع الرياء: أن يتظاهر الإنسان بالعبادة طمعاً فيما فى أيدى الناس وحباً فى أن يبروه بما يظهر من طاعة ربه.

لابد إذن من المجاهدة والمكابدة والتيقظ، لمداخل الشيطان والنفس الأمارة وليس ذلك بسهل فى مبدأ الأمر، والناس فى هذا متفاوتون ولكن الله سبحانه وعد بأن يعين الذى يبدأ مخلصاً فى السير إليه حيث قال سبحانه:

«والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا...».

ثم يأخذ المحاسبى ، فى وصف ألوان من الرياء عديدة تأتى على شكل خطرات تتردد فى النفس، ليكون الإنسان منها على حذر. ويبين المراءة فى الفروض، والمراءة فى السنن.

ثم يتحدث عن بعض ما ينشأ عن الرياء من الأخلاق المرذولة المذمومة.

ومن هذه الأخلاق التى تنشأ عن الرياء: مثل المباهاة بالعلم، والعمل، والتفاخر بالدين والدنيا، وحب الغلبة.

أما علامة المرائى: فهى حب الحمد والثناء، وإظهار العمل من أجل الاحترام والتبجيل والمنح.

ومن أجل كل ذلك، لابد من إخلاص النية، ولابد من أن يصل الإنسان إلى أن يكون ممن وصف الله من عباده، مادحاً لهم، فقال:

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾

أما من تحدث إلى الناس بما عمل من الطاعة، يريد بذلك وجه الله، وحضهم على الاقتداء به، فليس من الرياء فى شىء، ولأن يهدى الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها.

وقد ختم المحاسبى ، كتاب «الرياء» بقوله:

وقد روى أن ابن السماك، قال لجارية له: «مالى إذا أتيت بغداد تفتحت لى الحكمة؟ قالت له جاريته: يشحذ لسانك الطمع، وصدقت: إن العبد يكثر الكلام بالخير عند الغنى، ما لم يتكلم به عند الفقير، يهيجه الطمع على ذلك، أو تعظيمه للدنيا وكذلك يظهر الخشوع وغيره من الطاعات.

* * *

ويبدأ المحاسبى بعد ذلك فى: «كتاب الإخوان ومعرفة النفس» ولا يقصد المحاسبى أن يتكلم فى هذا الباب على الصداقة وشروطها وواجباتها أو عن النفس من ناحية التصور الفلسفى لها: جوهراً ، كان أم عرضاً، وقديمة أم حديثة كلا، وإنما يريد أن يتحدث فى الموضوع من ناحية الإعانة على ذكر الله والتقوى، فقد يترك الإنسان الريا فترة من الزمن عازماً على ألا يعود إليه ، ثم تخور عزيمته، وينتكث فى طريقه.

ولأجل ألا يحصل ذلك لابد من قطع كل سبب يكون عنه الزلل والفتنة، فإذا ما زل مع ذلك، فلا بد من المسارعة إلى الإقلاع قبل أن تألف النفس المعصية، وتتمكن فى القلب حلاوة الشهوة.

وقد يكون من أسباب الزلل: مجالسة الذين لا يسلم الإنسان معهم -بسبب مجالستهم- من الزلل، ومثل صاحب السوء، كمثل صاحب الكير يعلى الحداد، إن لم يحرقك بشرره يعبق بك من ريحه.

ولقد قال سيدنا عمر: احذر صديقك إلا الأمين من الأقوام، ولا أمين إلا من خشى الله، كل هذا إذا أنس من نفسه ضعفاً، أما إذا كان يمكنه أن يغير اتجاه أصحابه ويتغلب على تياراتهم فيوجههم إلى الخير، فذلك حسن.

يقول ابراهيم التميمى:

«إن الرجل ليأتى القوم وهم يخوضون فى الباطل، فيصرفهم إلى الذكر، فيكون له أجره وأجرهم».

وبعد هذا الكتاب، كتاب آخر يرتبط بهارتباطاً وثيقاً، حتى لقد كان يمكن أن يكونا كتاباً واحداً، ويكونان بذلك وحدة متحدة، ذلك هو: «كتاب التنبيه على معرفة النفس وسوء أفعالها، ودعائها إلى هواها» ونكتفى فى هذا بما ذكرناه سابقاً.

ومن الرذائل الخبيثة فى النفس: «العجب» فبسببه هلك أئمة الضلالة، وبالعجب تكبر المتكبرون وافتخر المفتخرون، واختال المختالون.

ولقد روى عن رسول الله، ﷺ : «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه».

وقد يكون العجب بالدين:

والعجب بالدين بوجوه أربعة: بالعمل والعلم والرأى الصواب والرأى الخطأ، فالعلم: ما حفظ وفهم من الكتاب والسنة وقول علماء الأمة.

وأما الرأى الصواب: فما استنبط قياساً، على الكتاب والسنة والإجماع، مشبهاً بها حكمة مثل حكمة.

وأما الرأى الخطأ: فما كان من غير استنباط من كتاب ولا سنة ولا إجماع الأمة، وإنما هو: تأويل بغير الحق، وانتحال له على سبيل الجهل، من قبل هوى النفس، مع اعتراض من الظن أنه حق.

فأما الإعجاب بالعمل والعلم والرأى الصواب، فمعنى واحد: لأنه كله منة من الله عز وجل، ونعمة منه.

فجملة العجب بالدين: حمد النفس على ماعملت أو علمت، ونسيان النعم من الله، عز وجل، عليك بذلك . فحمد النفس ونسيان المنعم: هو العجب بالدين.

أما إذا رأى الإنسان أن ما به من نعمة -مالا أوقوة، أوعلماً أو سداداً فى الرأى، أو طاعة وعبادة... فمن الله: فإنه بذلك ينفى العجب عن نفسه، يقول تعالى:

«ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً».

ويستفيض فى الحديث عن العجب بالدنيا، وبأعمال الطاعة، وبالعلم، وبالنفس، وبالحسب، مع أن الله تعالى يقول:

«إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

ومع قول رسول الله ﷺ لابنته ولعمته: يا فاطمة بنت محمد، ويا صفية بنت عبدالمطلب: عمة رسول الله، ﷺ :

« أعملا لأنفسكما، فإنى لا أغنى عنكما من الله شيئاً».

ويتحدث المحاسبى عن العجب بكثرة العدد، ويذكر رداً على ذلك قول الكافرين:

«نحن أكثر أموالا وأولاداً».

ثم يأخذ المحاسبى فى كتاب: «الكبر» والكبر: من علامات الذين لا يؤمنون بالآخرة، يقول تعالى:

« فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون».

وما ألحد كثير من الملحدين ، أو انحرف كثير من المنحرفين، إلا بسبب الكبر: إن الله يصرفهم عن رؤية آياته والاعتبار بها بسبب كبرهم.

«سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق».

وإن الله سبحانه وتعالى، يطبع: «على كل قلب متكبر جبار».

وقد ينشأ الكبر عن العجب فى الدين بالعلم والعمل، فإذا كان من قبل العلم، فإن العالم إذا أعجب بعلمه، أخرجه عجبه إلى الكبر تعظماً على العباد فيتكبر على العوام، وإن كان بعضهم أتقى لله عز وجل، منه وذلك الذى خافه عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على العلماء، حين قال:

«تواضعوا لمن تعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلماء، فلا يقوم علمكم عند الله بجهلكم، أى لا يزكو عند الله إذا تكبرتم به.

ومن العباد قوم ضلال، قد جمعوا إلى الضلال الكبر، لا يرون أن أحداً يقول : الحق على الله عز وجل، غيرهم وأنه لا مهتد فى الأرض غيرهم، وهم الذين يقولون: إن القرآن مخلوق، وهم الذين يقولون بالوقف والذين يقولون باللفظ، والذين يكذبون بالقدر والذين ينكرون أن الله عــز وجل، يرى فى الآخــرة والذين يغلطون الموازين، ومنهم الرافضة[١] والمرجئة، والحرورية[٢] والذين يكذبون بالشفاعة، ويشتمون أصحاب رسول الله ﷺ، والذين يشتمون عائشة أم المؤمنين المبرأة من الإفك رحمها الله، ولولا ما أكره أن يطول الكتاب بذكرهم لذكرتهم فكل هذه الفرق آبقة غير جائرة عن الطريق، لايرون أحداً يقول بالحق، وأنه لا مهتد فى الأرض غيرهم جهلا بالله عز وجل. وتكبراً على عباده، كما روى العباس رضي الله عنه، عن النبى ﷺ، أنه قال:

«يكون قوم يقرءون القرآن، لا يجاوز حناجرهم، يقولون: قد قرأنا القرآن، فمن أقرأ منا؟ ومن أعلم منا؟». ثم التفت النبى ﷺ إلى أصحابه، فقال:

«أولئك منكم أيها الأمة، أولئك هم وقود النار».

وقد يكون الكبر عن الرياء:

ويجب على كل إنسان : أن يعمل، أن أصل ابن آدم: من التراب الذى يوطأ بالأقدم إنه من حمأ مسنون، والله سبحانه تعالى: يقول:

«قتل الإنسان ما أكفره: من أى شيئ خلقه؟! من نطفة خلقه فقدره».

ثم إن الله تعالى، لا يحب المستكبرين، ويقول ﷺ:

«لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر».

ثم يتحدث المحاسبى عن: «الغرة بالله عز وجل» ويميز بين الغرة والرجاء فبعض المغترين: يظن أن الغرة منه رجاء فيقيم على معاصى الله، عز وجل، ويظن ذلك حسن الظن منه، وليس ذلك بحسن كما قال وهب: حسن الظن بالله ما جانب الغرة، وقيل للحسن: إن قوماً يقولون نرجو الله عز وجل، ويضيعون العمل، فقال:

(١) الرافضة: هم الشيعة.

(٢) الحرورية: هم الخوارج.

هيهات هيهات، تلك أمانيهم يترجحون فيها من رجاء شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه.

ويتحدث المحاسبى فى كتاب: «الغرة» عن غرة أهل النسك، وغرة الفقهاء وغرة الوعاظ، وغرة المتكلمين.

ثم يأخذ فى شرح الحسد: أسبابه ومضاره، وما من ريب فى أن جملة الحسد المحرم: أن يكره الحاسد ما يرى من غيره من النعم ويجب زوالها عنه.

وأما المنافسة فى خيرى الدنيا والآخرة، وأن يحب ما يرى بغيره من النعم، أن يكون له مثله غبطة منه، دون أن يكره لغيره ما يرى به من النعم فهذا لا بأس به، بل إنه مما يحسن ومن هنا كان قوله. ﷺ:

«لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله عز وجل، مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله عز وجل علماً، فهو يعمل به ويعلمه الناس».

فذلك الذى هو المنافسة فى الخير.

ويختم المحاسبى: «كتاب الرعاية»بـ «كتاب تأديب المريد» يذكر فيه سيرة المريد فى ساعات الليل والنهار: إنه يرسم فيه الدستور الذى يسير عليه المسلم، فى حياته ، حينما يعزم على أن يأخذ السمت الإسلامى الصحيح.

وفيه يقول المحاسبى:

فنعوذ بالله من الحيرة بعد الهدى، ومن العمى بعد البصر، ومن الإعراض عن الله تعالى، بعد الإقبال إليه، ونسأله السلامة والعون على ما يحب ويرضى...

أثر المحاسبى وكتابة «الرعاية» فى الفكر الإسلامى:

إن تأثير المحاسبى فى الأجيال التالية له: لا ينكر. إنه من الواضح، أن تلميذه الأكبر -وإن لم يلتق به- كان الإمام الغزالى:

إن الإمام الغزالى، يعترف بأنه قرأ كتب الحارث المحاسبى، قال ذلك فى كتابه: «المنقذ من الضلال».

ولقد قرأ أيضاً سيرة الحارث المحاسبى، ويتحدث عن الخلاف الذى كان بينه وبين الإمام أحمد بن حنبل.

ثم إنه نقل عنه فى كتابه: «الأحياء» كثيراً من الأراء والنصوص.

وفى كتاب: «الأحياء» يقول عنه الإمام الغزالى، دون تحفظ ولا استثناء، هذا التقدير الهائل: «المحاسبى خير الأمة فى علم المعاملة.

وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس، وآفات الأعمال، وأعوار العبادات.

وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه». أهـ

هذه الشهادة أو التقدير من الإمام الغزالى، كان له أثر كبير فى كتاب «الأحياء» فإن كتاب الأحياء: تضمن تقريباً كتاب: «الرعاية» وكلمة الشيخ زاهد الكوثرى، رحمه الله سبق أن ذكرناها فى المقدمة التى كتبناها لكتاب الرعاية: إذ يقول:

« لقد تبطن الإمام الغزالى، كتاب الرعاية فى كتابه الإحياء».

ولكن أثر المحاسبى كان أيضاً كبيراً قبل الإمام الغزالى، يقول السبكى عنه:

«عالم العارفين فى زمانه، وأستاذ السائرين، الجامع بين علمى الباطن والظاهر».

ويقول الشعرانى عنه، إنه: «أستاذ أكثر البغداديين».

لقد رحمة الله عليه أستاذ أكثر البغداديين وعلم العارفين فى زمانه، وامتد تأثيره إلى الإمام الغزالى، وإلى الصوفية من بعده، واستمر هذا التأثير قرناً فقرناً، واستمر تقدير العلماء الصوفية له قرناً فقرناً، حتى إذا كان القرن الحادى عشر الهجرى، وكان المناوى صاحب التأليف الكثيرة المشهورة المعروفة، كتب عن المحاسبى فى كتابه: «الكواكب الدرية» يقول:

المحاسبى البصيرى: علم العارفين فى زمانه، وأستاذ السائرين فى أوانه عالم سار بنا فضله، وصوفى طار نبله، برع فى عدة فنون، وتكلم على الناس فأراهم الجوهر المكنون، وأحيا القلوب بوعظه، وشنف الأسماع بدور لفظه، تصانيفه مدونة مسطورة ، وأقواله مبوبة مشهورة وأحواله مصححة مذكورة، وكان فى علم الأصول راسخاً راجحاً. وعن

الخوض فى الفضول جانحاً، وللمخالفين الزائغين قامعاً وناطحاً، وللمريدين مربياً وناصحاً..

قال التميمى : هو إمام المسلمين فى الفقه ، والتصوف، والحديث، والكلام وقال غيره له المصنفات النافعة الجمة، بحيث تبلغ نحو مائتى مؤلف، وناهيك برعايته، وكتبه فى هذه العلوم، أصول لمن صنف فيها.

قال فى الأحياء: المحاسبى خير الأمة فى علم المعاملة، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس، وآفات الأعمال ، وأعوارالعبادات، وكلامه جدير بأن يحكى على نفسه.

على أن التقدير الذى نحب أن نسجله هنا: هو ما كتبه الأستاذ لويس مسينيون عن كتاب: «الرعاية» فى كتابه مصطلحات التصوف.

«إن المحاسبى سما فيه بالتحليل النفسى إلى مرتبة لا نجد لها مثيلا فى الآداب العالمية إلا نادراً.

وبالأمس القريب خصص التلفزيون فى الجمهورية العربية عدة حلقات للمحاسبى وكتابه: «الرعاية» فى برنامج: «دنيا ودين» تحدث فيها عميد كلية دار العلوم، وعميد كلية أصول الدين، والسيد الدكتور عيسى عبده، تحدثوا فيها عن المحاسبى كممثل لمنهج معين من مناهج المعرفة، وكممثل للاتجاه الصوفى السليم، وتحدثوا عن كتاب: «الرعاية» باعتباره من الكتب ذات القيمة الذاتية الخالدة.



النصـــــوص

النص الأول

باب منازل التوابين:

اعلم أن الناس مختلفون فى ذلك على ثلاث منازل، لا رابع لها:

فمنهم من نشأ على الخير، لا صبوة له إلا الزلة عند الشهوة، كالزلة التى لم يعر من مثلها النبيون، والصديقون، ثم يرجع إلى قلب طاهر لم تعتوره الشهوات، ولم يغتذ اللذات من الحرام، ولم تعقبه الذنوب، ولم يعل قلبه الرين[1]، ولم تغلب عليه القسوة.

فرعاية حقوق الله عز وجل، والقيام بها على هذا أسهل ، والمحنة عليه أخف ودواعى النفس له أقل وأضعف، لأن قلبه طاهر، والله عز وجل عليه مقبل، وله محب ومتول، والولى لا يخذل وليه، والحبيب لا يسلم إلى الهلكة حبيبه.

وقد جاء فى الحديث يعجب ربك للشاب ليست به صبوة، أى يسر به، ويعظم قدره عنده لأن العجب على وجهين:

أحدهما المحبة بتعظيم قدر الطاعة: والسخط بتعظيم قدر الذنب فى الجرأة.

والوجه الثانى: الاستكثار للشىء، وإنما يعجب استكثاراً للشئ، الجاهل الذى لم يكن يعرف الشىء فلما رآه استكثره وتعجب منه، وجل الله جل جلاله عن هذا الوصف وإن كان قد قرأ بعض القراء: (بل عجبت[2]) صبوة: أى أن الله عز وجل، محب له، راض عنه، عظيم قدره عنده.

وروى فى بعض الحديث عن شريح: أن للشاب الناشئ على عبادة ربه ومحبته أجر سبعين صديقاً.

---

(١) الرين: الدنس.

(٢) يشير إلى الآية الثانية عشرة من سورة الصافات وهى: (بل عجبت ويسخرون).

وروى معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن النبى ﷺ أن الله عز وجل، يقول:

«أيها الشاب الباذل شبابه لى، التارك شهوته من أجلى، أنت عندى كبعض ملائكتى».

فمن أطهر من هذا قلباً، أو من أولى بالمعونة والتوفيق ممن لم يركب الذنوب عند بلوغه ونشأ على طاعة ربه وعبادته، واعتاد القيام بحقه ورعاية حقوق الله عز وجل، عليه خفيفة لطول عادته للقيام بها وتركه الركون إلى أضدادها، قليل مكابدته ومجاهدته، طويل بالله عز وجل شغله واشتغاله.

وآخر تائب من بعد صبوته، وراجع إلى الله سبحانه، عن جهالته ونادم على ما سلف من ذنوبه فى أيامه، قد أعطاه العزم ألا يعود إلى تضييع شىء من غرضه، ولامعاودة شىء مما سلف من ذنوبه، والنفس منه تنازعه إلى عادتها لترده برغبتها إلى لذتها، وهو يقمعها، ويجاهدها ويخوفها عواقب ما كان منها، وعدوه يذكرها ما فاتها ويدعوها إلى ما تركت من شهوتها، وهو يذكرها قبيح ما كان منها، ويعظم منه الله عز وجل، عليها بنقلتها عما يسخط به ربها عليها، فما لبث إلا قليلا -أن صدق الله عز وجل فى مجاهدته وأمسك نفسه عن الشهوات التى تنقص عزمه- حتى يمده الله عز وجل، بمعونته، فيسهل عليه سبل الطاعة كما ضمن لمن أناب إليه، فقال عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ [1]﴾.

وقال عز وجل:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

فوعدهم الله تبارك وتعالى، أن يحملهم على الطريق المستقيم، ويريهم الحق نهاراً سرمداً، لأنه كريم يتقرب ممن يتباعد منه، فكيف بمن يتقرب إليه؟ ويتحبب إلى من يتبغض إليه، فكيف بمن يتحبب إليه؟.

وكذلك روى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: يقول الله عز وجل:

---

(١) وفى هذا المعنى قوله تعالى: (والذين جاهدوا فينا، لنهدينهم سبلنا).

«يا بن آدم إن تقربت لى فتراً تقربت إليك شبراً، وإن تقربت إلى شبراً تقربت إليك ذراعاً، وإن تقربت إلى ذراعاً تقربت إليك باعاً وإن أتيتنى سعياً أتيتك هرولة».

وإنما هذا على حسن المعونة، وسرعة الإجابة والهداية بالسداد والتوفيق، والاكتناف بالعصمة، فلم يلبث هذا التائب إلا يسيراً حتى يقبل الله، عز وجل عليه بمعونة فيغلب له هوى نفسه ويقوى منه ضعفه ويميت منه دواعى شهواته، فيقهر العقل منه الهوى، ويغلب العلم منه الجهل ويسكن قلبه الخوف والهم، ويواصل فيه الأحزان بعد طول لهوه، واتصال أفراحه بالدنيا، كلما ذكر ما كان منه من ذنوبه هاج خوفه، وغلب همه وطال حزنه، فإذا غفل عن الذكر وسها عن الفكر، نازعته نفسه فمال إلى بعض الزلل الذى لم يعر من مثله الصالحون عند غفلاتهم وسهوهم، ثم يرجع إلى الله -عز وجل- بقلب طاهر من الرين والدنس، قد فطمه عن عادته وأعقبه بالخوف من الأمن والاصرار، وبالرجاء الصادق من الغرة والتسويف، فهو من سالف ذنوبه هارب لرحمة ربه عز وجل ، بهربه طالب حتى يلقاه آمناً من عذابه.

وقد جاء فى الحديث عن النبى ﷺ:

«إن العبد ليذنب الذنب، فيدخله ذنبه الجنة، قيل: يارسول الله، وكيف يدخله ذنبه الجنة؟ قال: لا يزال نصب عينيه تائباً منه هارباً منه حتى يدخله الجنة».

وقيل لسعيد بن جبير: من أعبد الناس؟ قال: رجل أصاب من الذنوب فإذا ذكرها اجتهد.

وروى عن النبى ﷺ، أنه قال: «خياركم كل مفتن تواب».

يخبرك: أن خيار أمته لم يعروا من الزلل، وأن علمهم بالله عز وجل، لن يدعهم حتى يرجعوا إليه بالتوبة والإنابة.

والثالث مصر على ذنبه، مقيم على سيئاته، يغلبه الهوى وضعف الخوف، مقر مع ذلك بأن الله عز وجل، معاداً يبعثه فيه وهو لا يتغشاه به، ومقاماً يوقفه فيه ويسأله عما كان منه، وثواباً وعقاباً يصرفه من بعد السؤال إلى أحدهما، ثم يحل فيه مخلداً، إلى ما شاء الله الملك الكريم من بعد التخليد فى العذاب الأليم.

فهذا إقرار بالإيمان فى قلبه قد زايل به الجحد، وصدق به الرب عز وجل والقلب بالشهوات مشغول عن الفكر، والرين له مانع عن الذكر إلا الخطوة تهيج من الإيمان بذكر المعاد ثم لا تجد وضعاً تستقر فيه، لما غلب على قلبه من القسوة وتتابع فيه من الغفلة، فقلبه هائج باشتغال الدنيا، لا يلزمه ذكر التخويف، ولا يتفرغ للفكر، ولا يجد حلاوة الذكر وكيف يكون للذكر فيه مستقر، والاشغال تنازعه، والغفلات تغلب عليه؟ فهذا محتاج إلى ما يحل به عقود الإصرار من قلبه، فيتوب إلى ربه من ذنبه، فيلحق بصاحبيه اللذين من قبله: الناشىء على عير صبوة والمنيب بالتوبة إلى خالقه تعالى.

النص الثانى

باب منازل أهل الرعاية، لحقوق الله عز وجل، فى رد الخطرات وقبولها فى أعمال القلوب والجوارح على قدر منازل أهل القوة والضعف.

والراعون، لحقوق الله عز وجل، فى منازل شتى ، وقد ينتقل كل راع منهم فى تلك المنازل على قدر قوته وضعفه، فأول منزلة من الرعاية، وأهلها أقوى الخلق فى الرعاية لحقوق الله عز وجل، الرعاية عند الخطرات بعد اعتقاد جمل حقوق الله عز وجل، فلا تخطر بقلبه خطرة من أعمال قلبه، إلا جعل الكتاب والسنة دليلين عليها، فلم يقبلها باعتقاد الضمير، وبتركها يسكن قلبه فى مجال الفكر من التمنى وغيره، إلا أن يشهد له العلم أن الله عز وجل، قد أمر بها وندب إليها، أو أذن فيها بأسبابها وعللها، ووقتها وإراداتها فيها، فإنه قد يقبل الخطرة، يرى أنها داعية إلى سنة وهى بدعة وقد يرى أنها داعية إلى طاعة وهى معصية وقد يرى أنا داعية إلى خير وهى شر، كالخطرة تدعو إلى الإخلاص بترك العمل، وإلى التنزه عن الخلق بالفكر، وإلى الرجا على العمل بالعجب والغرة، وإلى المنافسة بالحسد، وإلى الغضب لله عز وجل، بتمنى البلاء فى الدين والدنيا للمسلمين واعتقاد استحلال ما حرم الله عز وجل منهم. ونحو ذلك من الخطرات، وإلى القدر بتنزيه الله عز وجل، وإلى رأى جهم: بنفى التشبيه، وإلى التشبيه: بنفى رأى جهم، وإلى الاعتزال بتثبيت الوعيد، وإلى الخروج بالسيف بالغضب لله عز وجل، أو إلى الإرجاء بتعظيم الأقدار وتنزيه الإيمان من النقصان.

وقد تخطر الخطرة تدعو إلى بدعة فى الجملة يحسبها سنة، ومما يدل على ذلك أن قلوب أهل البدع إذا خطر بها الخطرات تدعوهم إلى بدعه عدوها سنة فكذلك أهل السنة: لن يدع العدو أن يدعوهم إلى البدع عند غفلاتهم من حيث لا يشعرون، ولولا ذلك ما ابتدع أحد بدعة بعد اعتقاده للسنة فى عبادة ولا غيرها، لأنه قد يدعوه العدو إلى الابتداع فى زهده وفى رضائه وتوكله ، فيخالف زهد الأئمة المتقدمين وتوكلهم ، ورضاءهم ويقينهم بمخالفته السنة واعتقاده البدعة، وهو يرى أنها سنة، كما اعتقد قوم الزهد فى الدنيا بتضييع العيال وبترك وجوب حق الوالدين، والتوكل بترك الاكتساب على الأهل والأولاد، والخروج فى السفر بلا زاد، والرضا بالسرور بالبلاء إذا وقع بالمسلمين، وبتحريم الدواءوالدعاء ، وترك التمنى أن المعاصى لم تكن وبالاشتغال بالله عز وجل، بترك الفرائض، وبترك النوافل ودعوى البصائر، واستنارة القلوب بادعاء علم الغيوب: من القطع على ما فى ضمائر الخلق وما يسرون ويكتمون، ويحتجون فى ذلك بآثار: مثل قوله ﷺ:

«المؤمن ينظر بنور الله».

وكل فرقة ممن ذكرنا تحتج بالآثار، والكتاب، والمقاييس، ولكن يطول ذكرها، وإنما أردنا تحذير جملتها، ليعرفها العالم المثبت بالكتاب والسنة.

وكذلك الخطرات التى تدعو إلى تدين القلوب من غير عبادات بالأعمال كالقدر ورأى جهم والرفض والاعتزال ونحوه، فلن يميز العبد بين ذلك وبين ما أحب الله عز وجل من الأعمال والسنن إلا بشاهد العلم، لأن الله عز وجل، أمر بذلك أو ندب إليه وأذن فيه ولا تخطر خطرة فينفيها، أو يحجب قلبه عنها، إلا أن يشهد له العلم، أن الله عز وجل، قد نهى عنها وذمها بسببها وعللها وأوقاتها، فإنه قد تخطر بقلب العبد الخطرة داعية إلى خير فينفيه، وهو يحسب أنها شر، وقد تدعو إلى سنة فينفيها وهو يحسب أنها بدعة ، يزينها له عدوه ، ومما يدل على ذلك: أن قلوب أهل البدع، إذا خطرت بها خطرة تبعتهم على اعتقاد السنة نفوها وحسبوها بدعة ولن يدع العدو أن يدعو العبد المريد إلى نفى خطرات التنبيه على الخير والشر لئلا يقبلها، لأن على العباد وإن أرادوا الله عز وجل، أن يصيبوا الحق بذلك.

وقد ذم الله عز وجل، قوماً ولم يعذرهم، بأن رأو أن الشر خير والخير شر، فقال جل وعز:

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(١).

وقال عز وجل:

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾(٢).

وقال حذيفة رضي الله عنه، لرجل سأله عن الرجل. يقاتل يريد وجه الله عز وجل، فيقتل، ولم يوفق للحق، فقال: ليدخلن النار ممن يقتل أكثر من كذا وكذا ولكن من قاتل يريد وجه الله عز وجل، فأصاب الحق فهو فى سبيل الله.

ومن لم يوفق للحق، لم يوفق للخير، وكذلك الذى ينفى خطرات من الخير يحسبها سواء ولايميز بين ذلك إلا بشاهد العلم من الكتاب والسنة، وإذا تبين له بشاهد العلم إحدى الخطرتين، أنها مما أحب الله عز وجل من عمل قلب أو اعتقاد سنة قبلها وعزم عليها، وإن تبين له بشاهد العلم أنها مما كره الله عز وجل أو ذمه فى كتاب الله عز وجل، أو فى سنة النبى ﷺ أو اجتمعت(٣) عليه العلماء نفاها عن قلبه وحجب قلبه عنها، فإن لم يتبين له عند إحدى الخطرتين ما هى، أهى مما أحب الله عز وجل، أو مما كره الله تعالى؟ وقف وتثبت ابتداء أو يشهد العلم له بأحد الإمرين فيقبل أوينفى، وهو فى فسحة حتى يتبين بالنظر بقلبه، أو بسؤال العلماء، إن كان مما لا يبلغه علمه فإنه إن لم يفعل ذلك لم آمن عليه، أن يضل بغير دليل، فيعتقد الشر ويحسب أنه خير أو ينفى الخير ويحسب أنه شر، ويعرف الشر ثم يعتقده، أو يعرف الخير ثم يجانبه، ولو تبين ذلك لم آمن ذلك عليه أيضاً، فإذا فعل ذلك فقد رعى حقوق الله عز وجل، فى جوارحه فلا يخطر بقلبه خطرة تدعو إلى القول بلسانه، فيعتقد الهم بها، ولا يأذن للسانه. أن ينطق بها، حتى يتبين له فى العلم بالكتاب والسنة، أو فى إجماع الأمة أن الله عز وجل، أمر بها أو ندب إليها وأباحها وكذلك الداعى إلى الاستماع إلى صوت من الأصوات، فيعتقد الهم إلى الإصغاء

(١) سورة الكهف: ١٠٤.

(٢) سورة فاطر: ٨.

(٣) أجمعت العلماء على أنها مما يكره الله عز وجل.

إلى ذلك الصوت، إلى أن يتبين له فى العلم أن الله عز وجل، قد أذن فى ذلك، أو ندب إليه أو أباحه.

ألا ترى إلى ما جاء فى الحديث عن ابن عمر، عن النبى ﷺ ، أنه مر بزمارة راع، فوضع أصبعيه فى أذنيه. وعدل عن الطريق، حتى قيل له: إن الصوت قد انقطع، فمنع سمعه، فلم يأذن له إلى ما كره الله عز وجل.

وكذلك إن خطرت خطرة تدعو إلى نظرة، لم يعقد الهم بها، ولم يدع بصره يتردد فى النظر إليها إن كانت نظرة فجأة، حتى يعلم أن الله عز وجل قد أمر بها، أو ندب إليها أو أباحها، وكذلك يداه: لا يعقد الهم ببطشهما وحركاتهما، بل لا يخلى بينهما وبين البطش، وكذلك الرجلان لا يخلى بينهما وبين المشى حتى يعلم أن الله عز وجل، قد أمر بها، أو ندب إليها أو أباحها، فى كتاب أو سنة أو فى إجماع الأمة.

قلت: فإذا رعيت حق الله عز وجل، عند الخطرات التى تدعو إلى عقد ضمير القلوب، والخطرات التى تدعو إلى الهم بحركات الجوارح وسكونها، فما تخاف على بعد ذلك؟ وهل يجب على غير ذلك؟

قال: نعم، إن الله عز وجل، أوجب فرائضه فى كتابه نصاً فى التلاوة وكثير من نص التلاوة مجمل بالفرض، يحتاج إلى التفسير بما فى سنة النبى ﷺ، فجعل بعض فرضه أوجب من بعض، إذا اجتمع الفرضان، وفرض فرضاً له وقت يفوت، إن جاز وقته بغير عذر قبل أن يؤدى كان العبد عاصياً لربه، وفرض فرضاً له وقتان، فمن أداه فى أول وقته كان ذلك أفضل عليه وإن أداه فى الوقت الثانى لم يكن مأزوراً وأوجب الله عز وجل، ألا ينال فرضه بما حرم على عباده ولا يؤثر على فرضه نافلة مما يتقرب به إليه، فعليك وعلى العباد ألا يؤخروا من فرضه، ما أوجب أن يبدأ به، ولا يقدموا ما أمر أن يؤخر بعد غيره من الغرض ولا يتركوا فرضاً؛ لطلب قربة بنافلة ولا غيرها .

النص الثالث

باب ما ينفى به العجب بالرأى الخطأ:

قلت: أفرأيت نفى العجب بالرأى الخطأ، إذا كان ليس بنعمة فأذكر منة الله عز وجل، بذلك، ولا أضيف ذلك إلى نفسى فيم أنفيه، إذ تبين لى أنه بلية وخذلان، أو نقص فى الدين؟

قال: قد ينفى العبد العجب بالرأى الخطأ بتهمة نفسه، وترك الاستحسان لشىء من رأيه إلا بدليل بين وحجة واضحة من الكتاب والسنة، أو قياس عليهما واستنباط حكم فى نازلة.

قلت وكيف يتهمها؟ وما الذى ينال به تهمتها؟

قال: لمعرفته ما بنيت عليه فى الخلقة أن من شأنها السهو والغفلة، ولما جرب منها من كثرة غلطها، وكثرة زللها، وسوء تأويله مالا يحصى مراراً كثيرة، فى كل ذلك يرى أنه مصيب ، لايشك عند نفسه فى ذلك، ثم يتبين له بعد أنه قد كان غفل وغلط، وكان استجابة لذلك من قبل الهوى، وتزيين الشيطان، ولو لم يبعثه على تهمتها إلا ما يعرف من عامة هذا الخلق: من غلطهم وقولهم فى دين الله، عز وجل، بغير الحق، وكلهم يزعم فيما يدعى الحق وهو على باطل، وهو –مع ما هو عليه من الباطل – لا يشك أنه محق صادق، وأن من خالفه مبطل كاذب من جميع أهل الأديان ومن أهل البدع من المسلمين، وكثير من أهل الفتيا والرأى.

وقد علم أن النفوس طبعها بعضه قريب من بعض، بل كلها لا تعرى من السهو والغفلة، وما نفسه إلا من أنفس الخلق من ولد آدم، عليه السلام بنيته كبنيتهم، وغريزتهم كغرائزهم ومع ذلك فإن المزين لهم واحد، وهو الشيطان المرصد لهم بالعداوة، والباغى لهم الزلل والعصيان فإذا أثبت فى قلبه هذه المعرفة بنفسه اتهمها ولم يعجل بما يستحسن دون النظر فى الكتاب والسنة، أو مسائلة أهل العلم والبصيرة، ولم يزل ذلك شأن الصالحين العارفين بأنفسهم، ولم يزالوا متهمين لآرائهم، خائفين من أنفسهم، من ذلك ابن مسعود، اختلف إليه شهرا فى مسألة عن امرأة مات عنها زوجها ولم يدخل بها ولم

يسم لها صداقاً، فلم يجبهم شهرا مخافة الخطأ فى إجابته إياهم عما سألوه عن ذلك، تهمة لنفسه وخشية لخطئها، ثم قال لما لم يجد بداً من القول فيها قال: أقول فيها برأيى فان كان صواباً فمن الله، عز وجل وإن كان خطأ فمن نفسى.

وروى عن أبى بكر، رضي الله عنه، مثل ذلك.

وقال عمر رضي الله عنه: إن الرأى كان من رسول الله ﷺ صواباً، لأن الله، عز وجل، كان يريه: وهو منا الظن والتكلف.

وقال أبو سعيد رضي الله عنه: قال الله -عز وجل- فلهم وهم أصحاب نبيه ﷺ:

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾(١).

فكيف فيمن دونهم من الناس؟.

وقال قتادة فى قوله عز وجل: لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم، فأنتم أطيش أحلاماً، فاتهم رجل رأيه وانتصح كتاب ربه، عز وجل.

وقال أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه: يقول الله تعالى، لنبيه، ﷺ، لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم، وقال: ونحن أصحابه، فأنتم أعجز رأياً.

وقال ابن مسعود، رضي الله عنه:

«أيها الناس اتهموا الرأى، ولقد رأيتنى وأنا أهم أن أضرب بسيفى فى معصية الله، عز وجل، ومعصية رسوله ﷺ».

وقال سهل بن حنيف:

«أيها الناس : اتهموا آراءكم».

وقال عمر رضي الله عنه، اتهم رجل رأيه، ولقد رأيتنى يوم أبى جندل ولو أقدر لرددت على رسول الله ﷺ، يعنى يوم صالح النبى ﷺ، قريشاً يوم الحديبية فى إجابته إياهم، والأحاديث فى ذلك كثيرة، وتركنا ذكرها كراهية التطويل.

قلت: فإذا ثبت المعرفة بذلك فاتهم رأيه، كيف يتثبت حتى لا يخطىء؟.

---

(١) سورة الحجرات: ٧.

قال: تعلم أن من كتاب الله، عز وجل، آيات محكمات قد أجمع المسلمون على تفسيرها ومنه ما يشتبه ويمكن في التأويل، وذلك الذى اختلف فيه ومنه مشتبه ولم يختلف فيه إلا أهل الزيغ الذين أخبرنا الله عز وجل ، أنهم يبتغون تأويله، ابتغاء الفتنة، لما في قلوبهم من الزيغ والضلالة، وكذلك سنة النبى ﷺ، بهذه المنزلة.

فليعلم العبد المريد للصواب: ليدين الله عز وجل، به أن من الكتاب والسنة محكماً بين التلاوة مفسراً بإجماع وأن ذلك واضح لا يحتاج فيه إلى النظر والبحث ، ولا يجب على النفس التهمة فى قبولها واجتنابها إياه، وأن الذى يمكن فيه الخطأ والصواب، لضعف بن آدم وسهوه، وغفلته وغلبة هواه له، وتزيين عدوه له: ما اختلف فيه، أو حادثة يحتاج فيها إلى التمثيل والقياس على الكتاب والسنة والإجماع، فعند ذلك يتهم نفسه، ويتثبت ولا يعجل، إذ كان الخطأ فى ذلك منه ممكناً، فالعجلة وترك التثبت غرور وخطأ وترك التفقد للدين والتحرز من القول على الله لغير الحق، فلا يعجل ويتثبت ولا يجترئ ويتجنب ولا يقبل ولا يعتقد ما يستحسنه قلبه وزين فى عقله إلا من كتاب أو سنة أو ما اجتمعت عليه الأم، أو تأويل فيما اختلف فيه شبه للكتاب والسن والإجماع أو قياس مساو لذلك إذا كان ممن يجوز له القياس والنظر، وإن لم يكن ممن له أن يقيس ولا ينظر سأل العلماء ونظر فى أقوالهم وإلى ما ذهبوا إليه ، وإن كان ممن لا يحسن أن ينظر ويميز من الذين لا يعرفون حلالا من حرام، ولا يحسنون التمييز لضعف عقولهم، فليس على أولئك إلا التقليد للعلماء، إذا سألوهم عند الحاجة، وذلك كالأعجمى وبعض النساء ممن لا يحسنون التمييز، وإن كان من التشابه الذى وجب على المؤمنين الإيمان به، ووكل علمه إلى الله، عز وجل، وقف وعلم أنه ليس له تأويله، وبذلك وصف الله عز وجل، الراسخين فى العلم بالإيمان به، وترك تأويله، وذلك فيما لا يجب على العباد فيه حكم يعملون به، فهذا ما ينفى عنك العجب بالرأى الخطأ، حتى لا تعجب إن شاء الله بخطأ فى دين الله –عز وجل– من غلط تأويل ولا قياس.

قلت: فالعمل الذى لم يمن به على كيف العجب فيه.

قال: الاتكال على قوتك وصبرك لما جربت من نفسك ونسيانك انتظار منة الله –عز وجل– بذلك.

وقد روى الأحنف بن قيس عن النبى ﷺ، أن داود عليه السلام، قال: يارب إن بنى إسرائيل يسألونك بابراهيم واسحاق، ويعقوب، قال ابن عباس فى هذا الحديث: إن داود – صلى الله عليه وسلم– حدث نفسه أنه إن ابتلى يستعصم.

وقال محمد بن كعب والمقبرى فى هذا الحديث:

«إن الله، عز وجل، قال: إنى ابتليتهم فصبروا، قال: يارب وأنت إن ابتليتنى صبرت، قال: أما إنى ابتليتهم ولم أخبرهم بأى شىء ابتليتهم، ولا فى أى شهر ولا فى أى يوم ، وأنا مخبرك فى سنتك فى شهرك هذا، ولكن داود لم يصبر على الابتلاء، فاحرزنفسك» .



أبـو سعيـد الخـراز

وكتاب الصدق



أبو سعيد الخراز

اتجـاهـــه

«كل مافتك -من الله سوى الله-: يسير، وكل حظ لك، سوى الله قليل».

بهذه الحكمة البالغة التى نطق بها أبو سعيد: نبتدئ الحديث عنه، ولا نبتدئ بهذه الحكمة اعتباطاً، ولكن لأنها محور تفكيره.

لم تخدعه زخارف الحياة الدنيا، ولم تلهه مفاتنها، فاختط لنفسه طريق، الصديقين، وسار على نهج أولياء الله، رضى الله عنهم.

لقد ابتدأ- كما تبتدئ الصفوة المختارة -باحثاً منقباً عن الله، فوجده ظاهراً فى آثاره:

لقد وجده فى النسمة العليلة، وفى الزهرة الندية، وفى النجم المتألق، وفى شعاع الشمس الذهبى، لقد وجده فى الخير، وفى الجمال، وفى الجلال، فأحبه وهام به، وكانت حالته كما يصف هو، فيقول:

«والمحب يتعلل إلى محبوبه بكل شئ، ولا يتسلى عنه بشئ، ويتبع آثاره، ولايدع استخباره».

وكثيراً ما أنشد تعبيراً عن حاله أيضاً:

أسائلكم عنها، فهل من مخبر؟ ** فمالى بنعم -مذنأت دارها- علم!

فلو كنت أدرى أين خيم أهلها؟! ** وأى بلاد الله -إذظعنوا[1]- أموا[2]؟

إذن لسلكنا مسلك الريح خلفها ** ولو أصبحت نعم، ومن دونها النجم!

---

(١) ظعنوا: ارتحلوا وسافروا.

(٢) أموا: قصدوا واتجهوا.

وكثير من الناس من يفيض الله عليه النعم، ويمنحهم من جوده. فينعمون بما أنعم لاهين عنه، ويتلذذون بما منحهم من أسباب الملاذ، غير متجهين إليه سبحانه..!!

أما أبو سعيد: فكان مسلكه، وكان شعاره شيئاً آخر... إنه يعبر عن منهجة حين يقول:

«ينبغى أن يكون فرحك فى العطاء: بالمعطى، ولذتك فى اللذات: بخالق اللذات، وتنعمك فى النعم: بالمنعم دون النعم، لأن ذكر النعمة، عند ذكر المنعم: حجاب، ورؤية النعمة، عند رؤية المنعم: حجاب».

ويشرح حديث رسول الله صلوات الله عليه:

«جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها..» فيقول: «وأعجباً ممن لم ير محسناً غير الله، كيف لا يميل بكليته إليه»!!

وفى الاتجاه إلى الله، نعيم لا يعدله نعيم، ولذة لا تعدلها لذة... وإذا نعم الناس بملبس يبلى، أو بمطعم لا تلبث حلاوته أن تزول، فإن لأولياء الله نعيمهم المبرأ من الأوضار![1].

إن لهم نعيمهم الروحى، ولكن لهم أيضا نعيم أبدانهم الطيب الطاهر.

يقول أبو سعيد:

«إن الله تعالى عجل لأرواح أوليائه التلذذ بذكره، والوصول إلى قربه، وعجل لأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم، وأجزل نصيبهم من كل كائن فعيش أبدانهم: عيش الجنانيين: «أهل الجنة» وعيش أرواحهم: عيش الربانيين».

ولا عجب، بعد ذلك، أنه إذا أنس الناس بالأخلاء والأخذان، أن يكون أنس أبى سعيد بالله؛ ولا عجب أن يكون حديثه عن الأنس بالله: يمتاز بالدقة والوضوح.

يقول أبو سعيد، وقد سئل عن الأنس بالله: ما هو؟:

«استبشار القلوب: بقرب الله تعالى، وسرورها به، وهدوءها: فى سكونها إليه، وأمنها: معه، من حيث الروعات، وإعفاؤه لها من كل ما دونه: أن تشير إليه، حتى يكون هو المشير، لأنها ناعمة به ولا تحمل جفاء غيره».

---

(١) الأوضار: جمع وضر، والوضر: وساخة الدسم واللبن... القاموس.

حيــاتــه

بغدادى النشأة والمنبت، ولد فى أوائل القرن الثالث الهجرى تقريباً، وأشتهر بأبى سعيد الخراز، واسمه: أبو سعيد: أحمد بن عيسى الخراز.

وقد صحب ذا النون المصرى، وسريا السقطى، وبشر بن الحارث، ونظراءهم.

يذكره صاحب طبقات الصوفية فيقول:

«هو: من أئمة القوم، وجلة مشايخهم».

ويذكر أنه قيل:

«إنه أول من تكلم فى علم الفناء».

أما صاحب الحلية، فإنه يقول عنه:

«ومنهم: العارف المعروف الكامل، بالبيان موصوف، له الكتب المذكورة، والأجوبة المشهورة، صحب ذا النون ونظراءه، ا نتشرت بركاته على أصحابه ومتبعيه، سيد من تكلم فى علم الفناء والبقاء».

ويتحدث مؤرخوه، كلهم تقريباً: بأنه روى الحديث التالى بإسناده:

«سوء الخلق: شؤم، وشراركم: أسوؤكم أخلاقا».

وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ وفاته:

فيذكر صاحب الرسالة القشيرية: سنة سبع وسبعين ومائتين.

ويذكر صاحب الطبقات: سنة تسع وسبعين ومائتين.

رأيه فى المعرفة، وفى الطريق الموصل إليها

يهدف الصوفية دائماً، إلى معرفة ما وراء الطبيعة معرفة يقينية، ولكن كيف تتأتى المعرفة؟

إنها –حسبما يرى أبو سعيد–: «تأتى القلب من وجهين: من عين الجود، ومن بذل المجهود».

إنها فيض من الله، وإنها اكتساب وجهد، وفى الوصول إليها السعادة، بيد أن طريقها –وهو نفس الطريق إلى الله–: ليس سهلا هيناً، وإذا كانت الغاية نفسية فلا يتأتى أن يكون سبيلها تافهاً.

كيف نصل إلى الله؟ ما هو الطريق إليه؟ كيف نصل إلى خالص العلم؟ كيف نرد على حياض المعرفة؟

سئل أبو سعيد عن أوائل الطريق إلى الله، فبين أنه:

التوبة، ثم ذكر شرائطها، ورسم الطريق الذى يرسمه الصوفية، وهو طريق نفسانى سيكلوجى، من أدق ما يكون، ينتقل فيه الإنسان من مرحلة إلى مرحلة، مترقياً من مقام التوبة، حتى يصل إلى مقام المحبين ويترقى إلى مقام المقربين.

فإذا وصل إلى هذه المرحلة، أدمنت روحه النظر فى النعمة، وفكرت فى الآيادى والإحسان، فانفردت بالذكر، وجالت فى ملكوت عز الله، بخالص العالم به، واردة على حياض المعرفة، إليه صادرة، ولبابه قارعة. فنعمت وسعدت.

ولنذكر ذلك بأسلوبه، نقلا عن كتاب: «حلية الأولياء»:

قال أبو سعيد:

«إن أوائل الطريق إلى الله: التوبة».

وذكر شرائطها.

«ثم ينقل من مقام التوبة إلى مقام الخوف.

ومن مقام الخوف إلى مقام الرجاء.

ومن مقام الرجاء إلى مقام الصالحين.

ومن مقام الصالحين إلى مقام المريدين.

ومن مقام المريدين إلى مقام المطيعين.

ومن مقام المطيعين إلى مقام المحبين.

ومن مقام المحبين إلى مقام المشتاقين.

ومن مقام المشتاقين إلى مقام الأولياء.

ومن مقام الأولياء إلى مقام المقربين.

وذكروا لكل مقام عشر شرائط، إذا عاناها وأحكمها، وحلت القلوب هذه المحلة: أدمنت النظر فى النعمة، وفكرت فى الأيادى والإحسان.

فانفردت النفوس بالذكر، وجالت الأرواح فى ملكوت عزه بخالص العلم به واردة على حياض المعرفة، إليه صادرة، ولبابه قارعة، وإليه فى محبته ناظرة.

أما سمعت قول الحكيم وهو يقول:

أراعى سواد الليل أنساً بذكره، ** وشوقاً إليه، غير مستكره الصبر

ولكن: سروراً دائماً، وتعرضاً، ** وقرعا لباب الرب: ذى العزو الفخر

فحالهم: أنهم قربوا فلم يتباعدوا، ورفعت لهم منازل فلم يخفضوا، ونورت قلوبهم، لكى ينظروا إلى ملك عدن، بها ينزلون، فتاهو بمن يعبدون، وتعززوا بمن به يكتفون.

حلوا فلم يظعنوا، واستوطنوا محلته، فلم يرحلوا، فهم الأولياء، وهم العاملون، وهم الأصفياء، وهم المقربون.

أين يذهبون عن مقام قرب، هم به: آمنون؟ وعزوا فى غرف، هم بها: ساكنون، جزاء بما كانوا يعلمون، فلمثل هذا فليعمل العاملون[1]!،

فإذا ما ورد الإنسان حياض المعرفة، هل يتأتى له أن يعلم ما يخالف الشريعة؟

هل الباطن، وهو المعرفة التى وصل إليها، يخالف الظاهر؟

هل الحقيقة، تخالف الشريعة؟!!

---

(١) حلية الأولياء المجلد العاشر ص٢٤٨، ٢٤٩.

يقول أبو سعيد كلمته الحاسمة:

كل باطن يخالف ظاهراً: فهو باطل.

* * *

وكتاب الصدق -وهو الوحيد الذى بقى من آثاره، والذى نقدمه اليوم، مغتبطين إلى القراء-: كان من الكتب التى يتوارثها الصوفية، ويحيطونها بالكتمان، ويضنون بها على غير أهلها، لأنها ذخيرة نفيسة، لا يصح أن تبتذل للعامة، وكأنها لؤلؤة مكنونة، لا يستساغ أن تقتحمها أعين الدهماء.

والواقع: أنه مختصر فى غاية النفاسة، يرسم -فى دقة وفى وضوح- الطريق إلى الله!!

كتاب الصدق
أبو سعيد الخراز
قدّس الله روحه ونور قبره

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى.

قال الشيخ الإمام العارف: أبو سعيد: أحمد بن عيسى البغدادى الخرّاز قدس الله روحه، ونور ضريحه:

قلت لبعض العلماء: أخبرنى عن الصّدق: كيف هو؟ وما معناه؟ وكيف العمل به، حتى أعرفه؟

فقال: الصدق: أسم للمعانى كلها، وهو داخل فيها:

أتحب أن أجيب عن مسألتك جواباً مختصراً أجمله، أم أشرح لك العلم والعمل بالأصول التى تقدم بها الفروع؟

قلت: أريد الأمرين جميعاً، ليكون ذلك علماً لى، وفقها، ونصرة.

فقال: وفقت، إن شاء الله!

إعلم: أنه لا بد للمريد -المحقق فى إيمانه، والمطالب لسلوك سبيل النجاة- من معرفة ثلاثة أصول يعمل بها، فبذلك يقوى إيمانه، وتقوم حقائقه، وتثبت فروعه، فتصفو عند ذلك الأعمال وتخلص إن شاء الله.

فأولها: الإخلاص:

لقول الله عز وجل: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[٢].

وقال لمحمد، ﷺ: ﴿قُلْ: إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾[٣].

وقال ﴿قُلِ: اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾[٤].

(١) سورة الزمر: ٢، ٣.
(٢) سورة غافر: ١٤.
(٣) سورة الزمر: ١١.
(٤) سورة الزمر: ١٤.

وقال جل ذكره: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا[1] وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾.

ونحو هذا فى القرآن كثير. وفى هذا مقنع.

ثم الصدق:

لقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾[5].

وقال: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾[7].

وهذا كثير فى القرآن.

ثم الصبر:

لقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾[8].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾[9]

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾[10].

وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[11].

وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾[12].

(١) سورة مريم: ٥١ وهذا على القراءة بكسر اللازم.
(٢) سورة التوبة: ١١٩.
(٣) سورة محمد عليه السلام: ١.
(٤) سورة الأحزاب: ٢٣.
(٥) سورة مريم: ٥٤.
(٦) سورة الأحزاب: ٨.
(٧) سورة الأحزاب من الآية: ٢٥.
(٨) سورة آل عمران: ٢٠٠.
(٩) سورة النحل: ١٢٦.
(١٠) سورة النحل: ١٢٧.
(١١) سورة الطور: ٤٨.
(١٢) سورة المزمل: ١٠.

وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[2].

فجعل لهم الكرامة بالبشرى.

وهذا كثير مؤكد فى القرآن.

وهذه[3] ثلاثة أسام لمعان مختلفة، وهى داخلة فى جميع الأعمال.

ولا تتم الأعمال إلا بها فإذا فارقت الأعمال فسدت ولم تتم.

ولا يتم بعض هذه الأصول الثلاثة إلا ببعض، فمتى فقد أحدهما تعطلت الآخرى.

قال: فالإخلاص لا يتم إلا بالصدق فيه، والصبر عليه.

والصبر لا يتم إلا بالصدق فيه، والإخلاص فيه.

والصدق لا يتم إلا بالصبر عليه، والإخلاص فيه.

فأول الأعمال: هو الإخلاص.

فالفرض الواجب: أن تؤمن بالله، وتعلم وتقر وتشهد: ألا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأنه: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، والخالق، والبارىء، والمصور، والرازق، والمحى، والمميت، الذى إليه ترجع الأمور، وأن محمداً: عبده ورسوله، جاء بالحق من عند الحق، وأن النبيين: حق، وبالحق أدوا الرسالة، وبالغوا[4] فى النصيحة، وأن الجنة حق، والبعث: حق، والمراد: إلى الله تعالى، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.

ويكون ذلك عقدك[5] ظاهراً على لسانك، بلاشك ولا ريب ساكنا[6] قلبك مطمئناً إلى ما صدقت به وأقررت.

---

(١) سورة الكهف: ٢٨.

(٢) سورة البقرة من الآية: ١٥٥.

(٣) الإخلاص، والصدق، والصبر.

(٤) ترقوا فيها إلى أعلى نهاياتها.

(٥) اعتقادك.

(٦) ذهب ما به من شك.

وكذلك لا يعارضك -فى كل ما جاء من عند الله على لسان نبيه، ﷺ- شك فى كل ما ذكره عن ربه عز وجل، غير مخالف لما كان عليه النبى ﷺ[١]، وأصحابه، وأئمة الهدى: الذين كانوا قدوة لمن جاء بعدهم من أهل الهداية، ثم التابعون من بعدهم، ثم علماء كل عصر، متبعاً للجماعة، مخلصاً فى ذلك لله وحده، لا تريد إلا الله تعالى ليتم اسلامك وإيمانك وتوحيدك.

باب
الصدق فى الإخلاص الثانى

وهو الذى أمر الله تعالى به، حين يقول:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٢].

فمن شرح ذلك: أن يكون العبد يريد الله عز وجل، بجميع أعماله وأفعاله، وحركاته كلها ظاهرها وباطنها، لا يريد بها إلا الله وحده، قائما بعقله وعلمه على نفسه وقلبه؛ راعياً لهمه، قاصداً إلى الله تعالى بجميع أمره، لا يحب مدح أحد ولا ثناءه، ولا يفرح بعمله -إذا اطلع عليه المخلوقون- فإن عارضه[٣] من ذلك شىء اتقاه[٤] بالسرعة والكراهية، ولم يسكن[٥] إليه. لكن إذا أثنى عليه أحد. حمد الله على ستره عليه[٦] حين وفقه لخير رآه العباد عليه.

نعم ثم يخاف عند ذلك من عمله الردىء وسريرته القبيحة التى خفيت على الناس ولم تخف على الله. فأشفق من ذلك. وخاف أن تكون سريرته أقبح من علانيته.

(١) وذلك قوله تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

(٢) سورة الكهف: ١١٠.

(٣) ظهر له.

(٤) حفظ نفسه منها.

(٥) يركن ويطمئن.

(٦) ستره عليه: رعاية له باظهار خيره وإخفاء شره.

فهكذا يروى فى الحديث:

«السريرة إذا كانت أقبح من العلانية فذلك الجور. فإذا استوت السريرة والعلانية فذلك العدل. وإذا فضلت السريرة على العلانية فذلك الفضل».

فالواجب على العبد: أن يخفى عمله[١] جهده حتى لا يطلع عليه الا الله تعالى. فذلك أبلغ فى رضا الله عز وجل. وأعظم فى تضعيف الثواب. وأقرب إلى السلامه. وأوهن لكيد العدو. وأبعد من الآفات.

وروى عن سفيان الثورى رحمه الله أنه قال: «ما أعبأ بما يظهر من عملى».

ويروى فى الحديث:

«أن عمل السر يفضل على عمل العلانية سبعين ضعفاً».

ويروى: «أن العبد ليعمل العمل فى السر، فيدعه الشيطان عشرين سنة، ثم يدعوه إلى أن يظهره، ويذكره، فينقل من ديوان السر إلى ديوان العلانية، فينقص من ثواب العمل وفضله. ثم لا يزال يذكره أعماله. حتى يذكرها للناس، ويتحلى[٢] اطلاعهم عليها. ويسكن[٣] إلى ثنائهم فيصير رثاء[٤]».

فهذه الأمور: ضد الإخلاص. وما ذكرنا: فهو من جملة الإخلاص الذى لابد للمخلوقين من معرفته والعمل به ولا يسعهم جهله. وتبقى الزيادة فى الإخلاص مع العبد اذا أحكم هذه الأصول.

(١) قوله أن يخفى عمله: أى الذى لم يطلب الشرع فيه الظهور، لان الشعائر كلها كالحج والعمرة والجماعة فى الصلوات ... الخ مطلوب فيها الظهور شرعاً.
وأما غير الشعائر: كالصدقات وعمل البر أيا كان؛ فالامر فيه على ما يأتى: إن كان مرشدا أو قصد الحث عليه تعين إظهاره ليؤدى المطلوب كما كان فى حديث: «من سن سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».
فاظهار الخير والبر بقصد الإرشاد المطلوب.
لكن محل ذلك إذا آنس من قلبه إتجاهاً إلى الله وحده لم يخش تمرد الاماره بالسوء، وإليك ميزاناً لمعرفة ذلك الاتجاه وهو:
إن كان المريد أشد فرحاً وتلذذاً به فى خلوته فعله، وإلا فلا.
(٢) يجد لذة فى اضطلاعهم عليها.
(٣) يرتاح ويركن. (٤) رياء.

قلت: ثم ماذا؟

قال: مما يمكن أن يذكر: أن يكون العبد لا يرجو إلا الله. ولا يخاف الا الله. ولا يتزين الا لله. ولا يأخذه فى الله لومة لائم. ولا يبالى. اذا وافق الأمر الذى فيه محبة الله ورضاه. من سخطه.

وما بقى من ذكر غاية الإخلاص أكثر. وفى هذا بلاغ للمريدين السالكين للطريق!.

باب
الصدق فى الصبر

والصبر: اسم لمعان ظاهرة وباطنة. فأما الظاهرة فهى ثلاث:

فأولها: الصبر على أداء فرائض الله تعالى. على كل حال فى الشدة والرخاء، والعافية والبلاء، طوعاً وكرهاً.

ثم الصبر الثانى: هو: الصبر عن كل ما نهى الله تعالى عنه، ومنع النفس من كل ما مالت إليه بهواها مما ليس لله، تعالى، فيه رضا، طوعاً وكرهاً.

وهذان صبران فى موطنين: هما فرض على العباد أن يعملوا بهما.

ثم الصبر الثالث: هو: الصبر على النوافل، وأعمال البر، مما يقرب العبد إلى الله، تعالى: فيحمل نفسه على بلوغ الغاية منه للذى رجاه من ثواب الله، عز وجل.

وهكذا يروى، أن النبى، ﷺ فيما رواه عن ربه، عز وجل قال: «ما تقرب إلى عبدى بمثل ما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه»[١]

---

(١) عن أبى هريرة، رضي الله عنه قا: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى، قال، من عادى لى وليا فقد اذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته، ولئن استعاذنى لأعذنه». رواه البخارى.

عن أنس، رضي الله عنه عن النبى ﷺ، فيما يرويه عن ربه، عز وجل، قال: «إذا تقرب العبد إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً. وإذا تقرب إلى ذراعا تقربت منه باعا. وإذا أتانى يمشى أتيته هروله». رواه البخارى.

والصبر الرابع[١]: هو الصبر على قبول الحق ممن جاءك به من الناس، ودعاك إليه بالنصيحة، فيقبل منه، لأن الحق رسول من الله، جل، ذكره إلى العباد، ولا يجوز لهم رده. فمن ترك قبول الحق ورده فإنما يرد على الله، تعالى، أمره!

وهذا ظاهر الصبر الواجب على الخلق الذى لا يسعهم جهله، ولابد لهم منه.

وبقى شرح حقائق الصبر وغايته، الذى يكون مع الصابرين بعد إحكام هذا الصبر الذى ذكرناه.

قلت: فالصبر، فى نفسه، ما هو، وما موجوده فى القلب؟

قال: الصبر: هو احتمال مكروه النفس.

وموجوده: إذا وقع بالنفس ماتكرهه تجرعت ذلك، وأنفت الجزع، وتركت البث والشكوى، وكتمت ما نزل بها.

لأنه يروى فى الحديث: «من بث[٢] فقد شكا».

ألم تسمع الله، تعالى، يقول؟: ﴿وَالْكَاظِمِينَ[٣] الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾[٤]

أفلا ترى: أنه كظم ماكره، وشق على نفسه احتماله، فصار صابراً؟ فإذا أبدى الجزع وكافأ من أساء إليه[٥]، ولم يعف عمن أساء إليه: خرج من حد الصبر على هذا القياس.

قلت: فبماذا يقوى الصابر على الصبر، وبماذا يتم له؟

قال: يروى فى الحديث:

«إن الصبر على المكاره: من حسن اليقين».

ويروى:

«إن الصبر: نصف الإيمان، واليقين: الإيمان كله».

وذلك: أن العبد لما آمن بالله تعالى، وصدق قوله فى الذى وعده وتواعده، قامت فى قلبه الرغبة فى ثواب الله، تعالى، الذى وعده، ولزمت قلبه الخشية من عقاب الله الذى

(١) هو الصبر الباطن.
(٢) أذع ونشر سبب الضيق الذى ألم به.
(٣) الذين يخفون غيظهم فلا يظهرونه.
(٤) سورة آل عمران من الآية: ١٣٤.
(٥) قابل الإساءة بالإساءة.

تواعده، وصحت عند ذلك رغبته، وقامت عزيمته فى صلب النجاه مما يخافه، وهاجت آماله فى الظفر بالذى يرجوه، فجد[١] عند ذلك فى الطلب والهرب، فسكن الخوف والرجاء قلبه! فركب عند ذلك مطية الصبر، وتجرع مرارته عند نزوله، ومضى فى إنفاذ العزائم، وحذر من نقصها، فوقع عليه اسم الصبر.

باب
معانى الصدق

والصدق اسم لمعانى كثيرة:

فأول الصدق: هو صدق العبد فى الإنابة[٢] إلى الله، تعالى بالتوبة النصوح.

لقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[٣]

وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٤]

وقال: تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾[٥]

فأول التوبة: هو الندم على ما كان من التفريط فى أمر الله، تعالى، ونهيه، والعزيمة على ترك العود فى شئ مما يكره الله، عز وجل، ودوام الاستغفار، ورد كل مظلمة للعباد من مالهم، والاعتراف لله، تعالى، ولهم، ولزوم الخوف والحزن، والإشفاق ألا تكون مصححاً، والخوف أن لا تقبل توبتك[٦] ولا تأمن أن يكون قد رآك الله، تعالى، على بعض ما يكره فمقتك.

---

(١) اجتهد. (٢) أناب إلى الله تعالى: أقبل عليه وتاب.

(٣) سورة التحريم: ٨. (٤) سورة النور: ٣١. (٥) سورة التوبة: ١١٧.

(٦) لعل الواجب شرعاً: أن يوقن قبول الله لتوبته، إذا تاب توبة نصوحاً بشروطها؛ لأن فى توبة العبد: طلب الغفران من الله تعالى؛ وقد جاء:

«أدعو الله وأنتم موقنون بالإجابة» وجاء: عن الله تعالى:

«أنا عند ظن عبدى بى» أو كما قال.

والمؤمن لا ييئس من روح الله ولا يقنط، كما جاء فى الكتاب الكريم، جاء إلى فى الأحاديث الصحيحة الكثير من فرح الله تعالى بتوبة العبد الذى جاء إلى الله بقراب الأرض ذنوباً، ولعل الأنسب أن يقال:

إن التوبة: لطف من الله، تعالى الذى أيقظ قلبه لتوبته. لأن المعصية تورثه القسوة، فلم يعد يتذوق حلاوة الطاعة ومرارة المعصية؛ فيستمر إلى أن يموت كافراً ولا يأمن الشيطان الذى يغريه بالمعصية أولا. وأن له أن يتوب ثانيا. وذلك دأب الشيطان مع بعض الصالحين: يزين لهم التوبة بعد المعصية.

وهكذا يروى عن الحسن البصرى، رضي الله عنه، أنه قال: ما يؤمننى أن يكون قد رآنى على بعض ما يكره، فقال: اعمل ما شئت فلا عفرت.

ويروى عنه أيضاً أنه قال: أخاف أن يطرحنى فى النار ولا يبالى.

وبلغنى أن بعض العلماء لقى بعض الناس فقال له: تبت؟

قال: نعم.

قال: قبلت؟

قال: لا أدرى.

قال: إذهب فادر.

وقال: «يفنى حزن كل ثكلى[1] وحزن التائب ما يفنى!».

ومن صدق التوبة: ترك الأخدان والأصحاب الذين أعانوك على تضييع أمر الله تعالى، والهرب منهم، وأن تتخذهم أعداء، أو يرجعوا إلى الله.

فهكذا قال الله عز وجل: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾[2]

ومن صدق التوبة: خروج المأثم من القلب. والحذر من خفايا التطلع إلى ذكر شئ مما أنبت[3] إلى الله منه قال الله، عز وجل: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾[4]

وأعلم أن المؤمن: كلما صحح، وكثر علمه بالله تعالى: دقت عليه التوبة أبداً، ألا ترى أن النبى ﷺ يقول: «إنه ليغان على قلبى، فأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم مائة مرة»؟

فمن طهر قلبه من الآثام والأدناس، وسكنه النور: لم يخف عليه ما يدخل قلبه من خفى الآفة، وما يلزمه من القسوة: من الهمة بالزلة قبل الفعل، فيتوب عند ذلك.

= وقد غفلوا عما ذكر: من يقظه القلب قبل المعصية. وغفلته بعدها.

نعم: عليه أن يذكر شبح المعصية. وأنها كادت به. لولا لطف الله الذى نبهه وألهمه التوبة، وأنه لا يضمن ذلك بعد أيه معصية، فيستمر فى حذر من كيد الشيطان، إنه عدو مضل مبين.

(١) التى فقدت ابنها.

(٢) سورة الزخرف. ومثه قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾..

(١) رجعت: وتبت. (٢) عقد القلب على المعصية –سورة الأنعام: ١٢٠.

باب
الصدق فى معرفة النفس والقيام عليها

قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾[١].

وقال تعالى: فى قصة يوسف، عليه السلام، حين يذكر عنه: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[٣].

وقال رسول الله، ﷺ: «أعدى عدو لك: نفسك التى بين جنبيك، ثم أهلك، ثم ولدك، ثم الأقرب فالأقرب»[٤].

ويروى عنه، ﷺ، أنه قال: «نفس إن قبقبتها[٥] ونغمتها[٦] ذمته غدا عند الله».

قيل له: وما هى؟

قال: «أنفسكم التى بين جنبيكم».

فمن صفة الصادق فى القصد إلى الله تعالى: أن يدعو نفسه إلى طاعة الله، تعالى، وطلب مرضاته، فإن أجابته حمد الله، تعالى، وأحسن إليها.

فهكذا يروى عن أبى هريرة، رضي الله عنه، أنهم رأوه يوطئ[٧] شيئا يفترشه.

فقيل له، ما هذا؟

قال: نفسى إن لم أحسن إليها لم تحملنى.

---

(١) سورة النساء: ١٣٥.

(٢) سورة يوسف: ٥٣.

(٣) سورة النازعات: ٤٠، ٤١.

(٤) عداوة النفس لأنها: أمارة بالسوء إلا ما رحم ربى. وعداوة الأهل: لعلها من ناحية الفتنة: إنما أموالكم وأولادكم فتنة؛ أو أن ذلك محمول على البعض دون الكل: وإن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم.

(٥) أطاعها فى شهوتها الجنسية.

(٦) أجابها إلى ما تشتهى من الشراب والسماع.

(٧) يهيء.

وإن لم تجبه إلى ما يرضى الله، ورآها بطيئة، منعها محبوبها من العيش، وخالفها عندما تهوى، وعاداها فى الله، ولله، وشكاها إلى الله، حتى يصلحها له.

ولا يقيم على ذمها مع الإحسان إليها، وذكر عيوبها والذم لها، وما لا يرضاه من فعلها، مع الإقامة معها على الذى تهواه من الفعل.

وهكذا: يروى عن بعض العلماء أنه قال:

«قد علمت أن من صلاح نفسي: علمي بفسادها».

وكفى بالمرء إثما: أن يعرف من نفسه عيبا لا يصلحه، وليس منتقلا من ذلك إلى توبة.

وقال بعض العلماء: إن كنت صادقا فى ذمك لنفسك: فإن ذمك غيرك بما فيك فلا تغضب.

وإذا نازعتك نفسك إلى شيء من الشهوات، أو شغل قلبك فى طلب شيء مما حرم عليك وحل لك، فاتهمها تهمة من يريد صلاحها، وامنعها من ذلك منع من يريد استعبادها، واحملها بالامتناع عن الملاذ على اللحوق بمن تقدمها.

فإن الذى نازعتك إليه: لا يخلو من أن يكون حراما تستحق به السخط، أو حلالا، تستوجب به طول الوقوف على المساءلة إذا مضى التاركون للحرام إجلالا له وتعظيما له، ووقفوا عن الحلال للانكماش[1] والمبادرة.

فاعمل فى فطام نفسك عن الحالين جميعا، فإن من فطم نفسه عن الدنيا: كان رضاعه من الآخرة، ومن اتخذ الآخرة أما: أحب برها والورود عليها.

إذا رضى أبناء الدنيا بالدنيا أما، وبرّوها، وسعوا من أجلها، فارم المؤثرين للدنيا من قلبك بالهجران، مع النصيحة لهم وتحذيرهم إياها.

واحذر التخلف عن السابقين، وانظر فى خاصة نفسك، وحث على ذلك اصفياءك وبطائنك، فإن السابقين شمروا وشدوا المآزر، وكشفوا عن الرءوس والسوق[2] فاغتنموا الصحة، وبادروا فى النشاط، ورعوا حق الله تعالى، وحذروا أن يهتكوا ستراً مما نهاهم

(١) لعل المقصود: للانكماش عن طول الحساب والمبادرة إلى الجنه.
(٢) كناية عن الاجتهاد.

عنه، وتحببوا إليه برفض ما أباح لهم أخذه، وتركوا الحرام تعبداً، والحلال تقرباً، وألفوا السهر والظمأ، وأنسوا إلى التبلغ والاجتراء باليسير.

باب
الصدق فى معرفة عدوك: إبليس

قال الله، عز وجل: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[١].

وقال عز وجل: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾[٣].

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «للملك لمة وللشيطان لمة: فلمة الملك: إيعاد بالخير، ولمة الشيطان: إيعاد بالشر».

وقال فى خبر آخر: «إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خنس[٤]، وإذا غفل وسوس».

فاقطع مادته بالعزيمة على مخالفة هواك، وامنع نفسك من الافراط والتشوف[٥]، فهما خير أعوانه عليك، وبهما يقوى كيده، وإذا اتبعتهما فأحضر عقلك وعلمك الذى علمك الله تعالى، فقم بهما على نفسك، وراع قلبك وما يقع فيه، فما كان من أجناس الخير والعلم فاتبعه، وما كان من جنس الباطل والهوى فانفه بالسرعة، ولا تماد على الخطرة[٦] فتصير شهوة، ثم تصير الشهوة همة[٧]، ثم تصير الهمة فعلا.

واعلم أن عدوك: **إبليس لا يغفل عنك فى سكوت ولا كلام، ولا صلاة ولا صيام، ولا** بذل ولا منع، ولا سفر ولا حضر، ولا تفرد ولا خلطة ولا فى توفر[٨] ولا عجلة، ولا فى

---

(١) سورة فاطر: ٦.
(٢) سورة الأعراف: ٢٧.
(٣) سورة النمل من الآية: ٢٤.
(٤) انقبض وانزوى.
(٥) التعلق بالآمال.
(٦) ما يجرى فى القلب من تدبير أمره.
(٧) أول العزيمة أو العزيمة، والهم بالفتح وحذف الهاء كذلك ويحكى ابن فارس (الهم ماهممت به إذا أردته ولم تفعله) ولعله هنا يتطابق مع ما ذكره ابن فارس.
(٨) اتزان ورزنة.

نظر ولا فى غض بصر، ولا فى كسل ولا فى نشاط، ولا فى ضحك ولا فى بكاء، ولا فى إخفاء ولا فى إعلان ولا حزن ولا فرح، ولا صحة ولا سقم، ولا مسألة ولا جواب، ولا علم ولا جهل، ولا بعد ولا قرب، ولا حركة ولا سكون، ولا توبة ولا إسرار.

ولن يألو جهداً فى توهين عزمك، وفتور نيتك، وتأخير توبتك ويسوف برك وقتاً إلى وقت، ويأمرك بتعجيل ما لا يضرك تأخيره، يريد بذلك قطعك من الخير، ثم يذكرك فى وقت شغلك بالبر والطاعة، الحوائج ليقطعك عن خير أنت فيه.

وربما حبب إليك النقلة من بلد إلى بلد: يوهمك أن غير البلد الذى أنت فيه أفضل، ليشغل قلبك، ويعطل مقامك بما يعقبك الندم إذا أنت فعلته.

فاحترس من عدوك أشد الاحتراس وتحصن منه بالملجأ إلى الله، عز وجل، فإنه: أمنع الحصون، وأقوى الأركان! فاجعل الله تعالى: كهفك وملجأك، واحذر عدوك عند الغضب والحدة، فإنك، إن استقبلك فى هيج الغضب، ذكر الله تعالى، وعلمت أنه شاهدك، أطفأت بمراقبته نيران العز[1] وتوقد الحمية، وأجللت من قد علمت: أنه يراك من أن تحدث فى غضبك ما تستحق به غضبه، فإن الشيطان يغنم منك هيج الغضب وحمية الشهوة.

وأما حذرك إياه عند الحدة، فإنه يقال: إن الشيطان يقول: «إن الحديد من العباد لن نأيس منه، ولو كان يحي بدعائه الموتى، لأنه تأتى عليه ساعة يحتد، فنصير منه إلى ما نريد»[2].

«ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم»!

باب
الصدق فى الورع واستعمال التقية

فالصدق فى الورع: هو الخروج من كل شبهة، والترك لكل ما اشتبه عليك من الأمور.

فهكذا يروى عن النبى، ﷺ، أنه قال: «لا يكون العبد من المتقين حتى يدع مالا باس به مخافة ما به بأس».

(١) القوة. (٢) ولهذا، لما ذهب رجل إلى النبى ﷺ، فقال له: أوصنى، قال: لا تغضب. كرر ذلك ثلاثا.

قـال ﷺ: «الحلال بين والحرام بين، وبين ذلك أمور مشتبهات فمن ترك الشبهات مخافة أن يقع فى الحرام فقد استبرأ لعرضه»[١]

وقال ابن سيرين، رحمة الله عليه: ما فى دينى شئ أيسر من الورع: كل ما اشتبه على تركته.

وقال الفضيل، رحمه الله، يقول الناس: الورع شديد: دع ما يريبك إلا ما لا يريبك فخذ ما حل وطاب من الأشياء، وابذل المجهود فى طلب الشيء الصافى من الحلال.

لأن الله عز وجل، قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾[٢].

وقـال النبى ﷺ، لسعد، رضي الله عنه: «إن أردت أن يجيب الله تعالى دعاءك، فكل الحلال»[٣].

وقالت عائشة، رضى الله عنها: «يا رسول الله، من المؤمن؟ قال: من إذا أمسى نظر من أين قرصه»[٤].

باب
«الصدق فى الحلال الصافى، إذا وجدته، وكيف العمل به؟»

فالصدق فى الحلال -إذا وجدته-: أن تأخذ منه ما لا بدمنه على قدر معرفتك بنفسك، وما يقيم ميلها، ولا تحمل عليها فوق طاقتها فتنقطع ولا تصير معها إلى ما تهواه من السرف، ولكن خذ ما يقيمك بلا تقتير ولا سرف، فى الطعام، واللباس، والمسكن؛ واحذر الفضول مخافة الحساب وطول الوقوف.

---

(١) وفى رواية أخر: «الحلال بين. والحرام بين وبينهما أمور متشابهات لا يعلمها كثير من الناس. فمن اتقى الشبهات. فقد استبرأ لدينه وعرضه. ومن وقع فى الشبهات فقد وقع فى الحرام: كالراعى يرعى حول الحمى؛ يوشك أن يقع فيه؛ ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله: محارمه، ألا وإن فى الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله. ألا وهى القلب.

(٢) سورة المؤمنون: ١٥.

(٣) وفى حديث آخر: أن النبى ﷺ «ذكر الرجل يطيل السفر ويرفع يديه إلى السماء بالدعاء. يقول: يارب. ومأكلة حرام. وملبسه حرام. فأنى يستجاب له؟».

(٤) قرصه: رغيفه أى من أين أكله.

فهكذا يروى: أن رجلا قال لعلى بن أبى طالب، رضي الله عنه: « يا أبا الحسن، صف لنا الدنيا فقال: حلالها حساب، وحرامها عذاب أو عقاب».

فاذا كان العبد ضعيفا[١]، ثم ملك الشىء الطيب حبسه على نفسه وعلى من يمون[٢]، فأنفق منه بالمعروف مخافة أن يكون إذا أخرجه لم يصبر وجزع: فوقع فى ما هو أردى منه فكان فى حبسه إياه مزريا[٣] على نفسه من ادخاره، حين عدم من نفسه الثقة بالله تعالى، والسكون إليه دون الشىء، فيكون كذلك حتى يقوى عزمه.

قلت: فكيف ملك الأنبياء، عليهم السلام، الأموال والضياع، مثل: داود، وسليمان، وإبراهيم، وأيوب، ونظرائهم، ويوسف، عليه السلام على خزائن الأرض، ومحمد، صلى الله عليه وسلم، والصالحين من بعد؟

فقال: هذه مسئلة كبيرة، وفيها كثير؟

اعلم أن الأنبياء، عليهم السلام، والعلماء، والصالحين من بعدهم، رضي الله عنهم: أمناء الله تعالى، فى أرضه على سره، وعلى أمره، ونهيه، وعلمه، وموضع وديعته، والنصحاء له فى خلقه وبريته، وهم الذين عقلوا عن الله تعالى أمره ونهيه، وفهموا لماذا خلقهم وما أراد منهم، وإلى ماندبهم[٤] فوافقوه فى محبته، ونزلوا فى الأمور عند مشيئته، ثم وقفوا عند ذلك مواقف العبيد الألباء، القابلين عن الله، والحافظين لوصيته، وأصغوا إليه بآذان فهو مهم الواعية، وقلوبهم الطاهرة، ولم يتخلفوا عن ندبته[٥]، فسمعو الله، عز وجل، يقول:

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[٦].

ثم قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[٧].

وقال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[٨].

وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾

---

(١) ضعيف العزيمة والسكون إلى الله. (٢) يعول.
(٣) منكراً على نفسه فعلها إذا أطمانت إلى الشىء وعادمت الثقة بالله؛ ويستمر فى إنكارهعليها حتى يقوى عزمه.
(٤) دعاهم. (٥) دعوته.
(٦) سورة الحديد: ٧. (٧) سورة يونس: ١٤.
(٨) سورة البقرة: ٢٨٤.

فأيقن القوم: أنهم وأنفسهم لله تعالى، وكذلك ما خولهم وملكهم، فإنما هو له، غير أنهم فى دار اختبار وبلوى، وخلقوا للاختبار والبلوى فى هذه الدار.

وهكذا يروى عن بن الخطاب، رضي الله عنه، حين سمع:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ[1] لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾[2].

قال: ياليتها نمت؟! يعنى عمر، قبل قراءة: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾: فهمهم، يقال فى التفسير: عجز فى التلاء عجزاً[3].

ومعنى قول عمر رضي الله عنه: «ياليتها نمت» يعنى: لم يخلق، حين سمع الله تعالى، يقول: ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾.

وذلك من معرفة عمر، رضي الله عنه بواجب حق الله وقدر أمره ونهيه، وعجز العباد عن القيام به، وقيام الحجة لله، تعالى عليهم، عند تقصيرهم، وما تواعدهم به، إذا ضيعوا.

ويروى عن الحسن، رضي الله عنه أنه قال: «إن الله تعالى، إنما أهبط آدم، عليه السلام، إلى الدنيا عقوبة، وجعلها سجناً له، حين أخرجه من جواره، وصيره إلى دار التعب والاختبار».

فمن ملك –من أهل العمل عن الله تعالى، وأهل الصدق– شيئاً من الدنيا: فهو معتقد: أن الشئ لله عز وجل، لا له، إلا هو من طريق حق ما خوله[4] الله تعالى، وهو مبلى به، حتى يقوم بالحق فيه، لأن النعمة: بلاء حتى يقوم العبد بالشكر فيها، ويستعين بها على طاعة الله تعالى.

وكذلك البلوى والضراء: هو اختبار وبلاء، حتى يصير عليه، ويقوم بحق الله تعالى فيه.

وكذلك قال بعض الحكماء: العلم كله: بلاء حتى يعمل به، قال الله، عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾[5].

وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[6].

---

(١) وقت من الزمن.
(٢) سورة الدهر.
(٣) عجز عن مواصلة القراءة، وهو تفسير. لهمهم.
(٤) ماخوله: ما أعطاه.
(٥) سورة الملك.
(٦) سورة محمد: ٣١.

فالأنبياء، صلوات الله عليهم، والصالحون، من بعدهم، الذين أشعرهم الله: بأن أبلاهم فى الدنيا بالسعة، وخولهم: كانوا إلى الله، عز وجل، ساكنين، لا إلى الشئ، وكانوا: خزاناً لله، جل ذكره، فى الشئ الذى ملكهم: ينفذونه فى حقوق الله تعالى، غير مقصرين، ولا مفرطين، ولا متوانين، ولا متأولين على الله التأويل، وكانوا غير متلذذين بما ملكوا، ولا مشغولى القلوب بما ملكوا، ولا مستأثرين به دون عباد الله، تعالى.

ومن ذلك ما روى عن سليمان بن داود، عليهما السلام فى ملكه، وما أباحه الله، تعالى من الكرامة، حين يقول، تعالى:

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]

قال أهل التفسير: لا حساب عليك فى الآخرة، وإنما كان عطاء هيناً إكراماً من الله، عز وجل له.

فذكر العلماء: أن سليمان، عليه السلام: «كان يطعم الأضياف الحوارى[2] النقى، ويطعم عياله الخشكار[3]؛ ويأكل هو الشعير».

وكذلك روى العلماء: أن إبراهيم الخليل، صلوات الله عليه: «كان لا يأكل إلا مع الضيف، فربما لا يأتيه ثلاثة أيام الضيف فيطويها، وربما كان يمشى الفرسخ[4]، أو أقل أو أكثر، تلقياً للضيف».

قال: «وكان أيوب النبى، ﷺ، لا يسمع أحداً يحلف بالله، تعالى، إلا رجع إلى منزله فكفر عنه»[5].

وروى العلماء: أن يوسف، عليه السلام: كان على خزائن الأرض فكان لا يشبع، فقيل له فى ذلك، فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجياع»

ولقد روى: أن سليمان، عليه السلام: «بينما هو ذات يوم، والريح تحمله، والطير تظله، والجن والإنس معه، وعليه قميص جديد، فلصق ببدنه، فوجد اللذة، فسكنت الريح ووضعته على الأرض.

---

(١) سورة ص: ٣٩.
(٢) الحوارى: لباب البر وخالص الدقيق.
(٣) الخشكار: خشن الدقيق.
(٤) الفرسخ: ثلاثة أميال.
(٥) خشية أن يكون قد حنث فى يمينه وشفقة عليه.

فقال لها: مالك؟

قالت: إنما أمرنا أن نطيعك ما أطعت الله.

«ففكر فى نفسه: من أين أتى؟ فذكر، فراجع، فحملته الريح».

ولقد روى: «أن الريح كانت تضعه فى اليوم مرات، من هذا وأشباهه!!».

فالقوم: كانوا خارجين من ملكهم فى ملكهم، ناعمين بذكر الله وعبادته، غير ساكنين إلى ما ملكوا، لا يستوحشون من فقده إن فقدوه ولا يفرحون بالشىء، ولا يحتاجون إلى العلاج والمجاهدة فى إخراجه.

قال الله، تعالى، للنبى، ﷺ: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِى﴾(١).

وهذا النبى ﷺ: (بينما جبريل، عليه السلام، عنده، إذ تغير جبريل، فإذا ملك قد نزل من السماء لم ينزل قط، فقال جبريل عليه السلام: خشيت أنه نزل فى بأمر، فجاء إلى النبى، ﷺ بالسلام من عند الله عز وجل، وقال له: هذه مفاتيح خزائن الأرض، تسير معك ذهباً وفضة، مع البقاء فيها إلى يوم القيامة، ولا تنقصك مما لك عند الله شيئاً، فلم يختر النبى، ﷺ، ذلك، وقال: أجوع مرة وأشبع مرة)(٢).

وعد ذلك من الله، عز وجل، بلوى واختباراً، ولم يره من الله، تعالى، اختياراً، ولو كان من الله، تعالى، اختياراً: لقبله، ولكنه علم أن محبة الله، تعالى: فى الترك للدنيا والإعراض عن زينتها وبهجتها.

وبذلك أدبه الله، تعالى. حين قال تعالى: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾(٣).

ويروى عنه، ﷺ: (أنه لبس حلة لها علم، فطرحها، وقال: كادت تلهين أعلامها -أو قال ألهتنى أعلامها- خذوها وأتونى بأنبجانية).

وكذلك روى: (أنه صنع له خاتم ذهب ليختم به الكتب، إلى من أمره الله تعالى بإنذاره، فلبسه، ثم طرحه من يده، وقال لأصحابه: إليه نظرة وإليكم نظرة).

---

(١) سورة الأنعام: ٩٠.

(٢) وجاء فى الأحاديث: «خيرت بين أن أكون ملكا رسولا أو عبداً رسولا فاخترت: أن أكون عبداً رسولا»، وفى حديث آخر، وأمتنى مسكيناً فى دعاء النبى ﷺ «اللهم أحينى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين».

(٣) سورة طه: ١٣٠.

وكــذلك روى: (أنـه) ﷺ، غير شراك نعله، فجعل مكانه جديداً فقال: ردوا الشراك الأول).

وكذلك: كل قلب طاهرٍ صاف، قد أشرف على الآخرة، وعرف قيام الله تعالى، عليه: يفزع من خفايا السكون إلى الدنيا والتحلى بشئ منها.

ومثل هذا فى الأخبار كثير، والعاقل الفطن تكفيه الإشارة إليه بالشئ.

وهذا: أصحاب محمد، ﷺ، حين حثهم على الصدقة، جاء أبو بكر بماله كله، لأنه كان أقوى القوم، فقال له النبى، ﷺ: ما خلفت لعيالك؟

قال: الله ورسوله، ولى عند الله مزيد.

أفلا ترى أبا بكر، رضي الله عنه، إنما كان سكوناً إلى الله، تعالى لا إلى الشىء، ولم يكن لشىء عنده قدر، وكان ما عند الله عنده أسر؟!

فحين رأى موضع الحق لم يخلف منه شيئاً، وقال: خلفت الله ورسوله.

ثم جاء عمر، رضي الله عنه، بنصف ماله، فقال النبى، ﷺ: ما خلفت لعيالك؟

قال: نصف مالى، ولله عندى مزيد.

فقد أعطى نصف ماله، ويقول: ولله عندى.

ثم عثمان، رضي الله عنه، يجهز جيش العسرة كله بجميع ما يحتاج إليه، ويحفر بئر رومة.

أفلا ترى: أن القوم، إنما كانوا معدين الشئ لله تعالى؟!

ومما يدل على صدق قولنا: أن القوم كانوا خارجين مما ملكوا وهو فى أيديهم، يعدونه لله عز وجل.

وقد روى عن النبى، ﷺ: أنه قال: (إنا معاشر الأنبياء لا نورث، وما خلفناه صدقة).

أفلا ترى أنهم فى حياتهم: لم يضنوا بالشئ عن الله، عز وجل؟! وكذلك لم يورثوه، وخلفوه لله، عز وجل، كما كان فى أيديهم لله، تعالى، لم يحدثوا فيه، ولم يخولوه من بعدهم أحداً.

وإن هذا: لبلاغ لمن عقل عن الله تعالى وأنصف من نفسه.

وهذا: أئمة الهدى بعد رسول الله، ﷺ: أبو بكر، رضي الله عنه، حين ملك الأمر، وجاءته الدنيا راغمة من حلها، لم يرفع بها رأساً، ولم يتصنع، وكان عليه كساء يخلله[1]، وكان يدعى: ذا الخلالين.

(١) يخيط ما به من خلل وشق.

وهذا: عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حين جاءته الدنيا راغمة، من حلها، وكان طعامه: الخبز والزيت، وفى ثوبه بضع عشرة رقعة: بعضها من آدم، وقد فتحت عليه كنوز كسرى وقيصر.

وهذا عثمان، رضي الله عنه، كأنه واحد من عبيده، فى اللباس والزى!!

ولقد روى عنه: أنه رؤى خارجاً من بستان له، وعلى عنقه حزمة من حطب، فقيل له فى ذلك، فقال:

أردت أن أنظر نفسى: هل تأبى؟

أفلا ترى: أنه كان غير غافل عن نفسه، وتعاهدها ورياضتها؟

وهذا: على بن أبى طالب، رضي الله عنه، فى الخلافة، قد اشترى إزاراً بأربعة دراهم، واشترى قميصاً بخمسة دراهم، فكان فى كمه طول، فتقدم إلى خراز[1]، فأخذ الشفرة، فقطع الكم مع أطراف أصابعه، وهو يفرق الدنيا يمنة ويسرة!

وهذا الزبير، رضي الله عنه، يخلف، حين مات، من الدين مائتى ألف أو أكثر، كل ذلك من الجود والسخاء والبذل!

وهذا طلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه، يعطى حلى أهله لمن سأله!!

فهذا: يدل على أن القوم كانوا، كما قال الله عز وجل، حين أمرهم، فقال: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[2].

ولا يستحي عبد من عبيد الله من أهل زماننا هذا، عندما ملك من الشبهات التى علم الله، تعالى، كيف هى، ومن أين هى، وكيف قدرها فى قلبه، وإيثاره لها، وسكونه إليها دون الله، عز وجل، وما لا يحصى من عيبه، فى تقلبه فى ذلك واشتغاله بذلك؟

حتى أن أحدهم ليزعم: أنه يملك كما ملك من مضى، ويحتج بهم فى اتباع هواه مع إقامته على خلاف سنة القوم.

بل الاعتراف لله، تعالى، بالتقصير من العبد الغافل: أقرب إلى النجاة وسؤاله الله عز وجل: أن يبلغه ما بلغ بالقوم.

وبالله التوفيق!

(١) خياط. (٢) سورة الحديد: ٧.

باب
الصدق فى الزهد، وكيف هو؟ وما هو؟

ولقد فضح الله تعالى، الدنيا، وسماها بأسماء لم يسمها أحد.

فقال تبارك وتعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾[1].

أفلا يستحي من يعقل عن الله تعالى أن يراه ساكناً إلى اللهو، واللعب فى دار الغرور.

قلت: الدنيا فى نفسها، ماهى؟

قال: اتفق البصراء من الحكماء على أن الدنيا: هى النفس وما هويت.

والحجة فى ذلك: أن الله عز وجل، قال: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[2].

فهذه الأمور التى ذكرها الله، عز وجل، هى: من هوى النفس ولذتها وبها تلهو عن الآخرة وذكرها.

فإذا ترك العبد ما تهواه النفس ترك الدنيا.

ألا ترى: أن العبد قد يكون فقيراً لا شئ له، وهو يتمنى الدنيا، ويهوى مجناها، وينوى أن لو أمكنه منها ما يريد، لتمتع بذلك ونال لذته؟

فهو عند الله، تعالى، من الراغبين على قدر همته[3]، إلا أنه أقل حساباً ممن نالها واستمتع بها.

فأول درجات الزهد: هو الزهد فى اتباع هوى النفس، فإذا هانت على المرء نفسه: لم يبال على أى حال أمسى وأصبح، إذا وافق محبة الله، تعالى، عند ذلك، على مخالفة

(١) سورة الحديد: ٢٠.

(٢) سورة آل عمران: ١٤.

(٣) عزيمته.

نفسه، ومنعها من محبوبها، من الشهوات واللذات والراحات، ومقارنة الأحياء والأخدان والأصحاب من أهله الغفلة ومن كان منهم غوياً على الأمر الذى يريده العبد، فإن آفة العبد، صحبة من يريد ما يريد.

ثم أخذ البلغة: من الطعام، والشراب، واللباس، والمنزل، والنوم، والكلام، والنطق، والاستماع، وترك التمنى لشئ من الدنيا، والحذر من تحليها.

لأن النبى، ﷺ، قال: «الدنيا خضرة حلوة».

فيتوهم العبد فناءها، فيقصر فيها أمله، مع توقع الموت، والتشوق[1] إلى الآخرة، والشوق إلى النزول فى دار بقائها، والعمل فى ذلك!

ولذلك يخلع للراحة من القلب: بدوام الفكرة، ومن البدن، بدوام الخدمة.

فهذا أول درجات الزهد.

وقال سفيان الثورى، رحمه الله تعالى، ووكيع بن الجراح، وأحمد ابن حنبل، وغيرهم، رحمهم الله تعالى، إن الزهد فى الدنيا، قصر الآمال.

وهذا يدل على ما قالت الحكماء، لأنه من قصر أمله: لم ينعم، وكانت الغفلة منه بعيدة.

وقالت طائفة من الناس: «الزاهد فى الدنيا: هو الراغب فى الآخرة، الذى قد جعلها نصب عينه، كأنه يرى عقبها وثوابها، فهو عازف عن الدنيا».

وهكذا يروى أن النبى ﷺ، قال لحارثة: «كيف أصبحت يا حارثة؟».

قال مؤمناً حقاً يارسول الله».

فقال النبى، ﷺ،: «وما حقيقة إيمانك؟».

قال «عزفت نفسى عن الدنيا، فأظمأت لذلك نهارى، وأسهرت ليلى، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتناعمون، وإلى أهل النار يتعاوون.

فقال النبى، ﷺ،: «مؤمن نور الله قلبه، عرفت فالزم»

---

(١) الطموح ببصره إليها (التطلع إليها).

وقال بعض العلماء: الزهد: خروج قيمة الأشياء من القلب.

والزهد فى الدنيا: يدق جداً ويخفى، ولكل عبد على قدر علمه بالله، تعالى، زهد:

فمن نفى الرغبة فى الدنيا عن قلبه شيئاً بعد شئ، يرى غاية الزهد، ومن توانى عن نفسه، ولم يخالفها عند هواها: لم يعزف عن الدنيا، ولم يشرف على الآخرة.

قال بعض العلماء: الزاهد فى الدنيا حقاً: لا يذم الدنيا، ولا يمدحها، ولا يفرح بها إذا أقبلت، ولا يحزن عليها إذا أدبرت[١].

قال أبو سعيد، رحمه الله تعالى، :قال بعض البدلاء، رحمهم الله تعالى لا يكون زاهداً مستكمل الزهد، أو يستوى عنده الحجارة والذهب، ولا يستوى الحجارة والذهب حتى يكون معه من الله، تعالى، آية فتحول الحجارة ذهباً، فعندها تخرج قيمه الأشياء من قلبه.

وسمعته يقول: لم يستو الحجارة والذهب، عند أحد من الصحابة، رضى الله عنهم، بعد رسول الله، ﷺ، إلا عند أبى بكر رضي الله عنه!

قلت: فعلى أى معنى زهد الزاهدون؟!

قال: على معان شتى:

فمنهم: من زهد لفراغ القلب من الشغل، وجعل همه كله فى طاعة الله تعالى، وذكره، وخدمته، فكفاه الله عند ذلك.

فهكذا: روى عن النبى، ﷺ، أنه قال: «من جعل الهم[٢] هما واحداً كفاه الله سائر همومه».

وقال عيسى، عليه السلام: «بحق أقول لكم: إن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وفى المال داء كبير».

قالوا: ياروح الله، ما داؤه!

قال: لا يعطى حقه.

---

(١) ومن ذلك قوله تعالى: «لكى لا تأسو على ما فاتكم ولا تفرحو بما آتاكم» الحديد: ٢٣.

(٢) من جعل إلى اتجاهه الله فحسب، أو إلى التقوى فحسب، كفاه الله جميع مشاكله الاخرى.

قالوا: فإن أعطى حقه.

قال: يكون فيه فخر وخيلاء.

قال: فان لم يكن فيه فخر ولا خيلاء.

قال: يشغله استصلاحه عن ذكر الله.

ومنهم من زهد لخفة الظهر، وسرعة الممر على الصراط، إذا حبس أصحاب الأثقال للسؤال.

فهكذا روى عن النبى، ﷺ، أنه قال: «عرض على أصحابى، ففقدت عبد الرحمن بن عوف –أو قال إحتبس على– فقلت: ما بطأك على؟

قال: لم أزل أحاسب بعدل[١] مكثرة مالى، حتى جرى منى من العرق مالو وردت عليه سبعون من الإبل عطاشاً، قد أكلت حمضاً[٢] لصدرت[٣] عنه رواء!»

وروى عن النبى، ﷺ، من غير طريق أنه قال: «الأكثرون هم: الأقلون يوم القيامة، إلا من قال بالمال: هكذا وهكذا، عن يمينه وعن شماله، ومن بين يديه ومن خلفه، بين عباد الله».

قال، ﷺ: «مامن غنى ولا فقير إلا ود يوم القيامة أن الله، تعالى، كان جعل رزقة فى الدنيا[٤] قوتاً».

وروى أبو ذر عن النبى، ﷺ أنه قال: «ما يسرنى: أن لى مثل أحد ذهباً، أنفقه فى سبيل الله تعالى، تأتى على ثالثة، يكون منه عندى شئ، إلا دينار أرصده لدين».

ومنهم: من زهد رغبة فى الجنة، وإشتياقاً إليها، فسلى عن الدنيا وعن لذاتها، حتى طال به الشوق إلى ثواب الله، تعالى الذى دعاه إليه، ووصفه له، عز وجل[٥]

(١) العدل: الذى يعادل فى الوزن والقدر. (٢) نبت فيه ملوحة.

(٣) عادت ورجعت.

(٤) وفى ذلك أيضاً قال، ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا» وقال، ﷺ «اللهم أحينى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين».

(٥) وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ الانفال: ٦٧.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ النازعات.

وروى فى الحديث: أن الله جل ذكره يقول: «وأما الزاهدون فى الدنيا: فإنى أبيحهم الجنه».

وقال بعض العلماء: لا تحسن قراءة إلا بزهد!

وأعلى درجات الذين زهدوا فى الدنيا: هم الذين وافقوا الله، تعالى، فى محبته، فكانوا عبيداً عقلاء عن الله، عز وجل، أكياساً، محبين، سمعوا الله، جل ذكره: ذم الدنيا، ووضع من قدرها، ولم يرضها داراً لأوليائه إستحيوا من الله، عز وجل، أن يراهم راكنين إلى شئ ذمه ولم يرضه، وجعلوا ذلك على أنفسهم فرضاً، لم يبتغوا عليه من الله عز وجل، جزاء، ولكن وافقوا الله فى محبته[١] كرماً، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

فأهل الموافقة لله تعالى فى الأمور: هم أعقل العبيد، وأرفعهم عند الله قدراً.

وهكذا روى أبى الدرداء، رضي الله عنه، أنه قال: «يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم !! كيف غنموا سهر الحمقى وصيامهم؟! ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين: أوزن عند الله من أمثال الجبال من أعمال المغترين[٢]».

وفى هذا بلاغ لمن عقل عن الله، عز وجل

وبالله التوفيق.

وروى عن عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه: أنه نظر إلى شاب مصفر فقال له: «ما هذا الصفار يا غلام؟».

قال: اسقام وأمراض يا أمير المؤمنين!

قال: لتصدقنى!

قال: أسقام وأمراض.

قال: لتخبرنى!

---

(١) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ البينة:٨.

(٢) ومن ذلك قوله، (ص٩: «الله فى أصحابى، فوالله لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

قال: يا أمير المؤمنين، عزفت نفسى عن الدنيا: فاستوى عندى حجرها وذهبها، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يتزاورون، وأهل النار فى النار يتعاوون[١]!

فقال له عمر: أنى لك هذا يا غلام؟

قال: إتق الله يفرغ عليك العلم إفراغاً[٢].

إنه لما قصر بنا عن علم ما عملنا تركنا العمل بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما علمنا لورثنا علماً لا تقوم له أبداننا[٣]

وروى عن أبى بكر الصديق، رضي الله عنه: أنه استسقى، فأتى بإناء فلما قربه إلى فيه وذاقه نحاه، ثم بكى، فقيل له فى ذلك.

فقال: «رأيت رسول الله ﷺ، ذات يوم وهو يدفع بيديه كأن شيئاً يقع ولا أرى شيئاً، فقلت: يارسول الله، أراك تدفع بيديك ولا أرى شيئاً!! فقال: نعم تلك الدنيا تمثلت لى فى زينتها، فقلت: إليك عنى[٤]! فقالت: «إن تنج منى فلن ينجو منى من بعدك»

قال أبو بكر رضي الله عنه: «فأخاف أن تكون قد أدركتنى».

قال: «وكان فى الإناء الذى شرب أبو بكر، رضي الله عنه، منه: ماء وعسل؛ فبكى إشفاقاً من ذلك».

ويروى فى بعض الحديث: أن أصحاب محمد، ﷺ: لم يأكلو تلذذاً، ولم يلبسوا تنعما[٥].

---

(١) ومن ذلك قوله، ﷺ: «أطت السماء وحق لها أن تئط، لم يبق فيها موضع أربع أصابع إلا وملك ساجد لله، تعالى، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى».

(٢) ومن ذلك قوله تعالى: «واتقوا الله ويعلمكم الله» وقوله تعالى: «ومن يؤمن بالله يهد قلبه» والآيات كثيرة جداً فى هذا الباب.

(٣) ومن ذلك قوله، ﷺ: «من عمل بما علم: ورثه الله علم ما لم يعلم».

(٤) عملا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ طه: ١٣١.

(٥) لأن ذلك شأن الكافرين، واسمع قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ محمد: ١٢.

وفى رواية: «أن أصحاب محمد، ﷺ، الذين اتسعوا فى الدنيا من بعده -حين فتحت عليهم من حلها- أنهم بكوا من ذلك، وأشفقوا، وقالوا: نخاف أن تكون عجلت لنا حسناتنا».

فليتق الله عبد، ولينصف من نفسه، وليلزم منهاج من مضى، وليعترف بالتقصير، ويسأل الله الإقالة!

باب
الصدق فى التوكل على الله عز وجل

قال الله عز وجل: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

وقال تعالى: ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾

وروى عن النبى، ﷺ، أنه قال: «يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفاً بغير حساب، وهم: الذين لا يتطيرون، ولا يكتوون ولا يسترقون، وعلى ربهم يتوكلون».

وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه عن النبى، ﷺ «لو توكلتم على الله حق توكله: لرزقكم كما يرزق الطير: تغدو خماصاً[1] وتروح بطاناً».

وقال عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه: «العز والغنا: يجولان فى صلب التوكل، فإذا أصاباه أوطنا».

فالتوكل -فى نفسه وموجوده فى القلب-: هو التصديق لله، عز وجل، والاعتماد عليه، والسكون إليه، والطمأنينة إليه فى كل ما ضمن وإخراج الهم من القلب بأمور الدنيا والرزق، وكل أمر تكفل الله به، والعلم بأن كل ما احتاج إليه العبد من أمر الدنيا والآخرة: فالله مالكه والقائم به، لا يوصله إليه غيره، ولا يمنعه غيره مع خروج الرغبة والرهبة

(١) جياعاً.

والخوف من القلب ممن سوى الله، تعالى والثقة به والعلم الخالص، واليقين الثابت: أن يد الله المبسوطه إليه، الموفية له من كل ما طلب؛ فلا يصل إليه معروف إلا من بعد أمره، ولا يناله مكروه إلا من بعد إذنه!

وهكذا روى عن الفضيل، أنه قال: المتوكل على الله، الواثق به: لا يتهمه، ولا يخلف خذلانه.

وكذلك المتوكل على الله: إذا ملكه الله تعالى شيئاً من أمر الدنيا وفضل عنده، لم يدخره لغد إلا بالنية أن الشىء إنما هو لله، وموقوف لحقوق الله وهو خازن من خزان الله، فإذا رأى موضع الحاجة سارع إلى الإخراج والبذل والمؤاساة، وكان فى الذى يملك وإخوانه سواء.

وإنما يجب ذلك عليه لأهل الستر خاصة، والقرابة، وأهل التقوى، ثم لعام المسلمين، إذا رآهم على حال ضرورة غير نقص حالهم.

وروى عن النبى، ﷺ، أنه قال: (ليس الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال، ولا بإضاعة المال، ولكن الزهد فى الدنيـــا: أن تكون بما فى يد الله أو ثق منك بما فى يدك (وإذا أصابتك مصيبة كنت بثوابها: أفرح منك بها لو بقيت عنك).

وقال بلال، رضي الله عنه: (جئت إلى النبى ﷺ، ومعى تمر فقال: ما هذا؟

فقلت: شىء ادخرته لإفطارك.

فقال: (أنفق بلال، ولا تخش من ذى العرش إقلالا، أما خشيت أن يكون له بخار فى جهنم؟!).

ويروى عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: «إنى لست كأسماء -يعنى أختها- إن أسماء لا ترفع شيئاً لغد، وأنا أجمع الشىء إلى الشىء».

وروى عن عائشة أيضاً، رضى الله عنها: «أنها فرقت الدراهم، وهى ترقع درعها، فقالت لها خادمتها: ألا أبقيت درهما للحم؟ قالت: أفلا ذكرتنى!».

وروت عائشة، رضى الله عنها، عن النبى، ﷺ: أنه بات فى مرضه الذى قبض فيه شبيهاً بالقلق، فلما أصبح قال: ما فعلت الذهيبة؟ -وكان قيمتها ستة وخمسين درهما- فقال: أخرجيها، فما ظن محمد بربه لو لقيه وهذه عنده؟!».

وروى عن مسروق، رحمه الله عليه، أنه قال: «أوثق ما أكون بالله إذا قال الخادم: ليس عندنا شيء».

قلت: فالتوكل على الله تعالى: بالأسباب أو بقطع الأسباب؟

قال: بقطع أكثر الأسباب، وتتخطى إلى المسبب، فتسكن إليه[١].

قلت: وهل يتداوى المتوكل، أو يتعالج؟

قال: الأمر فى هذا على معان ثلاثة: وقد خص تبارك وتعالى بترك الدواء والأسباب طائفة، لقول النبى، ﷺ: «يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفاً بلا حساب، وهم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، وعلى ربهم يتوكلون!».

وقال النبى، ﷺ: «ما توكل من اكتوى واسترقى!».

وقال، ﷺ: «من ردته الطيرة فقد قارن الشرك».

وقد أمر النبى، ﷺ، بالدواء، الرقى، وأمر بالرقية، وقطع لأبى بن كعب، رضي الله عنه، عرقاً.

فهذا على معانى قول المغيرة بن شعبة: لم يتوكل من اكتوى واسترقى: من هؤلاء السبعين ألفاً، الذين خصهم النبى، ﷺ، كذلك فسره بعض العلماء.

وما كان سوى ذلك ذلك: فمباح لهم من سائر الناس، وهو غير ناقص من توكلهم، إذا كان معهم العلم والمعرفة، وكان نظرهم إلى رب الداء والدواء، إن شاء أن ينفع بالدواء، وإن شاء أن يضر.

وقد يطلب شفاءه بالدواء فيكون فيه سقمه، وقد مات غير إنسان من الدواء، وقطع العرق، ولما طلب الشفاء، وقد يرجو منفعته فى الشىء فتكون فيه مضرته، وقد يخاف الضرر من شى، فتكون فيه المنفعة.

فالصاد: واثق متوكل على ربه، فإنما توكل عليه، حين علم أنه حسبه من جميع خلقه، فلم يجد فقد شىء منعه الله، لأن الله حسبه، وهو بالغ أمره.

---

(١) وفى ذلك يقول الله، تعالى: «أليس الله بكاف عبده؟».

قلت: فمن قال، أتوكل على الله لأكفى؟

قال: لا يخلو هذا القول من معنيين:

معنى: أن يكفيه مؤنة الجزع والهلع، لا أنه يتحول عنه شىء قد قدره الله عليه أن ينزل به، بالتوكل.

فهذا: قولنا وقول من أثبت القدر.

ومن قال: إنه يكفيه ما استكفاه لا محالة مثل قوله: يأكلنى السبع لتوكلى، والذى يأتينى بطلب يأتينى بلا طلب، فالتوكل يدفع عنى إذا استكفيته كل مؤنة كنت أخافها، فليس يعجبنا هذا القول، لأن المتوكل: قد يكفى وقد لا يكفى وتوكله غير ناقص.

قلت: مثل ماذا؟ إشرح لى من ذلك شيئاً.

قال: نعم، حيث ذبحت يحي بن زكريا: امرأة جبارة فى طشت، ألم يكن متوكلا؟!

وحين نشر زكريا، صلوات الله عليه، بالمنشار ألم يكن متوكلا؟!

وكذلك الأنبياء، عليهم السلام، قتلوا ونيل منهم المكروه، وهم أقوى الخلق يقيناً وأصدقه.

وهذا محمد، ﷺ، حين هرب إلى الغار هو وأبو بكر، رضي الله عنه، فاختبأوا فيه، وحين كسر المشركون رباعيته، ﷺ، وأدموا وجهه ألم يكن متوكلا؟

أفلا ترى أن التوكل إنما هو: الاعتماد على الله، عز وجل، والسكون إليه، ثم التسليم بعد ذلك لأمره، يفعل ما يشاء؟!

وهكذا: روى عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه «من يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره قال: قاض أمره: «قد جعل الله لكل شىء قدراً».

قال: أجلا ومنتهى ينتهى إليه العبد، وليس المتوكل بالذى يقول: تقضى حاجتى».

فهذا تفسير ابن مسعود، رضي الله عنه: يخبر أن المتوكل على الله: هو الذى يلجأ إلى الله، تعالى، ويعلم: أنه لا يتم شىء إلا من قبل الله، تعالى، الذى يعطى ويمنع بقدرته.

فالمتوكل على الله تعالى: لا يستوحش فى حالة المنع، ولا يستجلب بالتوكل الإعطاء لأن الحرص: لا يعطى ولا يمنع، والله، عز وجل: مانع ومعطى.

وقد يعطى العبد الشىء بلا توكل، ويمنع وهو متوكل.

فقد يرى المجوسى، والكافر، والجاحد، والفاجر، المضيع لأمر الله عز وجل، الذى لا صدق له ولا يقين، فقد يرى هازلون: يكفرون، وتقضى لهم الحوائج، والمتوكل الصادق الموقن: لا تقضى له حاجة، حتى يموت ضراء وهزلاء!

وإنما التوكل: ترك السكون إلى أسباب الدنيا، ونفى الطمع من المخلوقين، والإياس منهم، حين علم المتوكل: أنه صائر إلى المعلوم، فرضى بالله، تعالى، وعلم أنه لا يدرك بالتوكل: تعجيل ما أخر الله، تعالى، ولا تأخير ماعجل، ولكنه اكتسب إسقاط الهلع والجزع، واستراح من عذاب الحرص، وراضى نفسه بأدب العلم والمعرفة واقل: ما قدر سيكون، وما يكون فهو آت.

وكذلك قال بعض الحكماء: انتقم من حرصك بالقنوع، كما تنتقم من عدوك بالقصاص.

وقال بعض الصحابة، رضوان الله عليهم: «دخلت على النبى، ﷺ، وفى البيت تمرة غابرة فقال: خذها، لو لم تأتها لأتتك!».

حدثنا محمد بن يعقوب، قال: حدثنا أحمد بن حنبل، قال حدثنا مروان بن معاوية قال: حدثنا المعلى، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: «أهدى إلى النبى، ﷺ طوائر، فأطعم خادماً طائراً فلما كان من الغد أتيته به فقال: ألم أنهك أن تخبأ رزقاً لغد؟».

فهذا مالا يسع الناس جهله من التوكل، وغاية التوكل: أجل من ذلك.

باب
الصدق فى الخوف من الله، عز وجل

قال الله، تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾(١) ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾.

---

(١) سورة البقرة: ٤٠، ٤١.

وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾.

وقال النبى، ﷺ: «خف الله كأنك تراه».

قال ذلك لابن عباس رضي الله عنه.

فالذى يهيج الخوف حتى يكسكن القلب: هو دوام المراقبة لله عز وجل فى السر والعلانية، وذلك لعلمك بأن الله، تعالى، يراك ولا يخفى عليه شىء من حركاتك ظاهراً وباطناً.

فعند ذلك يحل مقامه عليك فى كل حركة ظاهرة وباطنة، وتحذر أن يرى بقلبك شيئاً مما لا يحبه ولا يرضاه بالوقوف منك على همك، إذا كان يعلم ما فى نفسك.

فمن ألزم قلبه فى الحركات كلها: أن الله، تعالى، يراه: رجع عن كل ما يكره بعون الله، فطهر قلبه واستنار، وسكنه الخوف ودام حذره من الله، فكان مشفقاً فى جميع الأحوال، وعظم أمر الله، تعالى، فى قلبه[٤]، فلم تأخذه فى الله لومة لائم، وقل وصغر من دون الله فى عينه ممن ضيع أمرالله.

وذكر الخوف يطول، وهذه الأصول التى من استعملها تؤديه إلى الحقائق.

فهذا ظاهر الخوف وما بقى من صفته أكثر.

باب
الصدق فى الحياء من الله، عز وجل

يروى عن النبى، ﷺ، أنه قال: «الحياء: من الإيمان».

---

(١) سورة النحل: ٥٠. (٢) سورة فاطر: ٢٨. (٣) سورة يونس: ٦١.

(٤) ومن ذلك: قوله تعالى؛ حكاية عن خوف المؤمنين: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ الطور: ٢٦.

وروى عنه، ﷺ، أنه قال: الحياء: خير كله».

وقـال، ﷺ، «استحيوا من الله حق الحياء، ومن استحيا من الله حق الحياء، فليحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، وليذكر المقابر والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا».

وقال النبى ﷺ: «استح من الله كما تستحى من رجل صالح من قومك»[١].

وقال رجل يارسول الله: (ما نبدى من عوراتنا وما نذر؟

قالاسترعوتك إلا من أهلك وماملكت يمينك.

قال: فأحدنا يكون خاليا.

قال: فالله أحق أن يستحى منه.

وكـان أبو بكر، رضي الله عنه، إذا ذهب إلى الخلاء يغطى رأسه ويقول: (إنى لأستحى من ربى).

وهذه أخبار تدل كلها على قرب الله، عز وجل من القوم لأن المستحى من الله، تعالى يرى اطلاع الله، تعالى، عليه ومشاهدته له فى جميع الأحوال.

قلت: فما الذى يهيج الحياء؟

قال: ثلاث خصال:

(الأول تفكيرك فى:)

دوام إحسان الله، تعالى، إليك مع تضييع الشكر منك، ومع دوام إساءتك وتفريطك.

والثانية: أن تعلم أنك بعين الله، عز وجل، فى منقلبك ومثواك.

والثالثة: ذكرك لوقوفك بين يدى الله، عز وجل، ومساءلته إياك عن الصغير والكبير.

قلت: فما الذى يشيد الحياء ويقويه؟

قـال: (الخوف لله، عز وجل، عند الهوى الخاطر الواقع فى القلب! فيفزع القلب، ويستوحش عندما يعلم أن الله، تعالى يرى مافيه فيثبت الحياء من الله[٢]، فإذا دام على ذلك زاد الحياء وقوى).

---

(١) هذا؛ مثل تقريبى، وإلا فالله أكبر، فالاستحياء منه يجب أن يكون على قدره، ومع هذا ما أحد قدر الله حق قدره، لأنه لا يحيط بقدره حقيقة إلا هو.

(١) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ الأعراف: ٢٠١.

قلت: فالذى يولد الحياء ما هو؟

قال: الفزع من أن يكون الله، تعالى، عنه معرضاً وله ماقتاً، ولفعله غير راض.

قلت: فما الغالب على قلب المستحى من ربه؟

قال: إجلال رؤية من يراه، فحينئذ يهاب الله، عز وجل ويستحى منه.

قال أبو سعيد، رحمه الله تعالى: سمعت بعض المريدين سأل بعض أهل المعرفة.

قال: ما علامة هيبة الله فى قلب العارف بالله؟

قال: إذا استوى عنده الأفعى والذباب.

قلت: فيم يضعف الحياء؟

قال: بترك المحاسبة وترك الورع.

قلت: فكيف أحوال المستحى فى نفسه؟

قال: طول الخشوع وداوم الإخبات[١]، وتنكس الرأس، وإنحصار الطرف، وقلة النظر إلى السماء وكلال اللسان عن كثير من الكلام، والفزع من التكشف فى الخلاء، وترك العبث والضحك، والحياء عند إتيان ما أباحه الله، فكيف يذكر عارض، مما نهى الله، تعالى عنه؟

والناس يتفاوتون فى الحياء على قدر قرب الله، تعالى، وقربهم منه.

باب
الصدق فى معرفة نعم الله، تعالى، والشكر له

قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[١].

(١) خضوع القلب.

(٢) سورة الإسراء: ٧٠.

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾(١)

وقال: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾(٢)

فإذا أفاق العبد من الغفلة، فكر ونظر إلى نعم الله، تعالى، عليه وتكاملها قديماً وحديثاً.

فأما نعمه القديمة: فذكره لك قبل أن تك شيئاً، وما خصك به من توحيده، والإيمان به، والمعرفة له، فأجرى باسمك القلم فى اللوح المحفوظ مسلماً؛ ثم أهلك القرون السالفة، وجعلك فى شرذمة من المؤمنين ناجية، حتى أخرجك فى خير أمة، وأكرم دين، ومن أمة حبيبه: محمد، ﷺ، ثم هداك للسنة، واستعملك بالشريعة وباعدك من الزيغ والأهواء، ثم رباك، وكلأك، وغذاك، حتى وجبت عليك الأحكام.

فأغفلت نعمته،وفرطت فى حفظ وصيته، وركبت هواك من عمرك حينا، وفى كل ذاك لا يكافئك بإساءتك، بل يسترك، ويحلم عنك، وينظرك.

ثم عطف عليك بعد ذلك، بعد ما كنت شروداً فأيقظك من الغفلة، وعرفك ما فاتك من طاعتك، فوهب لك الإنابة إليه، وأجلسك على طيب مرضاته.

فوجب عليك الآن شكر بعد شكر !! فأى نعماه تحصى، وعلى أيها؟ تشكر؟

ولا بد من معرفة الشكر، ومباشرته.

والشكر على ثلاثة وجوه:

شكر القلب، وشكر اللسان، وشكر البدن.

فأما شكر القلب: «فهو أن تعلم أن النعم من الله وحده لا من غيره».

وأما شكر اللسان: «فالحمد والثناء عليه، ونشر آلآئه، وذكر إحسانه».

وأما شكر البدن: «فلا تستعمل جارحة –أصحها الله تعالى وأحسن خلقها– فى معصية، بل تطيع الله، تعالى، بها».

وكذلك كل ما خولك وملكك من الدنيا جعلته عوناً لك على طاعته، ولم تحوله فى باطل، ولم تنفقه فى سرف، ثم تبذل لله عز وجل ذكره وعز جده، الخدمة، وتعطيه الجهد من نفسك.

---

(١) سورة إبراهيم من الآية: ٣٤.

(٢) سورة البقرة فى الآتين: ٤٠، ٤٧.

وهكذا يروى عن النبى، ﷺ: «أنه قام حتى تورمت قدماه؟ فقيل له: يارسول الله ما هذا التعب؟ أليس قد غفر الله لك؟

قال: أفلا أكون عبداً شكوراً».

وقال الله عز وجل: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾(١).

وقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٢).

فإذا بلغ العبد من الشكر لله، عز وجل، غاية، إنقطع فنظر، فإذا شكره نعمة من الله، تعالى، تحتاج إلى أن يشكر الله، تعالى، عليها، إذ جعله من الشاكرين، فعمل عند ذلك فى شكر الشكر! ثم كاد يحتير؛ تواترت عليه من الله تعالى، الألطاف بالبر والكرامات.

وبلغنا أنه فيما ناجى به موسى، عليه السلام، ربه عز وجل، قال: «يارب أمرتنى بالشكر على نعمتك، وإنما شكرى إياك نعمة من نعمك!

فأوحى الله إليه: «لقد علمت العلم، إذ علمت أن ذاك من فقد شكرتى».

وقال عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه: ذكر النعمة شكر ما، فدلت النعم على محبة المنعم!

باب
الصدق فى المحبة

وقد أجمع الحكماء أنها تستخرج من ذكر النعم.

وروى عن أبن عباس، رضى الله عنهما، عن النبى، ﷺ أنه قال:

«أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبونى لحب الله، وأحبوا أهل بيتى لحبى».

وقال الله، عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(٣).

---

(١) سورة سبأ من الآية: ١٣.

(٢) سورة إبراهيم من الآية: ٧.

(٣) سورة البقرة: ١٦٥.

وبلغنى أن الله، عز وجل، أوحى إلى عيسى، عليه السلام: «يا عيسى بحق أقول لك: إنى أحب إلى عبدى المؤمن من نفسه التى بين جنبيه».

وبلغنا عن الحسن البصرى، رضي الله عنه: أن ناساً قالوا، على عهد رسول الله، ﷺ: «يارسول الله إنا نحب ربنا حباً شديداً فجعل الله، تعالى، لمحبته علماً وأنزل، عز وجل:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[1].

فمن صدق المحبة: اتباع الرسول، ﷺ، فى هديه، وزهده، وأخلاقه، والتأسى به فى الأمور، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها، فإن الله، عز وجل جعل محمداً، ﷺ، علماً ودليلا وحجة على أمته.

ومن صدق المحبة لله، تعالى، إيثار محبة الله، عز وجل، فى جميع الأمور على نفسك وهواك، وأن تبدأ فى الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك.

وبلغنا أن موسى، عليه السلام، قال: «يارب أوصنى.

قال الله، عز وجل: أوصيك بى.

قال: يارب كيف توصينى بك؟

قال: لا يعرض لك أمران! أحدهما لى، والآخر لنفسك، إلا آثرت محبتى على هواك».

فالمحب لله: قد جعل ذكر الله تعالى، بقلبه ولسانه، فرضاً على نفسه، فهو يتفرغ من الغفلة ويستغفر منها، وكذلك جوارحه: إنما هى وقف لخدمة من أحبه.

فهو: غير ساه، ولا لاه، وإنما همه: أن يرضى من أحبه، فقد بذل المجهود فى موافقته: فى أداء فرائضه، واجتناب مناهيه، فهو متزين له بكل طاقته حذراً من أن يأتى عليه أمر يسقطه من عين من أحبه.

وهكذا روى النبى، ﷺ، من غير طريق، أنه قال: «يقول الله، عز وجل: ما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه، ولايزال يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت له: سمعاً، وبصراً، ويداً، ومؤيداً: دعانى فأجبته، ونصح لى فنصحت له».

---

(١) سورة آل عمران: ٣١.

فعلامة المحب: الموافقة للمحبوب، والتجارى[١] مع طرقاته فى كل الأمور، والتقرب إليه بكل حيلة، والهرب من كل مالا يعنيه على مذهبه[٢]

قلت: فالمحبة على قدر النعم؟

قال: المحبة بدؤها: من ذكر النعم، ثم على قدر المنعم: على قدر ما يستحق، لأن المحب لله، تعالى- عند النعم، وعند فقدها، وعلى كل حال- حباً صحيحاً، منعه، أو إعطاه، أو ابتلاه . أو عافاه، فالمحبة لازمة لقلبه، على حالة واحدة، فى العقد[٣]، ثم هى إلى الزيادة أقرب.

ولو كانت على قدر النعم، لنقصت المحبة إذا نقصت النعم، فى وقت الشدائد ووقوع البلاء، لكن المحب لله، تعالى، الذى وله[٤] عقله بربه، واشتغل برضاه، فكان فى شكره لله وذكره، حيران، كأنه ليست نعمة على أحد إلا وهى عليه، وهو مشغول بحبه لله، عز وجل، عن كل الخلق، وقد أسقطت المحبة لله تعالى، عن قلبه، الكبر، والغل، والحسد، والبغى، وكثيراً مما يعنيه من أمر الدنيا من مصلحة، فكيف يذكر مالا يعنيه؟!

قال بعض الحكماء: من أعطى من المحبة شيئاً فلم يعط مثله من الخشية: فهو مخدوع!

وروى عن الفضيل بن عياض، رحمه اله تعالى، أنه قال: الحب أفضل من الخوف.

وحدثنا إسماعيل بن محمد قال: حدثنى زهير البصرى قال: لقيت شعوانة، فقالت لى: ما أحسن طريقتك! إلا أنك تنكر المحبة!

قلت: ما أنكرها؟

فقالت لى: أتحب ربك؟

فقلت: نعم:

قالت: فكيف تخاف ألا يحبك وأنت تحبه؟!

---

(١) التجارى. المسايرة. أى المتابعة.

(٢) مذهبه. قصده وطريقه.

(٣) العقد. للعزم والنيه.

(٤) وله عقله: أى ذهب، والمعنى هنا: اشتد حبه حتى كأنه ذهب عقله.

قلت: أنا أحبه لما أولانى وما ندانى[١] من معرفته ونعمه، ولى ذنوب أخاف أن لا يحبنى لما كسبت[٢]!

فغشى عليها، ثم أفاقت فقالت: زه!

قال أبو سعيد، رحمه الله تعالى: ما أحسن ما قال هذا الرجل! هذا كلام صحيح!.

قال أبو سعيد، قدس الله روحه: قال رجل من رفعاء البدلاء: من يحب الله كثير الشأن فيمن يحبه الله.

وبالله التوفيق.

وفى هذا بلاغ لمن أعانه الله،تعالى، وسدده، وما بقى من صفات المحبين أكثر!.

باب
الصدق فى الرضا عن الله، عز وجل

قال الله عز وجل: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٣].

قال بعض العلماء، رحمهم الله تعالى: ما شهد الله تعالى، لهم بالإيمان، حين لم يرضوا بحكم نبيه، فكيف إذا لم يرضوا بحكمه، عز وجل؟

قلت: فما علامة الرضا فى القلب، وما موجوده؟!

قال: سرور القلب بمر القضاء.

وقال بعضهم: الرضا: تلقى المصائب بالرجاء والبشر.

وروى عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أنه قال: كنت خادم النبى، ﷺ فما قال لى لشىء قط: لم فعلت، أو ألا فعلت! إنما كان يقول: كذا قضى، وكذا قدر[٤].

(١) ندابى: الندا الجرد، والمعنى هنا: ما أسبغ على من معرفته ونعمه.

(٢) كسب الاثم: أى ارتكبه وتحمله.

(٣) سورة النساء: ٦٥. شجر. وقع من نزاع. حرجاً: ضيقا.

(٤) قضى وقدر: حكم بما سبق فى علمه واقتضاه.

وروى عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال: «ما أبالى على ما أصبحت وما أمسيت على ما أحب أو على ما أكره، لأنى لا أدرى أيهما[1] خير لى».

وقال عمر أيضاً: «لو أن الصبر والشكر بعيران لى ما أبالى على أيهما ركبت».

فهذا يدلك على الرضا من قول عمر، رضي الله عنه، لأن الصبر: لا يكون إلا على ما يكره، والشكر: لا يكون إلا على ما يحب فقال: لا أبالى أيهما وقع لى، وذلك لاستواء الحالين عنده.

ويروى عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، أنه قال: «حبذا المكروهات، وايم الله، ما هو إلا الغنى والفقر، وإن حق كل واحد منهما لواجب: إن كان الغنى، فإن فيه العطف، وإن كان الفقر، فإن فيه الصبر».

وقال عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه: أصبحت ومالى فى الأمور من اختيار.

وقال بعضهم: ومالى من النعم سوى مواقع القدر فى، كائناً ما كان، وكان قد سقى السم، فقيل له، تعالج، فقال: لو علمت أن شفائى: فى أن أمس أنفى أوأذنى ما فعلت.

وقال النبى، صلى الله عليه وسلم، لابن مسعود، رضي الله عنه: «يابن أم عبد، لا يكثر همك[2]، ما يقدر يكن، وما ترزق تأكله».

وقال النبى، صلى الله عليه وسلم، فى قصة طويلة لابن عباس، رضى الله عنهما: «فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا فى اليقين، وإلا ففى الصبر على ما تكره: خير كبير».

أفلا ترى أنه، صلى الله عليه وسلم، دعاه إلى أعلى الحالين.

وقال بعض الحكماء: إذا استتم فى العبد الزهد، والتوكل، والمحبة، واليقين، والحياء، صح له الرضا.

وهو عندنا كما قال، وإلا فهو مع الناس، أو قات وخطرات[3] على قدر إيمانهم، ثم يعودون إلى الصبر.

---

(١) وفى ذلك يقول النبى، صلى الله عليه وسلم: «عجباً للمؤمن، حال المؤمن كله خير له، إن أصابته نعماء شكر، وإن أصابته ضراء صبر» أو كما قال.

(٢) همك: كثرة انشغال بالك.

(٣) خطرات: ما يخطر فى القلب من تدبير.

وقال بعضهم: الرضا قليل، ومعول[١] المؤمن: الصبر.

فقلت: اشرح لى قول الحكيم: الراضى يتلق المصائب بالبشر والسرور.

قال: إن العبد، لما صدق فى محبته، وقعت بينه وبين الله تعالى، المفاوضة والتسليم، فزالت عن قلبه التهم، وسكن إلى حسن اختيار من أحبه، ونزل فى حسن تدبيره وذاق طعم الوجود به، فامتلأ قلبه فرحاً ونعيما وسروراً، فغلب ذلك ألم المصائب والمكروه والبلوى، فصار اسم البلوى عليه معلقاً، فيستخرج منه إذا نزل به أمور كبيرة، فتارة يتنعم بعلمه به، إذا علم أنه يراه فى البلوى، وتارة يعلم أنه ذكره، فابتلاه، ولم يغفل عنه، على عظم قدره أن يولى من أمره ما فيه الصلاح فيراه تارة يشكو إليه شكوى المحب إلى حبيبه، وتارة يئن إليه، وتارة يطمع أن يراه راضياً عنه[٢].

فهكذا قال جل ذكره: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[٣].

فالرضا: تعجله العقلاء عن الله، عز وجل، فى الدنيا قبل الآخرة، فخرجوا من الرضا إلى الرضا.

وهكذا قال، عز وجل: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ الآية.

فقد ذكرنا بعض صفات الراضيين من ظاهر ما أمكن أن يذكر مثله فى كتاب، وما بقى من صفاتهم أكثر.

وبالله التوفيق.

---

(١) معول المؤمن: سلاح المؤمن.

(٢) ومن ذلك قوله، ﷺ بعد أن شكا إليه ضعفه وقلة حيلته وهوانه على الناس: «اللهم ان لم يكن بك غضب على فلا أبالى».

(٣) سورة الفجر: ٢٢، ٢٨.

باب
الصدق فى الشوق إلى الله، عز وجل

روى عن النبى ﷺ ، أنه كان يقول فى دعائه: «اللهم إنى أسألك لذة العيش بعد الموت والنظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك».

وروى عن أبى الدرداء رضي الله عنه ، أنه كان يقول: «أحب الموت اشتياقاً إلى ربى».

وروى عن حذيفة رضي الله عنه ، أنه قال عند الموت: «حبيب جاء على فاقة[1] !! لا أفلح من ندم».

وروى عن شهر بن حوشب رضي الله عنه ، أنه قال: «أخذت معاذ رضي الله عنه ، قرحة فى خلقه، فقال أخنق[2] خنقك، فوعزتك إنى أحبك».

وكان على بن سهل المدائنى، رحمه الله، يقوم إذا هدأت[3] العيون، فينادى بصوت له محزون: يا من اشتغلت قلوب خلقه عنه بما يعقبهم عند لقائه ندماً، ويا من سهت قلوب عباده عن الاشتياق إليه، إذ كانت أياديه[4] إليهم قبل معرفتهم به، ثم يبكى حتى تبكى لبكائه جيرته، ثم ينادى «ليت شعرى سيدى إلى متى تحبسنى[5] ! أبعثنى سيدى إلى حسن وعدك، وأنت العليم أن الشوق قد برج بى، وطال على الانتظار، ثم يخر مغشياً عليه، فلا يزال كذلك حتى يحرك لصلاة الصبح.

وكان الحارث بن عمير، رحمه الله، يقول إذا أصبح: أصبحت ونفسى وقلبى مصر على حبك سيدى، ومشتاق إلى لقائك ! فعجل بذلك قبل أن يأتينى سواد الليل، فإذا أمسى قال مثل ذلك، فلم يزل على مثل هذا الحال ستين سنة.

---

(١) الفاقة: شدة الحاجة إلى الشىء.
(٢) أخنق خنقك: أى أقبض الروح.
(٣) هدأت العيون: نامت.
(٤) أياديه: نعمه.
(٥) تحبسنى: تقضى ببقائى.

فالمشتاق إلى الله، تعالى: هو المتبرم[١] بالدنيا والبقاء فيها، هو محب للموت وانقضاء المدة والأجل.

ومن علامته التوحش[٢] من الخلق ، ولزوم العزلة والانفراد بالوحدة ومن شأنه : القلق، والحنين، والحزن، والنحيب[٣]، والكمد[٤]، والغصة[٥] المنكسرة فى الصدر بشدة الشغف[٦]، والكلف[٧]، والهذيان[٨] بذكر المحبوب، والارتياح إليه، والفكرة الصافية بهيجان الهمة[٩]، وجولان[١٠] الروح فى الغيوب، لطلب اللقاء والبهت[١١]، والدهش، والحيرة، عند توهم الظفر بالأمل من المأمول، ونسيان حظه من الدنيا والآخرة، إلا رؤية من هو إليه مشتاق ونعم، ثم يعارضه الآن الخوف الذى هو الخوف أنه لا يصل إلى محبوبه، ويخاف أن يقطع به دونه، ويحال بينه وبينه، ويحجب[١٢] عنه، ثم يخاف أن تحدث حادثة، إذ كان فى دار البلوى، فقد طالت عليه الأيام والليالى إلى أن يخرج من الدنيا سالماً على الأمر الذى يرضى مولاه.

فهذا بعض ما يمكن ذكره من صفات المشتاقين، وما بقى من نعتهم[١٣] أكثر.

وبالله التوفيق.

---

(١) المتبرم: الضجر.
(٢) التوحش: النفور.
(٣) النحيب: البكاء.
(٤) الكمد: الحزن المكتوم.
(٥) ما يقف فى الحلق من طعام وشراب.
(٦) الشغف الهوى الشديد.
(٧) الحب والولع.
(٨) الهذيان: الذى يخلط ويتكلم بما لا ينبغى.
(٩) هيجان الهمة: شدة العزيمة.
(١٠) جولان الروح: طوفان الروح.
(١١) البهت: الدهش والتحير.
(١٢) يحجب: يمنع.
(١٣) نعتهم: وصفهم.

بباب
الصدق فى الأنس بالله تعالى، وبذكره وقربه

قال بعض الحكماء: الأنس بالله، جل ثناؤه: أرق وأعذب من الشوق لأن المشتاق : كان بينه وبين الله، تعالى ، مسافة خفيفة، لعلة شوقة، والمستأنس: أقرب من الله، عز وجل[١] .

وهكذا روى عن النبى ﷺ، حين أتاه جبريل عليه السلام، فى صورة رجل، فسأله عن السلام والإيمان، ثم سأله عن الإحسان فقال له النبى ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، فقال له : صدقت!» .

وروى عن النبى ﷺ، أنه قال لابن عمر رضي الله عنه : «أعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

وإنما دله على قرب الله، عز وجل، وقيامه عليه، ومن قرب الله، تعالى، تستخرج حقائق الأمور فى كل مقام.

فمن كل مقامه: الخوف ، أدركه من قرب الله ، تعالى – حين علم أنه يراه – الحذر والفرق[٢] ، والخشية[٣] .

ومن كان مقامه: المحبة، أدركه من حقائق قرب الله ، تعالى، حين علم أنه يراه الفرح، والسرور، والنعيم، والمسارعة فى طلب رضاه والقربة ليراه منافساً راغباً، يريد القربة إليه، والمبالغة فى محبته.

والصابر فى وقت بلواه ومصيبته وما يتحمله لسيده: مما يقربه من ثوابه ، حين سمع الله، عز وجل، يقول: إن الله مع الصابرين» .

---

(١) وقد بين النبى ﷺ مظلة القرب، فقال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء فقمن أن يستجاب لكم» .

(٢) الفرق: الخوف.

(٣) الخشية: الخوف عن علم، قال الله تعالى: إنما يخشى الله من عباده العلماء.

وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[١].

سهل عليه عند ذلك معالجة الصبر واحتمال مؤنته.

وكذلك أهل كل مقام: عبدوا الله، تعالى، على القربة، وذلك حين أيقنوا، وهم الذين لا يكادون يصلون ولا يرجعون.

وأما العامة من الناس: فإنهم: عملوا على ما انتهى إليه من الأمر والنهى، على رجاء ضعيف فخلطوا ولم يحققوا!.

فمن صدق الأنس: ما يروى عن عروة بن الزبير، رحمه الله عليه: أنه خطب إلى عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما ، ابنته وهو يطوف ببيت الله الحرام، فلم يجبه ابن عمر، ولم يرد عليه جواباً، ثم لقيه عبد الله بعد ذلك، فقال له: «إنك كلمتنى فى الطواف، ونحن نتخيل الله فى أعيننا.

فالمستأنس: كأنه ينظر إلى ما اشتاق إليه المشتاق.

ويروى عن عبدالواحد بن زيد البصرى، رحمه الله تعالى، أنه قال لأبى عاصم الشامى، رضي الله عنه ورحمه أما تشتاق إلى الله تعالى ؟

قال: «لا، إنما تشتاق إلى غائب، فإذا كان الغائب شاهداً فإلى من تشتاق؟» فقال عبد الواحد: سقط الشوق.

وروى عن داود الطائى، رحمه الله تعالى – وكان من المسلمين الذين أجمعوا على صدقه وعدالته – قال أيضاً: «إنماتشتاق الغائب».

قال بعض العلماء، رحمه الله: وإنما قالوا: هذا من حقائق الوجود لقرب الله، عز وجل، كأنهم معه، إذ كان معهم شاهداً لا يغيب، وذلك من الله تعالى، تسكين وتطمين، ورحمة وراحة، عجلها لهم فى الدنيا، وإلا فما الذى وصل إليهم من الله، عز وجل، من قربه؟!

فمن علامة المستأنس بالله، تعالى، وبقربه: أن يكون واجداً[٢] لذكر الله، عز وجل، فى قلبه، واجداً لقربه منه: لا يفقده على كل حال وفى كل وقت وكل موطن[٣]، ويكون

---

(١) سورة الطور: ٤٨.

(٢) واجداً: المقصود هنا الموجود ضد المعدوم.

(٣) الموطن: الوطن (المكان).

الله، عز وجل وقربه السابق إليه قبل الأشياء، وذلك إذا سكن قلبه نور قرب الله ، تعالى، منه فبه ينظر إلى الأشياء ، وبه يستدل على الأشياء[١] .

وهكذا يروى عن عامر بن عبد الله رضي الله عنه ، أنه قال: «ما نظرت إلى شيء قط إلا كان الله، تعالى ، أقرب إلى منه».

ومن صفات المستأنس: أن يكون متبرماً بالأهل والخليقة كلهم، مستعذباً[٢] للخلوة والوحدة، ويكون فى البيت المظلم متبرماً بالمصباح إذا رآه، بل يجيف بابه[٣] ويسبل ستره ويواحد قلبه، ويألف مليكه، فيكون به أنيساً، وبمناجاته متنعماً، ويكون متفرغاً من طارق يطرقه فينغص عليه خلوته، نعم، ثم تراه مستوحشاً من ضوء الشمس إذا دخل عليه فى صلاته، ويتثاقل تلقاء[٤] الخلق، ويملهم، ويكون لقاؤهم ومجالستهم عليه غراماً[٥] وخساراً، فإذا جنه الليل[٦]، ونامت العيون وهدأت الحركات، وسكنت حواس الأشياء[٧]، خلا عند ذلك ببثه[٨] فهاج شجوه[٩]، وتصاعدت أنفاسه، وطال أنينه، وتنجز الموعود من مأموله، وما قد غذاه من فوائده وألطافه، فظفر عند ذلك ببعض سؤله، وقضى بعض أوطاره[١٠] .

وكذلك المستأنس: تذهب عنه الوحشة فى المواطن التى يفزع فيها الناس، فيستوى عنده العمران والخراب، والقفار[١١]، والجماعة، والوحدة، وذلك للذى استولى عليه : من قرب الله، عز وجل، وعذوبة ذكره، ويغلب ما سواه: من العوارض الظاهرة والباطنة.

---

(١) وفى الحديث القدسى الصحيح: «فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها..» متفق عليه.

(٢) مستعذباً: واجداً لها حلاوة.

(٣) يجيف بابه: يغلق بابه.

(٤) تلقاء: تجاه (قبالة).

(٥) غراماً: غرماً.

(٦) جنه الليل: ستره.

(٧) سكنت حواس الأشياء: مبالغة فى السكون.

(٨) البث: المناجاة المبثوثة بالزفرات.

(٩) الشجو: الوجد.

(١٠) قضى بعض أوطاره: نال بعض بغيته، ومصداق ذلك قوله تعالى: «وتبتل إليه تبتيلا».

(١١) القفار: الجرداء.

فهذا ظاهر الأنس الذى يمكن أن يذكره، وما بقى من مقامات الأنس أكثر وأعز من أن يكون فى كتاب، إلا أن يجرى منه شيء عند المذاكرة مع أهله.

وبالله التوفيق.

وأعلم أيها السائل عن الصدق وشرحه: أن الذى ذكرته لك: إنما هو ظاهر الصدق، والصبر، والإخلاص الذى لا يسع الناس جهله، ولا ترك العمل به. خاصة المريدين من الناس، الطالبين لسلوك سبيل النجاة.

ومن الناس: من لا يكون له عند الله، تعالى، إلا هذا العلم الظاهر والعمل الظاهر، فيفعل فى ذلك ويصدق فيه، فيؤديه ذلك إلى رحمة الله، تعالى، وثوابه، وله عند الله خير كثير.

ومن الناس: من يصدق فى هذه المقامات التى ذكرناها وأكثر، فيؤديه ذلك فى عاجل الدنيا إلى المقام الرفيع، والعلم بالله، والمقام الشريف، فيصير إلى الروح والراحة، والنعمة بمعرفة الله، عز وجل، والظفر بقرب الله، تعالى، والوصول إلى المنزلة الشريفة، التى يدق[١] وصفها وشرحها.

وقال بعض العلماء بالله، تعالى: إن الله يكرم أولياءه بكرامة لا يطلع عليها العباد، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

ألم تسمع لقول الله، عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٢].

ويقال فى الحديث: «فيعطون ما لاعين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

وهكذا: كل قوم على أقدارهم.

ومنهم: من لا تنقضى كرامته: من ثواب الله، تعالى، ومن النعيم فى الجنان، ومنهم من لا تنقضى كرامته من الله، تعالى، والزيادة: من بره والنظر إليه.

---

(١) يدق: دق الأمر يدق إذا غمض وخفى معناه فلا يكاد يفهمه إلا الأذكياء.

(٢) السجدة: ١٧.

وقد صح الخبر عن النبى ﷺ، أنه قال: «إن أدنى[١] أهل الجن منزلة: من ينظر فى ملكه ألفى عام يرى أقصاه[٢] كما يرى أدناه».

ومنهم: من ينظر إلى وجه الله، جل وعز، كل يوم مرتين.

ومحال أن يكون هؤلاء سواء، أو كان عملهم فى الدنيا سواء.

قال جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[٣].

فلم يقع التفضل على الخلق إلا بفضل علمهم بالله تعالى والمعرفة به، ثم على قدر هذا الأنس تفاوتوا فى الدنيا والآخرة.

وبالله التوفيق.

قلت: فهل يصير العبد إلى حال يفقد مطالبة الصدق من نفسه، ويسقط عنه مؤنة الأعمال، وأثقال الإخلاص، ومؤنة الصبر، ويكون عاملا بالصدق: فأخذ مما ذكرت وأكثر بلا اشتغال ولاتعب؟

قال: نعم، ألم تسمع الحديث الذى يروى: «إن الجنة حفت بالمكاره وحفت النار بالشهوات».

ويروى فى خبر آخر: «إن الحق: ثقيل مرئ[٤]. وإن الباطل: خفيف وبيء»[٥].

والنفس: مجبولة بحب هذه الدار والسكون إليها، وحب الدعة[٦] والراحة فيها.

أما الحق، واتباعه، والعمل به، والصدق ، وأخلاقه: فذلك كله هو خلاف محبوب النفس .

فإذا عقل العبد عن الله تعالى، وفهم ما دعاه إليه من العزوف[٧]، عن هذه الدار الفانية، والرغبة فى الدار الباقية، حمل عند ذلك نفسه على احتمال المكاره: من ركوب

---

(١) أدنى: أقل.
(٢) أقصى: أبعد.
(٣) الإسراء: من الآية: ٥٥.
(٤) مرىء: طيب.
(٥) وبىء: كثير مرضه: (ضروره).
(٦) الدعة: الترك (حب الراحة).
(٧) عرف عن الدرا: انصرف عنها.

طريق الصدق، وعزم على بذل المجهود، وصبر لله، تعالى وكابد[١] نفسه، واستعان بالله، تعالى فنظر الله، تعالى، إليه راغباً فيما لديه، حريصاً على أن يرضيه، عليه عند ذلك بلطفه وعونه، فسهل عليه العسير: مما استصعب من نفسه، وأبدله بالمرارة حلاوة، وبالثقل خف، وبالخشونة ليناً ودعة، فسهل عليه قيام الله، وصادرت المناجاة لله، تعالى، والخلوة بخدمته له: نعيما بعد شدة المكابدة، وصار الصيام، والظمأ فى الهواجر[٢]: خفيفاً عليه، حين ذاق عذوبة ما رجا من روح االله، تعالى، وحسن عاقبته.

وكذلك: تبدلت وسهلت: الأخلاق، والأحوال، عليه، حين قام له من كل مقام عاناه وكابده لله، تعالى، التماس رضاه عوض مكانه من الخير، فتغيرت عند ذلك أخلاقه، وانتقل طبعه، وهدأت نفسه، وانتعش عقله، وسكنه نور الحق فألفه، ونفر عنه الهوى وطفئت ظلمته ، فصار عند ذلك، الصدق وأخلاقه: طبعاً له، لا يحسن غيره، ولا يألف إلا إياه ولا يسكن إلى غيره، واكتنفته[٣] العصمة من ربه.

فضعف عند ذلك كيد عدوه، وصار مغلوباً، حين ماتت دواعيه: من الباطل، وكل[٤] سلاحه، بموت الهوى وانقياد النفس، حين تخلقت بأخلاق المرحومين.

قال الله، جل ذكره، حين أخبر عن يوسف، عليه السلام: «إن النفس لأمارة[٥] بالسوء إلا ما رحم ربى».

فأنفس الأنبياء والصديقين، عليهم السلام: مرحومه معصومة، وكذلك كل مؤمن على حسب قوة إيمانه، فسقطت، عند ذلك، عن العبد، معاناة الصدق، وثقل العمل به، فصار عاملا بالصدق الذى ذكرناه، وأكثر بلا مؤنة، بل صار ذلك نعيما وغذاء، إن تركه توحش من تركه وتفزع[٦] من فقده، فصار الصدق وأخلاقه: صفة له، لا يحسن غيرها، حتى كأنه لم يزل كذلك.

---

(١) كابد نفسه: حمل نفسه المشقة.
(٢) الظمأ فى الهواجر: شدة العطش فى الحر الشديد.
(٣) اكتنفته العصمة: أحاطته من كل جانب.
(٤) كل السيف: أى لم يعد يقطع.
(٥) لأمارة بالسوء: تهم بالسوء.
(٦) تفزع من فقده: كثر خوفه.

ومصداق ذلك فى الكتاب والسنة: موجود.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١].

وقال، عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[٢]

قال عز وجل: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾[٣].

وقال عز من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾[٤]، أى: عن الدنيا.

وإنما أردنا أن نثبت المجاهدة للنفوس، وبذل الجهد[٥] فى الصدق.

ثم إن المعونة من الله: تأتى من بعد ذلك، والحجة فى ذلك: قائمة فى السنن.

قال ابن عباس، رضى الله عنهما، فى تفسير سورة «طه» قال: معنى «طه» : يارجل، بلسان الحبشية: «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» قال: لتعنى به.

أفلا ترى: أنه حين قام، ﷺ لله، عز وجل، شكراً حتى تورمت قدماه شكراً لله، تعالى، فأمره بالهدوء؟:

وقد روى: أن النبى ﷺ: كان يتعبد فى جبل حراء الشهر وأكثر.

وكذلك يروى: «أن النبى ﷺ: كان يحرس ويحفظ من عدوه، حتى نزلت هذه الآية: «والله يعصمك من الناس» فنحى[٦] الحرس تصديقاً لقول الله، عز وجل، حين ذكره له: أنه يعصمه، فأيقن وسكن، ﷺ.

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٩.
(٢) سورة النور: ٥٥.
(٣) سورة القصص: ٥.
(٤) سورة السجدة: ٢٤.
(٥) الجهد: الوسع والطاقة.
(٦) نحى الحرس: عزلهم.

وكذلك المؤمنون: يأتيهم اليقين بعد الضعف، وكذلك النبى ﷺ: كان يخرج إلى الغار بالجبل الذى يقال له: ثور ويختبئ هو وأبو بكر الصديق، رضي الله عنه، ثم يخرجان إلى المدينة هاربين فى السر.

وهذا: إنما كان وقت البلوى من الله، تعالى، له، إذا كان، عليه السلام، فى مقام الصبر والمجاهدة، ثم من بعد ما صار إلى المدينة، عليه السلام، تغزوه قريش يوم وقعه أحد، فتقتل أصحابه، وتكسر رباعيته[١] عليه السلام، ويدمى وجهه.

أفلا ترى: أن الهوى[٢] والمحنة: لازمة له، وللمؤمنين: طالبة لهم؟

ثم إنه، ﷺ: يخرج هو وأصحابه، فيهل[٣] ويسوق الهدى، يريد العمرة[٤]، فتمنعه قريش من دخول مكه، حتى اضطرب الناس، فأحل[٥] بالموضع الذى يسمى الحديبية، ورجع، ولم يدخل الحرم!!

ثم انظر الآن، حين انقضت مدة البلاء، وجاء النصر: كيف دخل مكة، ﷺ فقتل، وأمن من شاء، ثم نشر عندها بالمغفرة، فأنزل الله. عز وجل: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ الآية:[٦].

وهذا موسى، ﷺ، ومنزلته عند الله، فانظر إلى عظيم بلائه، حين حملت به أمه، كيف ذبحت النساء، وقتل الولدان، فى طلب موسى، عليه السلام! فرجع بلاؤه على الخليقة.

ثم أخبر الله، عز وجل، عنه فقال: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[٧].

(١) رباعيته السن التى بين الثنية والناب.
(٢) منازعة النفس.
(٣) يهل: يرفع صوته بالتلبية (لبيك اللهم لبيك الحج).
(٤) العمرة: الحج الأصغر (وهو مأخوذ من الاستعمار أى الزيادة).
(٥) أحل: خرج من إحرامه.
(٦) سورة الفتح: ١، ٢.
(٧) القصص. يترقب: ينتظر.

وقال: ﴿إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ۝ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[١].

ثم انظر أيها المريد، الطالب للوصول إلى كرامة الله، عز وجل، بالتوانى والتفريط[٢]، ألم يبلغك: أن موسى، عليه السلام: لم يصل إلى أمرأته، حتى رعى الغنم، وخدم عشر سنين، ثم أرسله الله تعالى، وكلمه، وأظهر برهانه؟!

فقال: «لا تخافا؛ إننى معكما: أسمع وأرى» ؟!

فحين قال لهما: «لا تخافا» هل خافا؟! ألم يجعل لهما آية فى عصا، فظهرا[٣] على كيد السحرة، وهزما الجيوش، ثم أداله[٤] الله، تعالى، من أعدائه، وأغرقهم أجمعين؟!

وهذا يوسف، عليه السلام، حين أخبر الله تعالى، عنه: أنه يلقى فى الجب، ثم يباع بثمن بخس: دراهم معدودة، وكانوا فيه من الزاهدين، ثم لم يفارقه البلاء، حتى فتن بامرأة العزيز، وسجن السنين الكثيرة.

ثم انظر: كيف أداله الله، تعالى، على إخوته، ثم أخرجهم الله، تعالى، فأظهر برهانه، وجعله على خزائن الأرض.

وكذلك الأنبياء الذين ذكرهم الله، عز وجل، عليهم السلام.

وفى هذا: بلاغ لمن فهم عن الله، عز وجل، وعن العلماء الأدلاء[٥] على الطريق إلى الله، عز وجل!!

وهذا: عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وما روى عنه: أنه ماسلك طريقاً قط إلا سلك الشيطان طريقاً غيرها، وقال: «إن الشيطان ليفر من جبين عمر» وقد كان بالأمس، من اللات والعزى: فى أمور ترضى الشيطان!

---

(١) سورة القصص: ٢٠، ٣١.

(٢) التوانى والتفريط. التوانى من توانى توانيا إذا لم يهتم ولم يحتفل بالأمر والتفريط من فرط تفريطاً إذا ضيعه.

(٣) ظهرا: تغلبا.

(٤) أداله الله: جعل الغلبة له على عدوه.

(٥) الأدلاء: المرشدين الكاشفين.

فانظر: كيف أخلص لله، تعالى، وصدق: إن كان منه: العدو وباطله.

وروى عن ثابت البنانى، رحمة الله عليه، أنه قال: «كابدت[١] القرآن عشرين سنه، وتنعمت به عشرين سنة».

وقال بعض الحكماء: «إن القوم: لم يزالوا يمضون[٢] الصبر حتى صار عسلا».

وقال بعض الحكماء: «إن دون[٣] كل بر: عقبة، فمن تجشم ركوبها: أفضت[٤] به إلى الراحة، ومن هاله[٥] ركوب العقبة فلم يرقها[٦] بقى مكانه!».

قلت: فلا بد من هذه البلوى والاختبار؟

قال: لابد منه: لكل عبد رفيع القدر عند الله، عز وجل، من أهل المعرفة بالله، عز وجل.

وقد صح الخبر عن النبى، ﷺ: «أنه سئل: من أشد الناس بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الصالحون ثم، الأمثل، فالأمثل»:

يبتلى العبد حسب دينه: فإن كان فى إيمانه قوة شدد عليه البلاء، وإن كان فى إيمانه ضعف خفف عليه البلاء.

فالأنبياء، عليهم السلام: بادأهم الحق، عز وجل، بكرامة الرسالة، وبشرهم بالنبوة، ثم حمل عليهم البلاء، فاحتملوا البلاء، بقدر الكرامة التى أكرمهم بها، حتى راضهم[٧] بالبلاء، وتفقهوا فيه، وبه صبروا لله، عز وجل، حتى نصروا.

والمؤمنون: قامت لهم الرغبة فى ثواب الله، عز وجل، الذى وعدهم، الرهبة من عقابه الذى به تواعدهم، فصبروا لله تعالى، وأخلصوا، وصدقوا، فشكر الله تعالى، لهم ذلك، وأظهر برهانهم على الخليقة، فجعلهم علماء يقتدى بهم، وأسكن اليقين قلوبهم.

---

(١) كابد: تحمل المشاق.

(٢) يمضون الصبر: يتحملون ألمه.

(٣) دون كل بر: قبل كل بر.

(٤) أفضت به: انتهت به.

(٥) هاله: أفزعه.

(٦) يرقها: يصعد إليها.

(٧) راضهم بالبلاء: أساس قيادهم به: أى جعل أنفسهم راضية بالبلاء حتى صار الحلم طابعها والدماثة من سجاياها.

ثم إن المؤمنين. بعد ذلك على وجهين:

فمنعم: من يبدؤه الله تعالى، بالنعمة والمنة والموهبة، فيهب له الإنابة، ويحبب إليه البر، ويسهل عليه الطاعة، ويبدأه بالمنن الكثيرة.

فإذا تمكن الروح فى قلبه، واستعذب الأعمال الصالحة، حمل عليه، بعد ذلك البلاء، والاختبار، والمصائب، والضراء، والعسر، والشدة نعم.

ثم تؤخذ منه الحلاوة التى كان يجدها، والنشاط فى البر، فثقل عليه الطاعة بعد خفتها، ويجد المرارة بعد ا لحلاوة، والكسل بعد النشاط، والكدر بعد الصفاء، وذلك لعلة البلوى والاختبار، فتعتريه الفترة[١].

فأن جاهد الآن وصبر واحتمل المكروه، صار إلى حد الراحة والبلوغ، وأضعف له البر ظاهراً وباطناً!!

وهكذا يروى فى الحديث: «إن لكل شرة[٢] فترة، فمن كانت فترته إلى سنة[٣]: فقد نجا، ومن كانت فترته إلى بدعة[٤] فقد هلك.

وقال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه: «طوبى لمن مات فى النأنأة بدء الإسلام وشرته».

ويروى فى الحديث: «إن الله، عز وجل، يأمر جبريل، عليه السلام، فيقول: اقبض حلاوة الطاعة من قلب عبدى، فان تأسف عليها فردها عليه وزده، وإلا فدعه»!.

ويروى فى حديث آخر: «إن الله، عز وجل، يقول: إن أدنى[٥] ما أصنع بالعالم إذا ركن إلى الدنيا: أن أنزع حلاوة مناجاته إياى من صدره، وأن أدعه فى الدنيا حيران».

وفى خبرآخر: إن العبد إذا ركن إلى الدنيا، بعد العلم والمعرفة، والعلم بالبصيرة، يقول الله، عز وجل، لجبريل عليه السلام: «أنزع حلاوة مناجاته إياى من صدره، وأعطه من الدنيا مقصما[٦] يشتغل به عنى».

---

(١) إنكسار الحدة وذهاب النشاط.
(٢) الشدة: الحادة.
(٣) السنة: الطريقة التى مات عنها الرسول والصحابة والتابعون.
(٤) البدعة: ما خالفت السنة.
(٥) أدنى: أقل.
(٦) مقصما: مقطعا.

أما العبد الثانى: فأنه يبدأ بالصدق، والأعمال الصالحة، وأخلاق الصدق، ثم يعمل فى ذلك ما شاء الله، عز وجل، فتأتيه الكرامة بعد ذلك، فيعطيه الله، تعالى، مالم يرجه ويحتسبه.

وهكذا عامة البدلاء: لا تأتيهم الآيات والكرامات إلا من بعد العمل وبذل الجهد، وأكثر مالم يحتسبوا: ما أتاهم الله تعالى، به، حين بدأهم الله، عز وجل به.

ومنهم: من اطلع على القوم وقيل له: إنك منهم، فعمل بعد أن أخبر بذلك.

ومنهم: من يعرف نفسه ولا يعرف غيره.

ومنهم: من يعرف الجميع بأسمائهم وقبائلهم.

فان كنت، أيها السائل عن الصدق وشرح الطريق: قد عملت فى الصدق ما ذكرته لك من العلم، وباشرت هذه المنازل، ونزلت هذه المراحل، وقطعت هذه الأسباب التى ذكرناها، فأفضيت منها إلى الراحة والسكون والطمأنينة، فأنت محاط بالعصمة، وماض على سبيل الاستقامة والمحجة البيضاء، التى توردك على الله، عز وجل، فهنيئاً لك، وبارك الله فيك، فأنت من أمرك على بصيرة.

فان كنت: قد باشرت الصدق، وعملت فى كل مقام البر بقدر طاقتك وما أذن الله، تعالى، لك، وعاينت الأمور، فعسى أن يكون الله قد رآك، وقد أبليت[1] فيما بينك وبينه، عذراً لرغبتك فى التقرب إليه، فصح إليه افتقارك، حين علمت أنه لا بد لك منه، فألقيت كنفك[2] بين يديه، فعسى أن يكون قد رآك فى الأوقات إليه قاصداً راغباً، بنية صحيحة وعزم صادق، علم أنك: لا تمل ولا تبرح من التعرض له دون بلوغ مناك، فجاد لك ببره، وأعطاك بعض الأمل منه، بل جذب قلبك إليه جذبة، فأسكنه اليقين، وأشرف به على الآخرة، فسهل عليك عند ذلك العسير، وألان لك من نفسك الصعب الذلول، ثم اختصر بك الطريق إليه، فقر قرارك، وقامت حياتك، وطاب عيشك.

فبذلك تعرف السيد الكريم، الذى لا تنقصه المواهب، ولا ينفذ نائله، لأنه البر الرحيم، الذى تسمى: الشكور!

---

(١) بليت: أخرجت من الامتحان فائزاً منتصراً.

(٢) كنفك: جانبك.

فيا عجباً كل عجب، وعجب كل متعجب، ولا عجب، إذا كان السيد الكريم: يفعل ما يريد.

ولكن موضع العجب: يلزم العبيد من شكره لعبيده، الأمر الذى بدأهم به، ودلهم عليه، واستعملهم به، وحفظ عليهم، ثم أحبتهم عليه، ونسبه إليهم فعلا، ثم كتبه لهم فى المقبول، ثم أثنى به عليهم بما وعدهم عليه الجزاء!

فهذا البر الآن من الكريم: لا تقف عليه العباد، بل تحير فيه العقول هيهات أيها السائل المريد!! استيقظ من طول هذه الرقدة، إنما هذه أسماء علقها عليهم: أنهم فاعلون، وأمور نسبها إليهم، وما أظنها إلا له، والتوفيق به، والصنعة منه، فى صنعته التى تفرّد بإنشائها وإبدائها لما شاء وهو: الفعال لما يريد، الذى يصيب برحمته من يشاء!

والعقلاء عن الله ،عزّ وجلّ، من عباده: يتلقون الأمور على هذا الوصف والشرح، ويرجعون فى الأشياء إليه، ويرونها منه سبحانه، لأنه كان بدأها، وعليه تمامها، فهو القائم بها، وإليه مرجعها!

«ولله الأمر من قبل ومن بعد».

«ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين».

وأما الضعفاء من الخلق؛ فإنهم يرون لأنفسهم ها هنا فعلا، هيهات، إذا صدقوا وأخلصوا، طلبوا الجزاء من الله، عزّ وجلّ، على ذلك، وذلك: مبلغهم من العلم، ولهم عند الله تعالى خير كبير.

وأذكر لك مقاماً آخر، فاعرض نفسك، وغيرك عليه: ممن تراه من العبيد، يشير إلى المعرفة والعلم، والسكون إلى الله، عزّ وجلّ.

فإن كنت قد شربت بكأس المعرفة بالله، تعالى: فأطلعك الله، بصفاء اليقين، على ما سبق لك عنده فى القديم، حين أرادك قبل أن تريده، وكان لك عالماً قبل أن تعرفه، وذكرك قبل أن تذكره، وأحبك قبل أن تحبه، فهاج منك الآن، الشكر له على أياديه[1]،

---

(١) أياديه: نعمه.

فألزمت قلبك المحبة على أياديه، فآثرته، وارتاحت روحك إليه، فألفت قربه، فصرت الآن إليه تأوى، وفى قربه تسكن، فهو لا يغيب عنك ولا تفقده، ذاهباً وجائياً، وقائماً وقاعداً، ويقظان وراقداً، وعلى كل حال.

أما سمعت ما يذكر عن النبى، ﷺ حين يقول: «تنام عيناى ولا ينام قلبى».

وكذلك المؤمنون على أقدارهم.

فما أعظم شأنك[1] أيها العبد وأجل خطبك، إذا كان السيد الكريم الكبير المتعال الغنى الحميد، ذكرك ذكراً بعد ذكر، فخصك ، فأجزل لك العطية، إذ دلك على محبته فآثرته، فكان هو بغيتك ومرادك[2]، ومنتهى رغبتك، وليس منك شىء تملكه للعباد، ولكنها: موهبة، وهى: أول أعلام الوصول إلى الراحة: أن يكون الله: مراد العباد لا غيره.

ومن علامة ذلك: أن يكون هو الحافظ عليك، ما استودع قلبك من ذكره ومودته، وأوجدك من قربه، وتعطف عليك ببرّه، فسامحك الآن، فسقطت عنك حركات الطلب للظفر أو التقرب، إلا حركة تهيج منك الآن: شكراً له على أياديه، وإيجاباً لحقه، وألفة[3] له على غيره، والتنعم بمناجاته، ولذة خدمته، وما أراد فيك: من تعبده بمشيئته، ليريك موضع قدرته، واختلاف أحكامه عليك، لتفقه عنه، وأنت فى ذلك: واجد لقربه، وغير متشاغل بحركاتك، ولا طالب منه عليه جزاء وثواباً، كما أراد العباد والزهاد، ولكن تعمل لله، تعالى، حباً وكرماً، لأنه خلقك كرماً، واستعملت بأخلاق الكرماء.

وبالله التوفيق.

وهذا الآن: جواب لك آخر، على مسألتك، حين قلت: هل يصير العبد إلى حال يفقد مطالبة الصدق من نفسه؟ وهى علامة الواصلين، فأفهمها.

أما علمت أيها المريد: أن الورع والزهد، والصبر والتوكل، والخوف والرجاء، والمراقبة، والحياء، والمحبة، والشوق، والأنس، والصدق فى المواطن، والإخلاص فيها، وكل خلق

(١) شأنك: قدرك.

(٢) مرادك: طلبتك واختيارك.

(٣) ألفة: محبة وائتلافا، أى التئاماً واجتماعاً.

حسن جميل: إنما هى منازل نزلها العمال لله، عز وجل، ثم ارتحلوا منها إلى غيرها، حتى وصلوا إلى المنى: من قرب سيدهم؟!

فما أنت، وذكر المنزل الذى نزلته، حتى أوصلك إلى بغيتك، إن كنت واصلا ظافراً ببعض حظك من مطلوبك؟! فأنت كأنك مشاهده.

فعليه الآن، فازدد إقبالا، وإليه فأدم النظر واصنع إليه بالآذن الواعية، فانه أقرب إليك منك إلى نفسك، فما أنت الآن وذكر الصدق؟ وإنما هو منزل من منازل الطالبين.

وبعد، فأن كان قد فتح لك الباب الذى كان بينك وبينه مغلقاً، وكشف عن قلبك الستر الذى كان عليه مرخى، فأوجدك قربه، ولا طفك ببعض التأنس، فعساك أن تكون: قد صرت إلى بعض سؤلك، فقرّ قرارك.

وإن كنت وغيرك من الطالبين: إنما فقدت وجود مطالبة الصدق، وما أشبهه: من الأمور من وجودك لقرب الله، عزّ وجلّ والتشاغل به، فتلك بغية العارفين بالله، عزّ وجلّ.

وكذلك فافهمها من نفسك ومن غيرك، ولا تنخد عن لنفسك من حظك من ربك.

واعلم: أن الواصلين إلى الله، عز وجل، وأهل القرب منه، الذين قد ذاقوا طعم محبة الله، تعالى، بالحقيقة، وظفروا بحظهم من مليكهم: فمن صفاتهم: أن الورع، والزهد، والصبر، والإخلاص، والصدق، والتوكل والثقة، والمحبة، والشوق، والأنس، والأخلاق، الجميلة، ومالم يكن يمكن أن يوصف من أخلاقهم، وما استوطنوه: من البر، والكرم، فذلك كله معهم، وساكن فى طبعهم، ومخفى فى سرائرهم، لا يحسنون غيره، لأنه غذاؤهم وعادتهم، لأنهم فرضوا ذلك على أنفسهم فرضاً، وعلموا فيه حتى ألفوه، فلم يكن عليهم بعد الوصول كلفة[1] فى إتيانه والعمل به، إذا حل وقت كل حال، لأن ذلك غذاؤهم، كما ليس لهم فى أداء الفرائض ثقل ولا علاج[2].

(١) كلفة: مايكلف به الانسان على مشقة.

(٢) ومنه قوله، ﷺ، فى شأن أحد الصحابة، «نام العبد صهيب لولم يخف الله لم يؤمنه».

وذلك لما غلب على قلوبهم: من الإيثار لله، عز وجل، والقرب منه، فهم عاملون به بلا مؤونة، بل بلا تشاغل بالأعمال الظاهرة، لأن الخدمة والأعمال الظاهرة: إنما تقع على ظاهر الجوارح.

فافهم هذا الموضوع، والقلوب بعد ذلك ذاهلة، بل هى بالله مشغولة للذى استولى عليها: من قرب الله، عز وجل، والمحبة لله، والشوق إليه، والرهبة منه، والتعظيم له، والإجلال.

فافهم أيها المريد: ما ألقيت إليك وتدبره، تجده بيناً معروفاً، إن شاء الله تعالى.

فأحضر الآن عقلك، واجمع همك، ولا تسمع العلم وأنت عازب[١] الفهم عن الذى يلقى إليك، فلا عذر لك الآن بعد العلم والبيان، بل قد تأكدت عليك الحجة، فاعمل فى التخلص إلى الله عز وجل، لعلك تتخلص، فتقر عينك بمعرفته فى هذا الدار عاجلا قبل الآجل.

نعم، ثم يدوم حزنك، ويشتد كربك، وتزداد كل حال: كنت تجدها أضعاف ما كنت تجدها قبل المعرفة والوصول.

ومصداق ذلك فى كتاب الله، عز وجل، وسنة نبيه، ﷺ قال الله عز وجل: «إنما يخشى الله من عباده العلماء».

وقال النبى ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»[٢].

وقال، ﷺ : «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيراً ولخرجتم إلى الصعدات، تجأرون[٣] إلى الله».

وعلى حسب ذلك كان، ﷺ.

وكذلك العارف بالله، القريب من الأشياء، الموفق فى كل حال يحل فيها بما يكون فيها: بخلاف غيره من الناس.

---

(١) عازب: غائب.

(٢) خشية: خوف

(٣) تجأرون: ترفعون أصواتكم بالدعاء

ثم على هذا القياس، وفى هذا بلاغ لمن فهم وتدبر.

وبالله التوفيق.

قلت: متى يألف العبد أحكام مولاه، ويسكن فى تدبيره واختياره؟

قال: الناس فى هذا: على مقامين، فافهم.

فمن كان منهم: إنما يألف أحكام مولاه، ليقوم بأمره الذى يوصله إلى ثوابه، فذلك حسن، وفيه خير كبير، إلا أن صاحبه: يقوم ويقع، ويصبر مرة ويجزع أخرى، ويرضى ويسخط، ويعبر ويراجع الأمر، فذلك: يؤديه إلى ثواب الله ورحمته، إلا أنه معنى فى شدة ومكابدة.

وإنما يألف العبد أحكام مولاه، ويستعذب بلواه، ويسكن فى حسن تدبيره واختياره بالكلية بلا تلكؤ[1] من نفسه: إذا كان العبد: آلفاً لمولاه ولذكره، وهو له محب واد، وبه راض، وعنه راض.

فهل يكون، أيها السائل، على المحب مؤونة فيما حكم عليه محبوبه؟ كيف؟ وإنما يتلقى ذلك بالسرور والنعيم!

هكذا قال فى الخبر: حتى يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة.

وقال فى خبر آخر: «غنية الصديقين: مازوى[2] عنهم من الدنيا».

وروى عن الله، عز وجل، فى بعض ما أنزل من كتبه: أنه قال: «معشر المتوجهين إلىّ بحبى، ما يضركم ما نابكم من الدنيا، إذا كنت لكم حصناً، وما يضركم من عاداكم إذا كنت لكم سلما؟!».

فمن كان مع الله، عز وجل، بهذه الأحوال فى المواطن، كيف يكون إلا على نحو ما ذكرناه!

ولقد قال بعض العلماء بالله، تعالى، وأهل القرب منه: إن القوم اللذين ذكرنا بعض أحوالهم: لا يرضون من أنفسهم أن تكون تقاوم الأمور عند حلولها، والأحداث عند

---

(١) تلكؤ: تباطؤ.

(٢) زوى: جمع والمعنى (نفى عنهم جمع الدنيا).

نوازلها، حتى تتمكن من قلوبهم، فيحتاجون أن يصبروا عليها أو يرضوا بها، بل الصبر والرضا لهم: تابع مضاف، لأنهم طالبوا من أنفسهم: صحة الشغل بالله تعالى، والانفراد به فلم يرضوا عند ذلك: أن تكون الأمور النازلة بهم: تقاوم ذكر الله تعالى، حتى تشاويه: «والله غالب على أمره».

وبعد فإنهم: عبيد محكوم عليهم، وإن أقل القليل فى الأوقات: ليملكهم حتى يقروا الله، تعالى، بالضعف ويسألوه العون فلا تعجب، إذا بدا[١] لك من أحد منهم شيء من ذلك، فهذا النبى، ﷺ يقول: «إنى بشر، اللهم من دعوت عليه فاجعل دعائى عليه: رحمة».

وسمعت بعض العلماء بالله، عز وجل، يقول: إن من شدة اتصال العبد بمولاه، ووجده به، ونزوله فى قربه لا يجد طعم اختلاف الأحكام بل يكون معه النظر الخفى إليها، حتى كأنها على غيره أو بغيره: نازلة.

فهذا: غاية من التلقى للأحكام، فافهم هذا الموضوع وتدبره، فإنه: يؤديك إلى علم السكون إلى الله، عز وجل، إن شاء الله.

وإنما يكون السكون إلى الله تعالى، والطمأنينة: على قدر القرب من القلب.

ومن شرح السكون إلى الله تعالى، فقد حس الأشياء من القلب وسكون دواعى الهم، وهدوء الضمير مع الله وإلى الله تعالى!

فعند ذلك: تكون الأمور من الدنيا والآخرة، وأعمال البر والطاعة: طالبة للعبد ولاحقة به، وإليه واصلة، بل إليه موصولة، لأنه عزف عنها[٢] واستغنى بمالكها فوصلت إليه.

قال الله، عز وجل: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[٣].

وبلغنا: أن الله، عز وجل، أوحى إلى عيسى، عليه السلام: «أنزلنى منك كهمك، واجعلنى ذخراً لك فى معادك»[٤].

---

(١) بدا: ظهر.

(٢) عزف عنها: انصرف عنها.

(٣) سورة الزمر: ٣٦.

(٤) معادك: آخرتك.

وروى عن النبى ﷺ من غير طريق أنه قال: «من جعل الهم هما واحداً[١] كفاه الله سائر همومه».

وروى عن الفضيل بن عياض، رحمه الله، أنه قال: «ما عجبت من عبادة ملك مقرب ولابنى مرسل إذ كان الله عز وجل قواهم على ذلك».

وهكذا من ذكرناه من القوم وصفاتهم.

فمن نظر إلى عبيد الله، تعالى، بنفسه وقياسه، وبأنفسهم ما يشبهم: فهم عنده: فى موضع النقص أبداً.

فإذا نظر إليهم بالله، عز وجل، وبقوته وتدبيره: فما يعجب؟

وبالله التوفيق.

مسألة تدل ما ذكرنا، قلت: فما تقول فى عبد كان لا يتكلم، ولا يتحرك، ولا يعمل عملا، إلا طولب عليه فى ذلك ووجد النقصان؟ ولحقته الفترة والقسوة فى أوقات نيله وأكله وشربه، وكذلك فى جميع أحواله، ثم صار إلى حال يتكلم ويتحرك فى الأمور، ويقبض ويبسط، ويأكل ويشرب ولا يستوحش، ولا يجد مطالبه، ولا يرى نقصاً كما كان يراه قبل؟

فقال: هذه مسألة حسنة فافهمها، فما أحوج المريدين العمال إليها».

إعلم أن المريد الطالب للصدق: فهو عامل فى جميع أموره بالمراقبة لله، عز وجل: بالقيام على قلبه، وهمه[٢] وجوارحه، بالمحاسبة:

«فهو: جامع لهمه حذراً من أن يدخل فى همه ما لا يعنيه، حذراً من الغفلة».

فالحركات، فى ظاهر جوارحه بجوارحه: تنقصه، والهمم الداخلة عليه فى قلبه: تكدر همه[٣]، فهو عند ذلك يتفرغ من الحركات التى ذكرت، وإن كانت فى حق وبحق، وذلك لما غلب على قلبه: من محبته: أن يكون ذكره: دائماً، وهمه: واحدا.

(١) فى روايات أخرى: من جعل الهم هماً واحداً هو المعاد. أو هو التقوى.
(٢) الهم: أول العزيمة.
(٣) همه: انشغاله.

فـإذا دام علـى ذلك: تفطن قلبـه، وصـفت فكرته، وسكن النور قلبـه وقـرب من الله، تعالى، فغلب على قلبه وهمه!

فعند ذلك: يتكلم، والقلب يغلى بالذكر لله، عز وجل، وقد كمنت[١] فى سويداء[٢] قلبه: محبة الله، تعالى، فهى لا زمة للضمير لا تفارقه.

فـمن شأنه فى سرائره: أن يكون ناعـماً بالمخـاطبـة لله الخـفيـة، والمطالعـة الشـجيـة والمحادثة الشهية.

وهكذا يكون فى أكله، وشربه، ونومه، وكل حركاته، لأن قرب الله، تعالى، إذا تمكن فى قلب العبد: غلب على ما سواه: من باطن عوارض الهمم، وظاهر حركات الجوارح، فعندها يكون العبد ذاهباً وجائياً، وآخذ ومعطياً، والغالب عليه هم، ما قد ملك ضميره من محبة الله عز وجل وقربه.

ألم تر نفسك، أيها المريد: كيف تملك قلبك أحياناً هم من أمر الدنيا، فيسلبك عن كل شىء، حتى يكدر عليك العيش، فتكون ساهياً إلا عن ذلك، حتى تفقد النوم؟!

فأمر الله، عز وجل: أحرى عند العقلاء وأولى.

فعندما ذكرنا صحبت العبد من الله، عز وجل، العصمة، فكان محفوظاً من النقصان.

فافهم أيها السائل: ما يلقى إليك، وتدبره، ينفعك إن شاء الله، تعالى

وبعد، فاعرض ما ذكرت لك على ما سألت عنه، فإن أجزاك، وكان ما فقدت وما وجدت من جنس ما ذكرت، فاشكر الله تعالى: يزيدك. ولا يخفى على العلماء ما يحدث عندك، فليس بين المريد ومعلمه رثاء، إن شاء الله تعالى، وأنى بمؤدب بصبر جهد فى زماننا هذا، وبالله التوفيق.

* * *

(١) كمنت: اختفت.

(٢) سويداء قلبه: حبة قلبه.

تم كتاب: «الصدق» للشيخ العارف: «أبى سعيد الخراز»، رحمه الله ونفع بأنفاسه، وسلم عليه سلاماً طيباً مباركاً فيه.

والحمد لله وصلواته: على محمد وآله، وصحبه، وسلم تسليما كثيراً.

كتبه العبد الضعيف الفقير: إسماعيل بن سودكين، رفق الله به، وأخذ بيده، ورحمه، ورحم والديه، وجميع المسلمين.

وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الإمـــام الغـــزالى

والمنقذ من الضلال

الإمــام الغــزالى

-١-

حيــاته

هو: أبو حامد: محمد بن محمد بن محمد الغزالى. ولد بطوس: من إقليم خراسان عام ٤٥٠هـ الموافق عام ١٠٥٨م.

وكان والد - كما يقول ابن السبكى فى طبقاته - يغزل الصوف ويبيعه فى دكانه بطوس، فلما حضرته الوفاة، أوصى به وبأخيه: أحمد، إلى صديق له متصوف، وأعطاه ما ادخره من مال يسير قائلا:

«إن لى لتأسفاً عظيماً على عدم تعلم الخط، وأشتهى استدراك ما فاتنى فى ولديّ هذين».

وأشرف عليهما الوصى الصالح، وعلمهما الخط، وأدبهما، إلى أن فنى ذلك النزر اليسير الذى كان خلفه لهما أبوهما، وتعذر على الصوفى القيام بقوتهما، فقال لهما:

اعلما أنى: قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من أهل التجريد، بحيث لا مال لى فأواسيكما به؛ وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة، فإنكما من طلبة العلم، فيحصل لكما قوت يعينكما وقتكما، ففعلا ذلك، وكان هو السبب فى سعادتهما وعلو درجتهما.

وكان الغزالى يحكى هذا ويقول:

طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله[١].

وفى عهد الصبا فى طوس، أخذ طرفاً من الفقه على أحمد الراذكانى، ثم سافر إلى جرجا، ليأخذ عن الإمام أبى نصر الإسماعيلى، فسمع منه وكتب عنه ثم عاد إلى طوس، فمكث بها ثلاث سنين، يتأمل ويتدبر، ويحفظ ما حصله بجرجان.

(١) من كتاب إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين، للعلامة محمد بن محمد الحسينى الزبيد.

وبعد ذلك «قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين، حتى برع فى المذهب[1]، والخلاف، والجدل، والأصلين[2]، والمنطق، وقرأ الحكمة ، والفلسفة، وأحكم كل ذلك، وفهم كلام أرباب هذه العلوم، وتصدى للرد على مبطليهم، وإبطال دعاويهم[3] ...».

وكان إمام الحرمين يصفه بأنه: «بحر مغرق».

ولما انتهت الحياة بإمام الحرمين (عام ٤٧٨هـ-١٠٨٥م) خرج الغزالى إلى العسكر قاصداً للوزير: «نظام الملك»، «إذ كان مجلسه مجلس أهل العلم ومحط رحالهم ، فناظر الأئمة العلماء فى مجلسه، وقهر الخصوم، وظهر كلامه عليهم، واعترفوا بفضله، فتلقاه الصاحب بالتعظيم وطار اسمه فى الآفاق، واشتهر فى الأقطار».

ولما أصبح بهذه المثابة، اختاره نظام الملك للتوجه إلى بغداد، وذلك للتدريس بالمدرسة النظامية بها، فقدمها فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وقد بلغ الرابعة والثلاثين من عمره المبارك. واستقبل فى بغداد، استقبالا حافلا، فقد سبقته شهرته إليها.

وفى بغداد نال من الاحترام، ما يشبه التقديس . لقد غلبت حشمته الأمراء والملوك والوزراء، على حد تعبير ابن السبكى. وصار - على حد تعبير أحد معاصريه، وهو عبد الغافر الفارسى - بعد إمامة خراسان إمام العراق».

-٢-

ثم ماذا؟

ها هو ذا، قد بلغ قمة المجد، وأتته الدنيا خاضعة ذليلة: أتته من جانبها المالى.

وأتته من جانبها الذى يتصل بالشهوة، وذيوع الاسم.

وأتته من جانبها الذى يتصل بالجاه والنفوذ، حتى إنه ليذكر أن من قرب من الولاة:

---

(١) مذهب الشافعى.

(٢) يعنى أصول الدين وأصول الفقه.

(٣) شرح إحياء علوم الدين للزبيدى.

«كان يشاهد إلحاحهم فى التعلق بى، والانكباب على ، وإعراضى عنهم وعن الالتفات إلى قولهم[١]».

واستمتع الإمام بكل ذلك فترة، لعلها لم تكن طويلة الأمد ...

ثم ماذا؟

ثم كانت انتفاضته العارمة التى انتزعه قسراً وفى عنف، من وسط النعيم والأبهة والمجد ... إلى حيث الانزواء والعزلة، لقد كان ينعم فى الترف الدنيوى، وها هو ذا الآن ذاهب إلى الله. لقد كان يرفل فى رياض من النعيم المادى، وها هو ذا الآن فار إلى ربه، ومهاجر إليه.

ماذا حدث؟

هل حدث هذا الانقلاب الكلى فجأة ودون مقدمات؟

لاشك أن ذلك لم يكن انتفاضة فجائية، كانتفاضة سيدنا عمر بن الخطاب التى اقتلعت – فى دقائق – جذور الشرك من أعماقه، وغرست – فى دقائق – أصول التوحيد فى سويداء فؤاده، فآمن فى لحظة وأناب.

لقد كان الإمام الغزالى، طيلة حياته طلعة يجرى وراء المجهول، وكان، كما يقول عن نفسه:

« ولم أزل فى عنفوان شبابى – منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين – أقتحم لجة هذا البحر العميق[٢]، وأخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل عن كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع.

لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته.

---

(١) المنقذ من الضلال.

(٢) يقصد: بحر المعرفة.

ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته.

ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته؛

ولا متكلما إلا واجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته؛

ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته؛

ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته؛

ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبيه، لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته»؛

ويقول أيضاً:

«قد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى- من أول أمرى وريعان عمرى - غريزة وفطرة من الله، وضعتا فى جبلتى، لا باختيارى وحيلتى، حتى انحلت عنى رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة، على قرب عهد سن الصبا».

ومن أجل ذلك يقول عنه «دى بور».

«وقد وهب هذا الفتى عقلاً متوثباً، قوى الخيال، لا يرضى بأى قيد يغله».

ولكن هذا النهم فى البحث وهذا الاستقصاء فى الدراسة، وهذه العقلية الجريئة الناقدة، كل ذلك: انتهى به لى الشك فى ما يرى ويسمع ويقرأ، وفيما يقول ويعتقد.

وكان هذا الشك عنيفاً، حاداً، شاملا، عاماً، طيلة شهرين هو فيها: «على السفسطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال».

ولكن هذا الشك المطلق الشامل العام تبخر وزال، لا بنظم دليل وترتيب كلام؛ «بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر».

-٣-

زال ذلك الشك، ليحل محله شك آخر هين سهل. وهذا الشك الثانى إنما هو شك فى طريق النجاة، **إنه الآن يؤمن بالله وبالرسالة وبالبعث ولكن ما هى الكيفية التى يتكيف بها الإيمان، فيما يتعلق بهذه الجوانب الثلاثة؟**

هذه الكيفية، إذا وضحت ، تحدد النهج الذى يجب أن يسير عليه.

ودراسته المستفيضة: بينت له أن كل فريق من الباحثين - على كثرتهم وإختلافهم: «يزغم أنه الناجى وكل حزب بما لديهم فرحون».

أىّ هذه الأحزاب محق، وأيها مبطل؟

ذلك هو: ما أخذ الإمام الغزالى نفسه باستكشافه.

ورأى أن أوضح طريق وأسهله، أن يحصر أصناف الطالبين للحق، ويدرسهم صنفاً صنفاً، أو فرقة فرقة.

وانحصرت الفرق عنده فى أربع:

١- «المتكلمون: وهم يدّعون، أنهم أهل الرأى والنظر.

٢- «الباطنية: وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الامام المعصوم.

٣- «الفلاسفة: وهم يزعمون، أنهم أهله المنطق والبرهان.

٤- «الصوفية: وهم يدعون، أنهم خواص الحضرة، وأهل المشاهدة والمكاشفة». أهـ

هؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق، والحق إذن: لا يعدو هذه الأصناف الأربعة.

وشمر الإمام الغزالى عن ساعد الجد، لدراستها، وابتدأ بعلم الكلام، فوجده لا يشفى غلته، ذلك أن أكثر خوض المتكلمين إنما هو:

«فى استخراج مناقضات الخصوم، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم. وهذا قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلا».

وثنى بدراسة الفلسفة، وأطلعه الله على منتهى علوم الفلاسفة فى أقل من سنتين، ثم أخذ يفكر فيما انتهى إليه قريباً من سنه: يعاوده ويردده ويتفقد غوائله، وأغواره حتى اطلع على ما فيه من خداع وتلبيس، وتخييل فرأى أن مجموع ما صح ينحصر فى ثلاثة أقسام:

١- قسم يجب التكفير به.

٢- وقسم يجب التبديع به.

٣- وقسم لا يجب انكاره: فمثل:

١- العلوم الرياضية.

٢- المنطقيات.

٣- العلوم السياسية.

٤- العلوم الخلقية.

٥- «أما الطبيعات: فلا إنكار فيها إلا فى مسائل معينة، ذكرتها فى كتاب «تهافت الفلاسفة» وأكثر أغاليطهم إنما هى فى:

٦- الإلهيات.

ومجموع ما غلطوا فيه: يرجع إلى عشرين أصلا، يجب تكفيرهم فى ثلاثة منها، وتبديعهم فى سبعة عشر».

وانصرف الإمام الغزالى عن الفلسفة، لأن العقل:

«ليس مستقلا بالإحاط بجميع المطالب، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات».

فأخذ يدرس مذهب التعلمية، وهو مذهب يقوم على القول بـ«الحاجة إلى التعليم والمعلم» وأنه: «لا يصلح كل معلم، بل لا بد من معلم معصوم».

وقد نقد الإمام الغزالى مذاهبهم فى قوة وفى عنف وألف كثيراً من الكتب فى الرد عليهم.

ولما انتهى من كل ذلك، أقبل جهده على طريق الصوفية.

وطريق الصوفية: علم وعمل، وابتدأ بتحصيل علمهم: من مطالعة كتب أئمتهم، مثل «قوت القلوب»، لأبى طالب المكى، رحمه الله، وكتب «الحارث المحاسبى»، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد، والشبلى، وأبى زيد البسطامى، قدس الله أرواحهم وغير ذلك من كلام مشايخهم»أهـ.

ولكن طريق الصوفية، لا يتم بالعلم فحسب ، بل إن العلم فيه : أقل جانب من جوانبه، أما الجانب الذى يصل بالإنسان إلى النور والإشراق واليقين، إنما هو: الجانب العملى، وهذا يحتاج إلى الإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، وذلك يقتضى الإعراض عن المال، والجاه، والشهوة، وذيوع الصيت ويقتضى الخلوة فترة تطول، أو تقصر، يتفرغ فيها الإنسان تفرغاً كاملا إلى الله مهاجراً إليه، فاراً إليه.

وكان الإمام الغزالى: إذ ذاك ، منغمساً فى المال والجاه والشهرة. وبدأ الصراع فى نفسه بين الشهوات والدنيا من جانب، وبين التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود من جانب آخر.

ولم يزل يتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعى الآخرة قريباً من ستة أشهر، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وانتهى الأمر فى هذا التجاذب بأن اعتقل لسانه عن التدريس، وغمر قلبه حزن أثر على صحته، فضعفت قواه، ثم يحدثنا هو عما فعل حينئذ:

«ثم لما أحسست بعجزى، وسقط بالكلية اختيارى التجأت إلى الله، تعالى؛ التجاء المضطر، الذى لا حيلة له، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبى الإعراض عن الجاه، والمال والأولاد، والأصحاب». أهـ.

- ٤ -

تلطف الإمام الغزالى بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد مظهراً عزم الخروج إلى مكة؛ وهو يدبر فى نفسه السفر إلى الشام. وسار يحدوه الأمل العذب فى المعرفة، ويغمر قلبه الرجاء القوى فى الفتح: يتفضل الله به عليه ، كما تفضل على من سلف الأولياء والعارفين.

حتى إذا ما وصل إلى الشام، أقام به قريباً من سنتين لا شغل له إلا العزلة ، والخلوة، والرياضة والمجاهدة: **اشتغالا بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب لذكر الله، تعالى، وكان يعتكف فى منارة مسجد دمشق طول النهار ويغلق بابها على نفسه.**

ثم رحل من الشام إلى بيت المقدس، فكان يدخل، كل يوم، الصخرة ويغلق بابها على نفسه، ثم صار إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وزيارة الرسول ، صلوات الله عليه.

ثم عاد إلى وطنه، ملازماً بيته، مشتغلا بالتفكير.

ولقد كان، فى حله وترحاله مؤثراً العزلة، حرصاً عى الخلوة، وتصفية القلب للذكر... ودام ذلك كله ما يقرب من عشر سنوات، انكشف له فى خلوته أثناءها، أمور لا يمكن إحصاؤها، وأفاض الله عليه من النور الإلهى، وغمرته ألطاف الله، وترقى به الحال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، وكتاب الإحياء من ثمار هذه الفترة.

-٥-

كتبـــه:

ولقد ألف الإمام الغزالى عشرات الكتب، عدا منها صاحب طبقات الشافعية ما يقرب من ستين كتاباً.

وعد منها شارح الإحياء الإمام الزبيدى ما يقرب من ثمانين كتاباً ورسالة:

منها فى الفقه: الوجيز، الوسيط، والبسيط.

ومنها فى علم الكلام: الاقتصاد فى الاعتقاد.

ومنها فى الفلسفة مقاصر الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة.

ومنها فى التصوف : بداية الهداية، ومنهاج العابدين، وكتاب الإحياء.

بيد أننا، إذا تصفحنا مؤلفات الإمام الغزالى – سواء منها ما ألف قبل فترة تصوفه وما ألف فى أثنائها – فإننا نجد أن أهمها فى نظر الباحث الذى يريد أن يحدد شخصيته ومنهجه واتجاهه ثلاثة:

وهى ، فضلا عن ذلك : تعتبر فى نظرنا أهم كتبه على الإطلاق.

ولو لم يؤلف الإمام الغزالى غيرها، لبقى هو الغزالى العملاق، الصوفى الفيلسوف

بطابعه وسماته وشخصيته، لا ينقص شيئاً... ولكنه لو لم يؤلفها لما كان هو الإمام الغزالى صاحب الأثر الخالد على الدهر.

١ – أما أحدها، فإنه: كتاب المنقذ من الضلال.

وهو كتاب لا غنى للباحث فى تطور حياة الغزالى الفكرية عنه، ففيه يقص الإمام حياته الفكرية، فى تطورها: من الدراسة المستفيضة إلى الشك، ثم إلى اليقين.

ويحدد موقفه من علم الكلام، ومن مذهب التعلمية، ومن الفلسفة والفلاسفة، ثم من التصوف.

وفيه يبين موقفه من مسألة النبوة، ومن الشكوك التى ترد عليها، ويبين الطريق الصواب لإحياء الشعور الدينى حينما يفتر عند بعض الناس.

وهو من الكتب التى يندر ما يماثلها فى ثقافتنا الشرقية، إذ أن كبار المفكرين عندنا، لم يتجهوا إلى تسجيل تدرجهم الفكرى، وانتفاضاتهم الذهنية.

ولم يسبق الغزالى – فيما نعلم – فى هذا النهج سوى الحارث بن أسد المحاسبى فى مقدمة كتاب: الوصايا: فإنه قص فيه طرفاً من حيرته وشكه الهين السهل، ثم يقينه الذى انتهى إليه، وقد قرأ الإمام الغزالى كتب الحارث وانتفع بها، وربما كانت مقدمة كتاب الوصايا: من العوامل التى دفعت الإمام الغزالى إلى كتابه المنقذ.

وقد كتبه الإمام الغزالى بعد أن أناف سنه على الخمسين، كما يذكر هو.

٢ – وأما ثانيها فإنه «تهافت الفلاسفة».

وهو كتاب تدل تسميته على ما يقصد به ، فإن الإمام الغزالى ، حينما سمى كتابه: تهافت الفلاسفة – كما يقول «أزين بلاسيوس» – كان يريد أن يمثل لنا: أن العقل الإنسانى، يبحث عن الحقيقة، ويريد الوصول إليها، كما يبحث البعوض عن ضوء النهار، فإذا أبصر شعاعاً، يشبه نور الحقيقة، انخدع به، فرمى بنفسه عليه، وتهافت فيه، ولكنه يخطئ مخدوعاً بأقيسة منطقية خاطئة، فيهلك كما يهلك البعوض.

فكأن الغزالى يريد أن يقول:

إن الفلاسفة خدعوا بأشياء أسرعوا إليها بلا إعمال روية، فتهافتوا، وهلكوا الهلاك الأبدى.

وقد حاول «بلاسيوس» أن يجد فى عبارات كتاب: التهافت، وفى استعمال ابن رشد، لهذه لكلمة، ما يؤيد افتراضه»[١].

ومما لا شك فيه، أن كتابه: محاولة جريئة كل الجرأة، موفقة كل التوفيق.

ولما كان المقصد الأول والهدف الأساسى، لهجومه، هو هدم الآراء فى نفسها، إذ أن بعضها صحيح موافق للدين.

وإنما كان هدف الإمام الغزالى: هوالمنهج العقلى الذى استندت إليه هذه الآراء.

فخلود النفس مثلا: رأى يقول به الإمام الغزالى، ويقول به الفلاسفة ولكن الإمام حمل معولاً، وأخذ يهدم بيد قوية، المسلك العقلى، الذى أثبت به الفلاسفة خلود النفس، فانهارت أدلتهم وتهافتت.

لقد فعل ذلك مع إيمانه بالخلود.

وهو لم يلتزم فى الكتاب إلا تكدير مذهبهم، والتغيير فى وجوه أدلتهم، بما يبين تهافتهم[٢].

ومقصوده: تنبيه من حسن اعتقاده فى الفلاسفة ، وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض، ببيان وجوه تهافتهم.

ويقول:

«أنا لا أدخل فى الاعتراض عليهم إلا دخول مطالب منكر، لا دخول مدع مثبت، فابطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعاً بالزامات مختلفة، فألزمهم، تارة ، مذهب المعتزلة، وأخرى، مذهب الكرامية، وطوراً مذهب الواقفية، ولا أنتهض ذاباً عن مذهب مخصوص».

---

(١) من كتاب تاريخ الفلسفة فى الاسلام، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة.

(٢) من كتاب: التهافت.

ولقد وفق الإمام الغزالى توفيقاً تاماً، فيما انتدب نفسه إليه فى هذا الكتاب، وهو: إثبات أن العقل – إذا لم يتخذ الوحى هادياً ومرشداً– عاجز كل العجز عن الوصول إلى المعرفة الصحيحة فيما وراء الطبيعة.

٣– أما ثالث الكتب فإنه: «الإحياء».

وهو أهمها، وأهم كتب الإمام الغزالى عامة، ولقد قال فيه الإمام النووى: «كاد الإحياء يكون قرآناً».

وقد ألفه الإمام الغزالى، فى أوائل الفترة التى اصطحب فيها مع العزلة ومما يؤيد ذلك ما رواه الإمام أبو بكر بن العربى فى كتابه: «القواصم والعواصم» من أنه التقى بالإمام بمدرسة السلام فى جمادى الآخرة سنة تسعين وأربعمائة: وقد كان راض نفسه بالطريقة الصوفية، من سنة ست وثمانين ؛ إلى ذلك الوقت: نحواً من خمسة أعوام .. فقرأت عليه جملة من كتبه، وسمعت كتابه الذى سماه: «الإحياء لعلوم الدين ...».

أما فيما يتعلق بالبواعث التى من أجلها ألف الإمام: «كتاب الإحياء»

وأما فيما يتعلق بالهدف الذى من أجله ألف كتاب الإحياء.

وأما فيمايتعلق بجوهر موضوعه ... فإن ذلك كله يتلخص فى كلمة واحدة هى: الإخلاص .

ولقد روى ابن الجوزى: أن بعض أصحاب أبى حامد، سأله قبيل الموت قائلاً: أوصنى، فقال له: «عليك بالإخلاص» ولم يزل يكررها حتى الموت.

عليك بالإخلاص !! لقد تلفت أبو حامد يوماً إلى نفسه، فوجد أنه متجرد من الإخلاص، وأن كل همه، إنما هو الشهرة والصيت والجاه، والمنزلة عند الناس وعند الحكام ... وانتقض أبو حامد انتفاضاته التى وضع بها نفسه فى محيط الإخلاص.

وتلفت أبو حامد – بعد ذلك – فيما حوله، فوجد أن الناس: صم، وبكم، عمى، عن قوله تعالى:

«ألا لله الدين الخالص»، وعن قوله تعالى: «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين» وقوله تعالى:

«فادعوا الله مخلصين له الدين».

وغيـر ذلك من الآيات الكثيـرة التى تدعوا إلى الإخلاص فى الدين، وإلى إخلاص الدين لله وحده، وهى فى دعوتها إلى الإخلاص: إنما تدعو إلى التوحيد.

ووجد أن الشيطان: قد استحوذ على أكثر الناس، واستغواهم الطغيان وأصبح الدين - فى نظر علمائه فضلا عن غيرهم-: فتوى حكومة، أو جدلا لمباهاة والغلبة والإفحام أو سجعاً مزخرفاً يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام.

لما رأى أبو حامد ذلك ألف كتابه النفيس.

وألفه ليستعيد الإخلاص إلى القلوب، ليستعيد ما درج عليه السلف الصالح: من اتخاذ الإخلاص أساساً وشعاراً، وما من شك فى أن إخلاص الدين لله وحده هو التوحيد، وما من شك فى أن التوحيد: هو جوهر الدين الإسلامى وهو طابعه، وهو هدفه وغايته.

وألف الإمام كتابه إذن ليبين فيه الإخلاص أسساً ونتائج، وأسباباً وغايات.

ورتب الكتاب أقساماً، والأقسام كتباً، والكتب أبواباً والأبواب فقرات ... كل ذلك ليسهل تناوله.

فأما أقسام الكتاب فهى أربعه:

١- قسم العبادات: يذكر فيه من خفايا آدابها، ودقائق سننها وأسرار معانيها: كل ما يحتاج العالم العامل إلى معرفته: من وجوه الإخلاص فيها، وإقامتها على الأسس التى يحبها الله، سبحانه، ورسوله ﷺ.

٢- قسم العادات: يذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق، وأغوارها، ودقائق سننها، وخفايا الورع فى مجاريها، وذلك مما لا يستغنى عنه متدين.

٣- قسم المهلكات: وهى الأخلاق المذمومة التى ورد القرآن بتطهير القلب منها: يعرف بها، ويذكر أسبابها وما ينشأ عنها من مضار، ثم يذكر طرق العلاج منها.

٤- قسم المنجيات: يذكر فيه كل خلق محمود ويشرح الوسائل التى بها يكتسب، والثمار التى تجن من التخلق به.

وهو فى كل هذه الأقسام: يبتدئ كل موضوع يعالجه بذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والآثار عن الصحابة والتابعين، وأخبار الصالحين.

٤- تحليل كتاب الإحياء:

ويفتتح كتابه: «بكتاب العلم» فيسير فيه على حسب طريقته المحددة: «شواهد الآيات، والأخبار، والآثار» «وشواهد الشرع والعقل».

لقد «شهد الله ، أنه لا إله إلا هو، والملائكة ، وأولو العلم، قائماً بالقسط» فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى، بنفسه، وثنى بالملائكة، وثلث بأهل العلم وناهيك بهذا شرفاً ، وفضلاً، وجلالاً ونبلاً.

ويقول، صلوات الله عليه: «العلماء ورثة الأنبياء» ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة.

وقال الأحنف، رحمه الله: «كاد العلماء يكونون أربابا».

والعلم الذى يريده الإمام الغزالى، أوسع دائرة وأعم موضوعاً مما نسميه العلم الآن: إذ أن العلم الذى يريده الإمام الغزالى إنما هو: علم الدين والدنيا، ولا يحرم الإمام الغزالى منه إلا ما يضر المجتمع، كعلم السحر مثلا: فإذا أدى العلم إلى ضرر ما إما لصاحبه أو لغيره كان مذموماً.

والهدف من العلم، على كل حال: زيادة الهداية وغرس الإخلاص فإن من ازداد علماً ولم يزدد هدى، لم يزدد من الله إلا بعداً.

ولابد للإخلاص من معرفة العقائد الصحيحة، ولذلك يثنى الإمام الغزالى بكتاب: (قواعد العقائد) وقواعد العقائد تدور حول ثلاث مسائل:

١- الله وصفاته، والأساس فيه: أنه ليس كمثله شيئ، وأنه منصف بكل صفات الكمال: كالحياة والقدرة، والعلم الشامل، والإرادة الكاملة وغير ذلك من صفات الجلال والجمال.

٢- وأنه سبحانه: بعث محمداً ﷺ، برسالته إلى كافة العرب والعجم، فنسخ بشريعته الشرائع، إلا ما قرره منها، ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد، وهو قول: لا إله إلا الله ما

لم تقترن بشهادة الرسول، وهو قولك: محمد رسول الله ، ألزم الخلق تصديقه فى جميع ما أخبر به من أمور الدنيا والآخرة.

وسواء كنا بصدد معرفة وجوده، تعالى، أو معرفة صفاته، أو معرفة أحوال الآخر، أو معرفة صدق الرسول، صلوات الله عليه، فإن أول ما يستضاء به من الأنوار، ويسلك من طريق الاعتبار: ما أرشد إليه القرآن، فليس بعد بيان الله، سبحانه بيان، وفى القرآن إرشاد واستدلال واضح على كل ذلك.

ويتهيأ الإنسان للإخلاص بالطهارة، والطهارة ظاهرية وباطنية، وقد أطال الإمام الغزالى فى الطهارة الباطنية، وسنتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله تعالى، أما الطهارة الظاهرية، فمنها الوضوء فإن: (من توضأ فأحسن الوضوء، وصلى ركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشيء من الدنيا خرج من ذنوبه، كيوم ولدته أمه).

والوضوء على الوضوء: نور على نور، بيد أن الوضوء إنما شرع من أجل الصلاة، والصلاة: إنما هى الباب الذى يدخل منه الإنسان إلى الله، سبحانه وتعالى: يناجيه، وينغمس فى رحابه، ويستنير بنوره ، وهى من أجل ذلك، كانت عماد الدين، وعصام اليقين، ورأس القربات، وغرة الطاعات، وكانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً، وإنها لتنهى عن الفحشاء والمنكر، وهى كذلك، بشرط الخضوع وحضور القلب، وهذا هو معنى الإقامة فى قوله تعالى: (أقم الصلاة) أما من لم يكن كذلك فى صلاته، فإنه يدخل تحت قوله، صلوات الله عليه: (كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب) وما أراد، صلوات الله عليه، بذلك إلا الغافل، أما إذا خشع فى صلاته، فإنه يدخل فى دائرة قوله تعالى: ﴿ قد أفلح المؤمنون، الذين هم فى صلاتهم خاشعون﴾.

ويقرن الله، سبحانه، الزكاة بالصلاة فى غير ما وضع: (أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وقد جعلها الله تزكية، وبفضلها تزكى من عباد الله من تزكى، وقد شدد الله الوعيد على المقصرين فيها فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. **ومعنى الإنفاق فى سبيل الله: إخراج حق الزكاة، والزكاة نوع من تجريد الإنسان عن جزء من المادة بعد امتلاكه، ذلك من أجل الله.**

والصوم: باب العبادة وباب الإخلاص فإذا ما صام الإنسان إيماناً واحتساباً، باهى الله به ملائكته، وكانت كل حركاته عبادة حتى نومه.

والصوم: ثلاث درجات: صوم العموم: وهو: كف البطن والفرج عن قضاءالشهوة، وصوم الخصوص، وهو: كف الجوارح عن الآثام، وصوم خصوص الخصوص: وهو: صوم القلب عن الهمم الدنية، والأفكار الدنيوية. وكفه عما سوى الله، عز وجل، بالكلية. ويكفى فى فضل الحج ما رواه الشيخان: البخارى ومسلم: (من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه).

والقرآن: كتاب الإسلام المنزل، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، من تمسك به هدى، ومن عمل به فقد فاز، ولقد قال، صلوات الله عليه:

(أهل القرآن أهل الله وخاصته) والقرآن: رسائل أتتنا، من قبل ربنا، بعهوده، نتدبرها فى الصلوات، ونقف عليها فى الخلوات، وننفذها فى الطاعات والسنن المتبعات، وهو شفاء ورحمة للمؤمنين، وتلاوته إذن مطلوبة: جلاء القلوب، وشفاء لما فى الصدور، وغرساً للإخلاص. وتثبيتاً للتوحيد.

والقرآن نوع من الذكر والدعاء، وقد حث الله على الذكر فى قوله تعالى ﴿فاذكرونى أذكركم﴾، وفى قوله تعالى: ﴿اذكروا الله ذكراً كثيراً، والمخلص يذكر الله على الدوام مع حضور القلب، فأما الذكر باللسان، والقلب لاه فهو قليل الجدوى.

ولقد فضل رسول الله ﷺ قول : «لا إله إلا الله» على سائر الأذكار، لأنها عنوان الإخلاص، ودليل التوحيد.

ومن الذكر: الصلاة على سيد المرسلين: «إن الله وملائكته يصلون على النبى، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما».

ومن الذكر الدعاء، والدعاء مخ العبادة، يقول الله تعالي: «وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب، أجيب، دعوة الداع إذا دعان»

ولكن لابد للإجابة من التوبة، ورد المظالم، والاقبال بكنه الهمة على الله عز وجل، فذلك هو السبب القريب فى الإجابة.

وبعد أن ينتهى الإمام الغزالى بذلك من ربع العبادات يبدأ فى ربع العادات، فيبين فيه آداب الأكل، وآداب النكاح، ثم يبين آداب الكسب والمعاش، ويتحدث عن فضيلة العمل، وعن الآثار الكثيرة: قرآنية ونبوية فى فضل العمل، وفى استقامة العمال، والتجار: فمن الذنوب: ذنوب، لا يكفرها إلا الهم فى طلب المعيشة والتاجر الصدوق يحشر، يوم القيامة مع الصديقين والشهداء.

ويخلص من ذلك إلى كتاب جليل نفيس هو: «كتاب الحلال والحرام» والحلال كله طيب ولكن بعضه أطيب من بعض، والحرام كله خبيث، ولكن بعضه أخبث من بعض.

ويفصل الإمام كل ذلك لينتهى إلى «كتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة..» وأساسه حسن الخلق، والتأسى فيه بالرسول الذى يقول الله له: «وإنك لعلى خلق عظيم» وقد بعث، صلوات الله عليه، ليتمم مكارم الأخلاق.

فإذا ما كان حسن الخلق كانت الأخوة، وفائدة الأخوة، كما يريدها الدين، عظيمة.

ولقد قال، صلوات الله عليه فى الثناء على الأخوة فى الدين: «من أراد الله به خيراً رزقه خليلا صالحاً، إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه».

ومن أروع ما قاله، صلوات الله عليه فى ذلك: مثل الأخوين، إذا التقيا مثل اليدين: تغسل إحداهما الأخرى، وما التقى مؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيراً.

ثم يتحدث عن العزلة والاختلاط مبينا الآراء فى كل منهما لينتهى إلى أن كلام الشافعى، رحمه الله فى هذا الموضوع هو فصل الخطاب، إذ قال «يايونس، الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانبساط إليهم، مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط» فذلك يجب الاعتدال فى المخالطة والعزلة ويختلف ذلك بالأحوال، وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل، هذا هو الحق الصراح. وكل ما ذكر سوى هذا فهو قاصر وإنما هو إخبار كل واحد عن حالة خاصة هو فيها، ولا يجوز أن يحكم على غيره المخالف له فى الحال.

والسفر للعظة والاعتبار من أعظم ما يفيد الإنسان فى جانبه الروحى، ولكن السفر قد يكون بسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات وهو أشرف من السفر بظاهر

البدن، ويجمع السفرين ويحث عليهما قوله تعالى ﴿وفى الأرض آيات للموقنين، وفى أنفسم أفلا تبصرون؟﴾.

وينتهى الامام فى «كتاب السماع والوجد» بالحكم الرزين المنطقى، وهو أن سماع الغناء قد يكون حراماً، وقد يكون مباحاً، وقد يكون مكروهاً. وقد يكون مستحباً.

أما الحرام، فهو لأكثر الناس من الشبان ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا، فلا يحرك السماع منهم، إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة.

أما المكروه: فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين، ولكنه يتخذه عدة له فى أكثر الأوقات على سبيل اللهو.

وأما المباح : فهو لمن لاحظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن.

وأماالمستحب: فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ولم يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة.

ولابد – لاستمرار الدين حياً فى النفوس– من القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون».

وبعد أن بين الإمام مواقف العلماء الرائعة، وجهادهم فى سبيل الله، ختم الفصل بقوله: فهذه كانت سيرة العلماء وعادتهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين، لكنهم اتكلوا على فضل الله، تعالى، أن يحرسهم، ورضوا بحكم الله تعالى، أن يرزقهم الشهادة، فلما أخلصوا لله النية، أثر كلامهم فى القلوب القاسية فلينها، وأزال قساوتها، وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا، وإن كلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم، لأفلحوا، ففساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك ، بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه.

ويختم الإمام الغزالى ربع العادات بكتاب: «آداب المعيشة وأخلاق النبوة» فيبين ما كان عليه الرسول ، عليه السلام، من خلق: هو كما فى القرآن.

ويشرح، فى استفاضة، ما يوضح قول الله، تعالى، لرسوله: «وإنك لعلى خلق عظيم.

ويبتدئ ربع المهلكات بكتاب من أنفس الكتب، لاغنى عنه قط، لمن يريد أن يعالج التصوف عملياً، أو أن يقتنع بحقيقته نظريا، ذلك هو كتاب شرح عجائب القلب» وأهميته ترجع إلى أن القلب: هو العالم بالله، وهو المتقرب إلى الله، وهو العامل لله، وهو الساعى إلى الله، وهو المكاشف بما عند الله ولديه.

فإذا تساءلت : ما معنى القلب الذى له هذه المنزلة؟ فإنه:

«هو لطيفة ربانية روحانية، لها بهذا القلب الجسمانى تعلق، وتلك اللطيفة هى حقيق الإنسان، وهو المدرك، العالم، العارف، وهو المخاطب والمعاتب والمطالب».

وفى النصوص التى ذكرناها فيما بعد ما يغنى عن تلخيص هذا الكتاب.

ويتلو ذلك: كتاب رياضة النفس ، وتهذيب الأخلاق.

ومن هذا العنوان وحده تفهم أن الإمام الغزالى، مزج بين رياضة النفس وتهذيب الأخلاق، أو بتعبير آخر، جعل رياضة النفس تهذيباً للأخلاق.

والخلق الحسن: إنما هو صفة سيد المرسلين، وأفضل أعمال الصديقين وهو على التحقيق شطر الدين، وثمرة مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين.

ولقد كان صلوات الله عليه، يقول: إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً».

وأعظم المهلكات، لإبن آدم شهوة البطن؛

فلابد من كسر هذه الشهوة، ومما يساعد على كسرها، ألا يأكل الإنسان إلا حلالا، وألا يجعل الأكل هدفاً وغاية، والأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل، أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا يحس بألم الجوع، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلا، فإن مقصود الأكل بقاء الحياة، والقوة على العبادة، وثقل المعدة يمنع من العبادة، وألم الجوع أيضاً يشل القلب ويمنع منها.

ثم يتحدث الإمام عن «آفات اللسان»:

وما من شك فى أن اللسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، ولكن الناس، تساهلوا فى الاحتراز عن آفاته وغوائله، وهى كثيرة، وما من شك فى أن من أسباب النجاة: ما نصح به الرسول، عليه الصلاة والسلام فى قوله: «أمسك عليك لسانك».

والكذب، والغيبة، والنميمة، والاستهزاء، والسخرية: كل ذلك: من آفات اللسان، والمثل العربى يقول: «مقتل الرجل بين فكيه» والطريقة المثلى: ألا يتحدث الرجل بما يغضب الله.

ومن الآفات التى تفسد على الناس أمورهم: «الغضب». وقد روى أبو هريرة، أن رجلا قال: يارسول الله، مرنى بعمل وأقلل، فقال له، صلوات الله عليه: «لاتغضب» فأعاد الرجل السؤال، فقال له: «لاتغضب».

ومما يزيل الغضب الجلوس إذا كان الإنسان قائماً، والاضطجاع إذا كان جالساً.

ومما يزيل الغضب: الوضوء والاغتسال.

ومما يزيله: السجود.

ألا إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدام، ألا ترون إلى حمرة عينيه، وانتفاخ أوداجه؟: فمن وجد من ذلك شيئاً فليلصق خده بالأرض»، وهذه إشارة إلى السجود.

وحب الدنيا رأس كل خطيئة، ولا يزال ابن آدم يجرى وراءها فى جشع وفى تكالب فتستعبده إلى أن يهلك، والمؤمن يستعبد الدنيا، فتذل له فيتخذها مطية للآخرة.

ومحب الدنيا بخيل، لأنه متكالب عليها، وقد روى بسند صحيح عن رسول الله ﷺ:

«إن الله، عز وجل، يقول: إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ولو كان لابن آدام واد من ذهب، لأحب أن يكون له ثان، ولو كان له الثانى، لأحب أن يكون له ثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب».

أما المقياس الصحيح، فهو قوله تعالى: «ومن يوق شح نفسه، فأولئك هم المفلحون».

وحب الجاه، والرياء، والكبر، والعجب، والغرور: كلها: من الآفات التى يجب أن يتخلى عنها المؤمن، إذا أراد أن يخلص لله نيته وقصده.

أما إذا وصلنا إلى ربع المنجيات ، فقد وصلنا إلى درة التاج، وإلى النور الهادى، وإلى صفاء الصفاء!!!

ويبتدئ هذا القسم، أول ما يبتدئ بـ «التوبة»: فإن التوبة عن الذنوب: بالرجوع إلى ستار العيوب؛ وعلام الغيوب، مبدأ طريق السالكين ورأس مال الفائزين ، وأول إقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاستصفاء والاجتباه للمقربين.

ووجوب التوبة: ظاهر بالأخبار والآيات، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته، وشرح الله بنور الإيمان صدره:

«يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً».

أما وجوب التوبة على الفور، فلا يستراب فيه:

ومهما يكن من شيء، فـ«إن الله يحب التوابين، ويحب المتطهرين» ويقول، صلوات الله عليه:

«لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل فى أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش، أو ما شاء الله قال: أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ فإذا راحلته عنده، عليها زاده وشرابه، فالله تعالى، أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته».

والإيمان: «نصفان»: نصف صبر، ونصف شكر، لقد وردت بذلك الآثار، وشهدت به الأخبار، وقد وصف الله الصابرين، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر، وجعلها ثمرة له، فقال تعالى:

«إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب»، وقال صلوات الله عليه: «الصبر نصف الإيمان»، وقال:

«الصبر كنز من كنوز الجنة».

ونعم الله على المرء لا تحصى، وواجب الإنسان نحو النعم بهذه النعم هو الشكر ، والشكر نفسه، سبب فى زيادة النعم، يقول تعالى:

لئن شكرتم لأزيدنكم».

والرجاء والخوف: جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كئود.

ويقرن الإمام الغزالى الفقر بالزهد، والزهد فى الدنيا: مقام شريف من مقامات السالكين، وهو تحقيق لقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

والزهد إذن قوة، لأنه يبيع النفس، والمال لله، وتجرد فى سبيله.

والتوكل، منزل من منازل الدين ومقام من مقامات المؤمنين، بل هو من معالى درجات المقربين، وهو ثمرة من ثمار التوحيد، فمن وحد الله حق توحيده توكل عليه:

«أليس الله بكاف عبده».

أما محبة الله، فإنها الغاية القصوى من المقامات. والذروة العليا من الدرجات، ومن ثمارها: الشوق، والأنس، والرضا، وليس قبل المحبة مقام، إلا وهو مقدمة من مقدماتها: «كالتوبة، والصبر، والزهد، وغيرها» فهى واسطة العقد، ودرة القلادة.

«والذين آمنوا أشد حباً لله».

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله، أحب إليه مما سواهما».

وقد انكشف لأرباب القلوب، ببصيرة الإيمان، وأنوار القرآن: أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة.

فالناس كلهم: هلكى إلا العالمون. والعالمون كلهم: هلكى إلا العاملون والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون: على خطر عظيم.

فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص: رياء، وهو للنفاق كفاء ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق: هباء. وقد قال الله تعالى فى كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً:

(وقدمنا إلى ما عملوا من عمل، فجعلناه هباء منثوراً) . ويقول، صلوات الله عليه:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله: فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»،

ومن راقب الله فاز، ومن حاسب نفسه نجا.

وقد وردت السنة: بان تفكر ساعة: خير من عبادة سنة، وكثر الحث فى كتاب الله، تعالى، على التدبر والاعتبار، والنظر والافتكار، ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار، ومبدأ الاستبصار: وهو شبكة العلوم. ومصيدة المعارف والفهوم.

وقد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر فى كتابه العزيز فى مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾.

وقد روى أن رسول الله ﷺ: بكى حينما نزلت هذه الآية وقال:

(ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها) .

ومما يعين – على وجه العموم–: التفكر فى الموت وما بعده، والكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، يقول، صلوات الله عليه:

(كفى بالموت واعظاً» .

ويختم الإمام الغزالى كتابه بقوله:

وروى أنه وقف صبى فى بعض المغازى ينادى عليه –لبيعه– فيمن يزيد فى يوم صائف شديد الحر، فبصرت به امرأة فى خباء القوم، فأقبلت تشتد، وأقبل أصحابها خلفها حتى أخذت الصبى وألصقته إلى صدرها، ثم ألقت ظهرها على البطحاء، وجعلته على بطنها تقيه الحر، وقالت: إبنى، إبنى، فبكى الناس وتركوا ما هم فيه. فأقبل رسول الله ﷺ، حتى وقف عليهم، فأخبروه الخبر، فسر برحمتهم، ثم بشرهم فقال:

(أعجبتم من رحمة هذه لابنها) قالوا: نعم، قال رسول الله ﷺ:

(إن الله تبارك وتعالى: أرحم بكم جميعاً من هذه بابنها).

فتفرق المسلمون على أفضل السرور وأعظم البشارة.

فهذه الأحاديث وما أوردناه فى: (كتاب الرجاء) يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى، فنرجوا من الله تعالى، ألا يعاملنا بما نستحقه، ويتفضل علينا بماهو أهله. يمنه وسعة جوده ورحمته).

٥- أثر الإحياء:

أما أثر هذا الكتاب فى العالم الإسلامى: فقد كان ضخماً؛ لقد شرح واختصر عدة مرات، وانتقده الكثيرون، ودافع عنه الكثيرون، وترجم الكثير منه إلى الإنجليزية، والفرنسية، والأسبانية، وغير ذلك من اللغات الحية: شرقية وغربية.

ومخطوطاته: التى بمكتبات العالم، لا تكاد تحصر، وقد طبع فى القاهرة وحدها ما يقرب عن عشرين طبعة، وطبع فى الهند، وفى تركيا، وفى فارس.

ولايزال الكتاب للآن فى العالم الإسلامى مصدر إلهام ونور، ودراسة تختلف نتائجها، لاختلاف نزعات الدارسين.

ولايزال فى القطر المصرى جماعات تعقد حلقات أسبوعية تخصصها لقراءة الإحياء والتعبد بشرح مافيه من حكم ومواعظ.

٦- تقدير العلماء لكتب الإحياء:

أما تقدير العلماء ، لهذا الكتاب: فتصوره الآراء التالية:

يكاد الناقدون يجمعون على كلمة. (أبى المظفر) سبط أبى الفرج بن الجوزى فى قوله:

«ووضعه على مذهب الصوفية، وترك فيه قانون الفقه، فأنكروا عليه ما فيه: من الأحاديث التى لم تصح».

وفكرة الأحاديث التى لم تصح: أذاع بها كثيرون من أعداء الامام الغزالى، وتحدثوا عنها مقبلين ومدبرين، قائمين وقاعدين، ولكن ها هو ذا المولى: أبو الخير يقول:

«أما الأحاديث التى لم تصح: فلا ينكر عليه إيرادها لجوازه فى الترغيب والترهيب».

والواقع: أن الامام الغزالى: لم يأت بهذه الأحاديث التى لم تصح، لاثبات حكم، أو للاستدلال على مبدأ، ذلك أنه: يذكرالآيات القرآنية التى يثبت بها ما تؤدى إليه من أحكام وقواعد، وهى على هذا الوضع كافية فى الاثبات والاستدلال، ثم يأتى بعد ذلك بالأحاديث، وبأقوال الصحابة والتابعين.

وإذا كان الأمر كذلك فإننا حينما نستبعد الأحاديث الضعيفة من الاحياء، فإن كل المبادئ والقواعد والعظات والعبر التى أتى بها الامام الغزالى فى هذا الكتاب، تحتفظ بقيمتها من ناحية الاثبات والاستدلال.

ويتبين من هذا: أنه لا قيمة لهذا الاعتراض، لا شكلا ولا موضوعاً.

على أنه قد قام العالم الثبت الحجة الحافظ[1] العراقى الذى قال فيه شيخه: «إن ذهنه لا يقبل الخطأ» بتخريج أحاديث هذا الكتاب، فأصبحت السنة واضحة وأصبح الطريق أبلج.

رأى الحافظ. العراقى:

قال الحافظ العراقى عن كتاب الاحياء:

«إنه من أجل كتب الاسلام فى معرفة الحلال والحرام. جمع فيه بين ظواهر الأحكام، ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل، ولم يتبحر فى اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل، بل مزج فيه على الظاهر والباطن، ومزج

---

(١) الحافظ العراقى: هو زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقى. ولد بمصر فى جمادى الأولى سنة ٧٢٥هـ. أما نسبته إلى العراق: فترجع إلى أن أصل أبيه من العراق. وتوفى والده، وهو فى الثالثة من عمرة، ولكن عناية الله أحاطت به، إذ وهبه الله فطرة ممتازة، وذكاء خارقاً، وذهناً صافياً وهمة عالية فى طلب العلم. ويسرت له عناية الله الجو الثقافى. فأخذ من كل العلوم الاسلامية بحظ وافر، ولكنه تخصص فى «علم الحديث» وظهرت فيه مواهبه، وكان من توفيق الله، أن منحه ذاكرة قوية حافظة فلقبه شيوخه «بحافظ الوقت».

ومن أجل الحديث قام الحافظ العراقى بعدة رحلات، سائراً فى ذلك على طريقة الأئمة السابقين الذين كانوا يقطعون مئات الأميال فى طلب الحديث الشريف.

لقد سافر العراقى إلى الشام متنقلا بين حواضرها، وسافر إلى مكة والمدينة وانتهت حياته فى شعبان سنة ٨٠٦هـ، وقد بلغ من العمر إحدى وثمانين سنة، خدم فيها الحديث خدمة جليلة.

معانيهما فى أحسن المواطن، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه، وسلك فيه من النمط أوسطه مقتدياً بقول على كرم الله وجهه: «خير هذه الأمة النمط الأوسط، يلحق بهم التالى، ويرجع إليهم الغالى».

وقال الزبيدى شارح الاحياء:

«وأنا لا أعرف له نظيراً فى الكتب التى صنفها الفقهاء الجامعون فى تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والأثر».

وقال ابن السبكى:

«وهو من الكتب التى ينبغى للمسلمين الاعتناء بها، وإشاعتها، ليهتدى بها كثير من الخلق، وقل ما ينظر فيه إلا ويتعظ به فى الحال».

واقل الشيخ عبد القادر العيدروس فى كتاب «تعريف الأحياء بفضائل الاحياء».

اعلم أن فضائل الاحياء لا تحصى، بل كل فضيلة له، باعتبار حيثياتها لا تستقصى».

وكان عبد الله العيدروس رضي الله عنه يكاد يحفظه، وروى عنه أنه قال: «مكثت أطالع كتاب الاحياء، كل فصل وحرف منه وأعاوده، وأتدبره، فيظهر لى منه فى كل يوم علوم وأسرار عظيمة، ومفهومات غزيرة، غير التى قبلها، ولم يسبقه أحد ولم يلحقه أحد» ومن كلامه:

«عليكم يا إخوانى بمتابعة الكتاب والسنة: أعنى الشريعة المشروحة فى الكتب الغزالية، خصوصاً كتاب ذكر الموت، وكتاب الفقر والزهد، وكتاب التوبة، وكتاب رياضة النفس».

وقد ألزم الشيخ عبد الله العيدروس أخاه قراءة الاحياء، فقرأه عليه مدة حياته خمساً وعشرين مرة.

وتحتم هذه التقديرات برأى أعتقد أنه فيصل الحق فى موضوع «كتاب الاحياء» وهو رأى فضيلة العالم الجليل الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق، وهو عالم لا يتهم بعصبية، والآراء مجمعة على أنه من العلماء الذين حاولوا جاهدين أن يكون كل ما يصدر عنهم، إنما يراد به وجه الله يقول:

«وإذا وجد العلماء فى كتاب الاحياء مآخذ معدودة، فإنه من صنع بشر غير معصوم من الزلل، وكفى بكتاب الإحياء، فضلا، وسمو منزلة، أن تكون دور فوائده فوق ما يتناوله العد، وأن يظفر منه طلاب العلم وعشاق الفضيلة بما لا يظفرون به من كتاب غيره».

«ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً».

-٦-

النصوص التي تبين منهج الغزالى وتشرح طريقته فى الكتاب

النص الأول[١]: الطريق[٢]:

الطريق: تقديم المجاهدة، ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها، والاقبال بكنه الهمة على الله، تعالى، ومهما حصل ذلك، كان الله هو المتولى، لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم. وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة، وأشرق النور فى القلب، وانشرح الصدر، وانكشف له سر الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الالهية، فليس على عبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة، وإحضار الهمة، مع الارادة الصادقة، والتعطش التام، والترصد بدوام الانتظار، لما يفتحه الله، تعالى، من الرحمة، فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر، وفاض على صدورهم النور، لا بالتعلم والدراسة، والكتابة للكتب، بل الزهد فى الدنيا، والتبرى من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها، والإقبال بكنه الهمة على الله، تعالى، فمن كان لله كان الله له.

وزعموا أن الطريق فى ذلك، أولا: بانقطاع علائق الدنيا بالكلية، وتفريغ القلب منها، وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن، وعن العلم والولاية والجاه، بل يصير قلبه

(١) أخذنا هذه النصوص من طبعة السراوى، وهى مرقمة بحسب صفحاتها فى هذه الطبعة.
(٢) الأحياء. ص١٣٧٧.

إلى حالة يستوى فيها وجود كل شىء وعدمه، ثم يخلو بنفسه فى زاوية، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب، ويجلس فارغ القلب، مجموع الهم، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن، ولا بالتأمل فى تفسير، ولا بكتب حديث ولا غيره، بل يجتهد ألا يخطر بباله شىء سوى الله، تعالى.

فلا يزال بعد جلوسه فى الخلوة قائلا بلسانه: الله، الله، على الدوام، مع حضور القلب، حتى ينتهى إلى حالة يترك تحريك اللسان، ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه.

ثم يصبر عليه إلى أن يمحى أثره عن اللسان، ويصادف قلبه مواظباً على الذكر.

ثم يواظب عليه إلى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة، ويبقى معنى الكلمة مجرداً فى قلبه حاضراً فيه، كأنه لازم له، لا يفارقه، وله اختيار إلى أن ينتهى إلى هذا الحد، واختيار فى استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس. وليس له اختيار فى استجلاب رحمه الله، تعالى بل هو بما فعله صار متعرضاً، لنفحات رحمه الله.

فلا يبقى إلا الانتظار، لما يفتح الله من الرحمة، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذا الطريق.

وعند ذلك، إذا صدقت إرادته، وصفت همته، وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا، تلمع لوامع الحق فى قلبه.

ويكون فى ابتدائه: كالبرق الخاطف، لا يثبت، ثم يعود، وقد يتأخر وإن عاد فقد يثبت، وقد يكون مختطفاً، وإن ثبت فقد يطول ثباته، وقد لا يطول، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق، وقد يقتصر على دفن واحد.

ومنازل أولياء الله، تعالى، فيه لا تحصى، كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم، وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك، وتصفية، وجلاء، ثم إستعداد وانتظار فقط.

وأما النظار وذوو الاعتبار: فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه، وإفضائه إلى هذا المقصد، على الندور، فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء. ولكن استوعروا هذا الطريق

واستبطئوا ثمرته، واستبعدوا استجماع شروطه، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر.

النص الثانى: بيان:

شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف فى اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد[1]

اعلم: أن من انكشف له شيء، ولو الشيء اليسير، بطريق الإلهام والوقوع فى القلب، من حيث لا يدرى، فقد صار عارفاً بصحة الطريق، ومن لم يدرك بنفسه قط، فينبغى أن يؤمن به، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جداً. ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات.

أما الشواهد فقوله، تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ فكل حكمة تظهر من القلب، بالمواظبة على العبادة من غير تعلم، فهى بطريق الكشف والإلهام.

وقال، ﷺ: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة، ومن لم يعلم بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار».

وقال الله تعالى: «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً» من الإشكالات والشبه «ويرزقه من حيث لا يحتسب» قيل: يعلمه علماً من غير تعلم، ويفطنه من غير تجربة.

وقال الله تعالى: ﴿ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ قيل نوراً يفرق به بين الحق والباطل. ويخرج به من الشبهات.

ولذلك كان، ﷺ يكثر فى دعائه من سؤال النور. فقال، عليه الصلاة والسلام: «اللهم أعطنى نوراً، وزدنى نوراً، واجعل لى فى قلبى نورا، وفى قبرى نورا، وفى سمعى نورا

---

(١) الإحياء: ص١٣٨٥.

وفى بصرى نوراً، حتى قال «فى شعرى وفى بشرى، وفى لحمى، ودمى ، وعظامى».

وسئل، ﷺ عن قول الله، تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾: ما هذا الشرح؟ فقال: «هو التوسعة، إن النور إذا قذف به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح».

وقال، ﷺ لابن عباس: «اللهم فقه فى الدين وعلمه التأويل».

وقال على رضي الله عنه: ما عندنا شىء، أسره النبى، ﷺ إلينا إلا أن يؤتى الله تعالى، عبداً فهما فى كتابه. وليس هذا بالتعلم.

وقيل فى تفسير قوله تعالى: «يؤتى الحكمة من يشاء»: إنه الفهم فى كتاب الله تعالى.

وقال تعالى: «ففهمناها سليمان». خص ما انكشف باسم الفهم.

وكان أبو الدرداء يقول: المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق، والله إنه للحق يقذفه الله فى قلوبهم ويجريه على ألسنتهم.

وقال بعض السلف: ظن المؤمن كهانة.

وقال، ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله تعالى».

وإليه يشير قوله تعالى: «إن فى ذلك لآيات للمتوسمين». وقوله تعالى: «قد بينا الآيات لقوم يوقنون».

وروى الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال: «العلم علمان علم باطن فى القلب، فذلك هو العلم النافع».

وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن: ما هو؟ فقال: هو: سر من أسرار الله، تعالى يقذفه الله، تعالى فى قلوب أحبابه، لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا.

وقد قال، ﷺ: «إن من أمتى محدثين ومعلمين ومكلمين وإن عمر منهم».

وقرأ ابن عباس، رضى الله عنهما: «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى» ولا محدث: يعنى الصديقين.

والمحدث هو الملهم، والملهم: هو الذى انكشف له فى باطن قلبه من جهة الداخل، لا من جهة المحسات الخارجة. والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف. وذلك علم من غير تعلم.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ خصصها بهم.

وقال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وكان أبو يزيد وغيره يقول: ليس العالم الذى يحفظ من كتاب، فإذا نسى ما حفظه صار جاهلا، وإنما العالم يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء بلا حفظ ولا درس، وهذا هو العلم الربانى وإليه الإشارة بقوله تعالى: «وعلمناه من لدنا علما» مع أن كل علم من لدنه، ولكن بعضه بوسائط تعليم الخلق، فلا يسمى ذلك علما لدنيا بل اللدنى: الذى ينفتح فى سر القلب من غير سبب مألوف من خارج. فهذه شواهد النقل.

ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والاثار لخرج عن الحصر وأما مشاهدة ذلك بالتجارب، فذلك أيضاً خارج عن الحصر. وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

وقال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه لعائشة رضى الله عنها، عند موته: إنما هما أخواك وأختاك، وكانت زوجته حاملا فولدت بنتاً. فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت. وقال عمر، رضي الله عنه فى أثناء خطبته: يا سارية الجبل. إذ انشكف له: أن العدو: قد أشرف عليه، فحذره لمعرفته ذلك، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة.

وعن أنس بن مالك، رضي الله عنه قال: دخلت على عثمان رضي الله عنه– وكنت قد لقيت امرأة فى طريقى، فنظرت إليها شزراً، وتأملت محاسنها– فقال عثمان، رضي الله عنه لما دخلت: يدخل علىّ أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه! أما علمت أن زنا العينين النظر؟ لتتوبن أو لأعزرنك، فقلت: أوحى بعد النبى؟ فقال لا، ولكن بصيرة وبرهان، وفراسة صادقة.

وعن أبى سعيد الخراز قال: دخلت المسجد الحرام، فرأيت فقيراً عليه خرقتان، فقلت فى نفسى:

هذا وأشباه كل على الناس، فنادانى وقال:

والله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه، فاستغفرت الله فى سرى، فنادانى وقال:

«وهو الذى يقبل التوبة عن عباده». ثم غاب عنى ولم أره.

وقال زكريا بن داود: دخل أبو العباس بن مسروق على أبى الفضل الهاشمى، وهو عليل، وكان ذا عيال، ولم يعرف له سبب يعيش به، وقال: فلما قمت قلت فى نفسى: من أين يأكل هذا الرجل؟ قال فصاح بى، يا أبا العباس، رد هذه الهمة الدينية. فإن لله تعالى، ألطافا خفية.

النص الثالث: دليل الكشف(١)

والدليل القاطع (على الكشف) الذى لا يقدر على جحده أمران:

أحدهما: عجائب الرؤيا الصادقة، فإنه ينكشف بها الغيب. وإذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضاً فى اليقظة. فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس، وعدم اشتغالها بالمحسات، فكم من مستيقظ غائص: لا يسمع ولا يبصر لا شتغاله بنفسه.

الثانى: إخبار رسول الله ﷺ عن الغيب وأمور فى المستقبل كما اشتمل عليه القرآن. وإذا جاز ذلك للنبى، ﷺ جاز لغيره، إذ النبى: عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور، وشغل بإصلاح الخلق، فلا يستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل بإصلاح الخلق. وهذا لا يسمى نبياً، بل يسمى ولياً.

فمن آمن بالأنبياء، وصدق بالرؤيا الصحيحة، لزمه، لا محالة: أن يقر بأن القلب له بابان: باب إلى الخارج، وهو الحواس، وباب إلى الملكوت من داخل القلب، وهو باب الإلهام والنفث فى الورع، والوحى.

فإذا أقر بهما جميعاً لم يمكنه أن يحصر العلوم فى التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلا إليه.

فهذا ما ينبه على حقيقة ما ذكرناه: من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت.

---

(١) الاحياء: ص١٣٨٩.

وأما السبب فى انكشاف الأمر فى المنام بالمثال المحوج إلى التعبير، وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة، فذلك أيضاً من أسرار عجائب القلب، ولا يليق ذلك إلا بعلم المكاشفة، فلنقتصر على ما ذكرناه، فإنه كاف للاستحثاث على المجاهدة وطلب الكشف منها، فقد قال بعض المكاشفين:

ظهر لى الملك، فسألنى أن أملى عليه شيئاً من ذكرى الخفى عن مشاهدتي من التوحيد، وقال: ما نكتب لك عملا، ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تتقرب به إلى الله عز وجل، فقلت: ألستما تكتبان الفرائض؟ قالا: بلى، قلت: فيكفيكما ذلك.

وهذه إشارة إلى أن الكرام الكاتبين؛ لا يطلعون على أسرار القلب، وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة.

النص الرابع: الفرق بين العلم النظرى والعلم الكشفى[1].

فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ، رأى الأشياء فيه، وتفجر إليه العلم منه، فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض. ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسات كان ذلك حجاباً له عن مطالعة اللوح المحفوظ، كما أن الماء إذا اجتمع فى الأنهار منع ذلك من التفجر فى الأرض: وكما أن من نظر إلى الماء الذى يحكى صورة الشمس لا يكون ناظراً إلى نفس الشمس.

فإذن للقلب بابان. باب مفتوح إلى عالم الملكوت، وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة؛ وباب مفتوح إلى الحواس الخمس، المتمسكة بعالم الملك والشهادة. وعالم الشهادة والملك أيضاً: يحاكى عالم الملكوت نوعاً من المحاكاة.

فأما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس: فلا يخفى عليك.

وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت، ومطالعة اللوح المحفوظ، فتعلمه علماً يقينياً: بالتأمل فى عجائب الرؤيا، واطلاع القلب فى النوم على ما سيكون فى المستقبل، أو كان الماضى، من غير اقتباس من جهة الحواس.

(١) الاحياء: ص١٣٨١.

وإنما ينفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى.

قال، ﷺ: «سبق المفرّدون».

قيل: ومن هم المفردون يارسول الله؟

قال: «المتنزهون بذكر الله تعالى، وضع الذكر عنهم أوزارهم. فوردوا القيامة خفافاً».

ثم قال فى وصفهم إخباراً عن الله، تعالى: «ثم أقبل بوجهى عليهم، أترى من واجهته بوجهى يعلم أحد أى شىء أريد أن أعطيه؟».

ثم قال تعالى: أول ما أعطيهم: أن أقذف النور فى قلوبهم، فيخبرون عنى كما أخبر عنهم».

ومدخل هذه الأخبار هو الباب الباطن.

فإذن الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء، وبين علوم العلماء والحكماء هذا: وهو أن علومهم: تأتى من داخل القلب، من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت، وعلم الحكمة يأتى من أبواب الحواس، المفتوحة إلى عالم الملك.

النص الخامس: الجود الإلهى(١).

معلومات الله، سبحانه: لا نهاية لها، وأقصى الرتب رتبة النبى، الذى تنكشف له الحقائق، من غير اكتساب ولا تكلف، بل بكشف إلهى فى أسرع وقت.

وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى، قرباً بالمعنى والحقيقة والصفة لا بالمكان والمسافة.

ومراقى هذه الدرجات: هى منازل السائرين إلى الله تعالى، ولا حصر لتلك المنازل، وإنما يعرف كل سالك منزله الذى بلغه فى سلوكه، فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل، **فأما ما بين يديه، فلا يحيط بحقيقته علماً، لكن قد يصدق به إيماناً بالغيب، كما أنا نؤمن بالنبوة والنبى ونصدق بوجوده، ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبى.**

---

(١) الاحياء: ص١٣٥٩.

وكما لا يعرف الجنين حال الطفل، ولا الطفل حال المميز، وما يفتح له من العلوم الضرورية، ولا المميز، حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته:

«ما يفتح الله للناس من رحمة، فلا ممسك لها».

وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود من الله، سبحانه وتعالى، غير مضنون بها على أحد، ولكن إنما تظهر فى القلوب المتعرضة، لنفحات رحمة الله تعالى، كما قال، ﷺ.

«إن لربكم فى أيام دهركم لنفحات، ألا فتعرضوا لها».

والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكدورة الحاصلة من الأخلاق المذمومة، كما سيأتى بيانه:

وإلى هذا الجود الإشارة، بقوله ﷺ:

«ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا، فيقول: هل من داع، فأستجيب له؟» وبقوله عليه الصلاة والسلام، حكاية عن ربه عز وجل:

«لقد طال شوق الأبرار إلى لقائى، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً»، وبقوله تعالى:

«من تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً».

كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب، لبخل ومنع من جهة المنعم، تعالى عن البخل والمنع علواً كبيراً.

ولكن حجبت لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب، فان القلوب كالأوانى «فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء، فالقلوب المشغولة بغير الله، لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى. وإليه الإشارة بقوله، ﷺ: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم، لنظروا، إلى ملكوت السماء».

ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان: العلم والحكمة.

وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله. فيه كمال الإنسان وفى كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال.

النص السادس[١] شواهد الشرع فى حب العبد لله تعالى:

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله، تعالى، ولرسوله، ﷺ: فرض مالا وجود له: وكيف يفسر الحب بالطاعة ، والطاعة تبع الحب وثمرته، فلابد وأن يتقدم الحب، ثم بعد ذلك يطيع من أحب.

ويدل على إثباته لله، تعالى، قوله عز وجل: «يحبهم ويحبونه» وقوله تعالى: «والذين آمنو أشد حباً لله».

وهو دليل على إثبات الحب، وإثبات التفاوت فيه.

وقد جعل رسول الله، ﷺ الحب لله من شرط الإيمان فى أخبار كثيرة، إذ قال أبو رزين العقيلى: يارسول الله، ما الإيمان؟ قال: «أن يكون الله ورسوله، أحب إليك مما سواهما»، وفى حديث آخر:

«لا يؤمن أحدكم حتى، يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»، وفى حديث آخر:

«لا يؤمن العبد حتى أكون، أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين» وفى رواية «ومن نفسه».

كيف وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٢].

وإنما أجرى ذلك فى معرض التهديد والإنكار. وقد أمر رسول الله ﷺ بالمحبة فقال: أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبونى لحب الله إياى».

ويروى، أن رجلاً قال يار سول الله: إنى أحبك فقال ﷺ: «استعد للفقر» فقال إنى أحب الله، تعالى. فقال: «استعد للبلاء».

وعن عمر، رضي الله عنه قال: نظر النبى ﷺ إلى مصعب ابن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تمنطق به، فقال النبى، ﷺ: «أنظروا إلى هذا الرجل الذى نور الله قلبه، لقد رأيته بين أبويه يغذونه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حب الله ورسوله إلى ماترون».

(١) الاحياء: ص٢٥٨١.

(٢) سورة التوبة: ٢٤.

وفى الخبر المشهور، أن إبراهيم، عليه السلام، قال لملك الموت، إذ جاءه لقبض روحه:

«هل رأيت خليلا يميت خليله؟! فأوحى الله تعالى، إليه: هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه؟ فقال يا ملك الموت الان فاقبض.

وهذا لا يجده، إلا عبد يحب الله بكل قلبه، فاذا علم أن الموت سبب اللقاء، انزعج قلبه إليه، ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه.

وقد قال نبينا، ﷺ فى دعائه:

«اللهم أرزقنى حبك، وحب من أحبك، وحب ما يقربنى إلى حبك، واجعل حبك أحب إلىّ من الماء البارد».

وجاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال: يارسول الله، متى الساعة؟ قال: «ما أعددت لها» فقال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام، إلا أنى أحب الله ورسوله، فقال له رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب» قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشىء بعد الإسلام فرحهم بذلك.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «من ذاق من خالص محبة الله تعالى، شغله ذلك عن طلب الدنيا، وأوحشه عن جميع البشر».

وقال الحسن: «من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل، فإذا تفكر حزن».

وقال أبو سليمان الدرانى: «إن من خلق الله خلقاً ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدنيا».

ويروى: أن عيسى، عليه السلام مر بثلاثة نفر، وقد نحلت أبدانهم، وتغيرت ألوانهم، فقال لهم: ما الذى بلغ بكم ما أرى؟! فقالوا الخوف من النار. فقال: حق على الله أن يؤمن الخائف، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا وتغيراً فقال: ما الذى بلغ بكم ما أرى؟ قالوا الشوق إلى الجنة، فقال: حق على الله أن يعطيكم ما ترجون، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين، فاذا هم أشد نحولا وتغيراً كأن على وجوههم المرئى من النور،

فقال: ما الذى بلغ بكم ما أرى؟ قالوا نحب الله عز وجل فقال: أنتم المقربون، أنتم المقربون، أنتم المقربون».

وقال عبد الواحد بن زيد: مررت برجل قائم فى الثلج، فقلت أما تجد البرد؟ فقال: من شغله حب الله، لم يجد البرد.

وعن سرى السقطى قال: تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام، فيقال: يا أمة موسى، ويا أمة عيسى، ويا أمة محمد، غير المحبين لله تعالى، فانهم ينادون: يا أولياء الله، هلموا إلى الله سبحانه، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحاً.

وقال هرم بن حيان: المؤمن إذا عرف ربه، عز وجل، أحبه، وإذا أحبه أقبل إليه، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة، وهى تحسره فى الدنيا وتروحه فى الآخرة.

وقال يحي بن معاذ: عفوه يستغرق الذنوب، فكيف رضوانه! ورضوانه يستغرق الآمال، فكيف حبه! وحبه يدهش العقول، فكيف وده! ووده ينسى ما دونه فكيف لطفه!.

وفى بعض الكتب: «عبدى، أنا -وحقك- لك محب، فبحقى عليك كن لى محباً».

وقال يحي بن معاذ مثقال خردلة من الحب، إلىّ من عبادة سبعين سنة بلا حب، وقال يحي بن معاذ أيضاً: إلهى إنى مقيم بفنائك، مشغول بثنائك، صغيراً أخذتنى إليك؛ وسربلتنى بمعرفتك، وأمكنتنى من لطفك ونقلتنى فى الأحوال وقلبتنى فى الأعمال: ستراً وتوبة، وزهداً، وشوقاً، ورضا، وحباً، تسقينى من حياضك، وتهملنى فى رياضك، ملازماً لأمرك ومشغوفاً بقولك، ولما طر شاربى ولاح طائرى، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً، وقد اعتدت هذا منك صغيراً، فلى ما بقيت حولك دندنة، وبالضراعة إليك همهمة، لأنى محب، وكل محب بحبيبه مشغوف، وعن غير حبيبه مصروف. وقد ورد فى حب الله تعالى من الأخبار، والآثار ما لا يدخل فى حصر حاصر، وذلك أمر ظاهر، وإنما الغموض فى تحقيق معناه، فلنشتغل به.

المنقذ من الضلال

لحجة الإسلام

الإمام الغزالى

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

الحمد لله، الذى يفتتح بحمده كل رسالة ومقالة، والصلاة على محمد المصطفى، صاحب النبوة والرسالة، وعلى آله، وأصحابه، الهادين من الضلالة.

أما بعد: فقد سألتنى[1] أيها الأخ فى الدين، أن أبث إليك غاية العلوم وأسرارها، وغائلة المذاهب وأغوارها.

(١) كتب أحد المعاصرين للغزالى الذين اتصلوا به وصاحبوه وهو عبد الغافر ابن اسماعيل الفارسى المتوفى سنة ٥٢٩هـ مؤرخاً للإمام الغزالى فقال: قال أبو الحسن عبد الغافر بن اسماعيل الخطيب الفارسى: خطيب نيسابور:

محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالى، حجة الإسلام والمسلمين، إمام أئمة الدين، لم تر العيون مثله لساناً وبياناً، ومنطقاً وخاطراً وذكاء وطبعاً، أخذ طرفاً فى صباه بطوس، من الفقه على الإمام أحمد الراذكافى، ثم قدم نيسابور مختلفاً إلى درس إمام الحرمين فى طائفة من الشبان من طوس، وجد، واجتهد حتى تخرج فى مدة قريبة، وبز الأقران وحمل القرآن، وصار أنظر أهل زمانه، وأوحد أقرانه فى أيام إمام الحرمين، وكان الطلبة يستفيدون منه، ويدرس لهم، ويرشدهم، ويجتهد فى نفسه، وبلغ الأمر به إلى أن أخذ فى التصنيف، وكان الإمام -مع علو درجته، وسمو عبارته وسرعة جريه فى النطق والكلام- لا يصفى نظره إلى الغزالى سراً لإبائه عليه فى سرعة العبارة وقوة الطبع، ولا يطيب له تصديه للتصانيف، وإن كان متخرجاً به منتسبا إليه وهذا لا يخفى من طبع البشر، ولكنه يظهر التبجح به، والاعتداد بمكانه. مظهراً خلاف ما يضمره، ثم بقى كذلك إلى انقضاء أيام الامام.

فخرج من نيسابور، وصار إلى المعسكر، واحتل من نظام الملك محل القبول، وأقبل عليه الصاحب لعلو درجته. وظهور اسمه، وحسن مناظرته، وجرى عبارته. وكانت تلك الحضرة محط رحال العلماء، ومقصد الأئمة والفصحاء، فوقعت للغزالى اتفاقات حسنة من الاحتكاك بالأئمة وملاقاة الخصوم اللد، ومناظرة الفحول ومناقدة الكبار، وظهر اسمه فى الافاق وارتفق بذلك أكمل الارتفاق، حتى أدت به الحال إلى أن رسم للمصير إلى بغداد، للقيام بالتدريس المدرسة الميمونة النظامية بها، فصار إليها: وأعجب الكل تدريسه ومناظرته، ومالقى مثل نفسه، وصار بعد إمامة خراسان إمام العراق.

ثم نظر فى علم الأصول -وكان قد أحكمه- فصنف فيه تصانيف. وجدد المذهب فى الفقه، فصنف فيه تصانيف، وسبك الخلاف، فجدد فيه أيضاً تصانيف. وعلت حشمته ودرجته فى بغداد حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة، فانقلب الأمر من وجه آخر، ظهر عليه بعد مطالعة العلوم الدقيقة وممارسة الكتب المصنفة فيها، وسلك طريق الزهد والتأله، وترك الحشمة وطرح ما نال من الدرجة للاشتغال =

= بأسباب التقوى وزاد الآخرة، فخرج عما كان فيه وقصد بيت الله وحج، ثم دخل الشام، وأقام فى تلك الديار قريباً من عشر سنين: يطوف ويزور المشاهد المعظمة، وأخذ فى التصانيف المشهورة التى لم يسبق إليها، مثل: إحياء علوم الدين: والكتب المختصرة منه، مثل الأربعين وغيرها: من الرسائل التى من تأملها علم محل الرجل من فنون العلم.

وأخذ فى مجاهدة النفس، وتدبير الأخلاق، وتحسين الشمائل، وتهذيب المعاش، فانقلب شيطان الرعونة، وطلب الرياسه والجاه، والتخلق بالأخلاق الذميمة، إلى سكون النفس، وكرم الأخلاق والفراغ عن الرسوم والترتيبات، وتزيا بزى الصالحين، وقصر الأمل، ووقف الأوقات على هداية الخلق ودعائهم إلى ما يعنيهم: من أمر الأخرة، وتبغيض الدنيا والاشتغال بها على السالكين، والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية، والانقياد بكل من يتوسم فيه أو يشم منه رائحة المعونة أو التيقظ بشىء من أنوار المشاهدة، حتى مرن على ذلك ولان. ثم عاد إلى وطنه ملازماً بيته مشتغلا بالتفكر، ملازماً للوقت، مقصوداً تقياً، وذخراً للقلوب لكل من يقصده ويدخل عليه، إلى أن أتى على ذلك مدة، وظهرت التصانيف وفشت الكتب، ولم تبد فى أيامه مناقضة لما كان فيه، ولا اعتراض لأحد على أمره. حتى انتهت نوبة الوزارة إلى الأجل فجر الملك جمال الشهداء تغمده الله برحمته، وتزينت خراسان بحشمته ودولته. وقد سمع وتحقق بمكان الغزالى ودرجته، وكمال فضله وحالته، وصفاء عقيدته ومعاشرته. فتبرك به، وحضره، وسمع كلامه، فاستدعى منه: أن لا يبقى أنفاسه وفوائده عقيمة لا استفادة منها ولا اقتباس من أنوارها، وألح عليه كل الالحاح، وشدد فى الاقتراح، إلى أن أجاب إلى الخروج، وحمل إلى نيسابور، وكان الليث غائباً عن عرينه، والأمر خافياً فى مستور قضاء الله ومكنونه، فأشير عليه بالتدريس فى المدرسة الميمونة النظامية، عمرها الله، فلم يجد بداً من الاذعان لمولاه، ونوى بإظهار ما اشتغل به: هداية الشداة، وإفادة القاصدين، دون الرجوع إلى ما انخلع عنه وتحرر عن رقة: من طلب الجاه ومماراة الأقران ومكابرة المعاندين، وكم قرع عصاه بالخلاف والوقوع فيه، والطعن فيما يذريه ويأتيه، والسعاية به والتشنيع عليه! فما تأثر به، ولا اشتغل بجواب الطاعنين، ولا أظهر استيحاشاً بغميزة المخلطين. ولقد زرته مراراً وما كنت أحدث نفسى ما عهدته فى سالف الزمان عليه: من الزعارة، وإيحاش الناس، والنظر إليهم بعين الازدراء، والاستخفاف بهم كبراً وخيلاء، واغتراراً بمارزق: من البسطة فى النطق والخاطر والعبارة، وطلب الجاه والعلو فى المنزلة، إنه صار على الضد، وتصفى عن تلك الكدورات. وكنت أظن أنه متلفع بجلباب التكلف، متيمن بما صار إليه. فحققت، بعد التروى والتنقير: أن الأمر على خلاف المظنون، وأن الرجل أفاق بعد الجنون، وحكى لنا فى ليال كيفية أحواله: من ابتداء ما ظهر له: من سلوك طريق الأله، وغلبة الحال عليه، بعد تبحره فى العلوم واستطالته على الكل بكلامه، والاستعداد الذى خصه الله به فى تحصيل أنواع العلوم، وتمكنه من البحث والنظر، حتى تبرم من الاشتغال بالعلوم الغريبة عن المعاملة، وتفكر فى العاقبة، وما يجدى وما ينفع له الآخرة فابتدأ بصحبة الفارمدى وأخذ منه استفتاح الطريقة، وامتثل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات، والامعان فى النوافل، واستدامة الأزكار، والجد والاجتهاد، طلبا للنجاة، إلى أن جاز تلك العقبات، وتكلف تلك المشاق، وما تحصل على ما كان يطلبه من مقصوده.

ثم حكى أنه راجع العلوم، وخاض فى الفنون وعاود الجد والاجتهاد فى كتب العلوم الدقيقة واقتفى تأويلها حتى انفتح له أبوابها، وبقى مدة فى الوقائع، وتكافؤ الادلة، وأطراف المسائل، ثم حكى: أنه فتح عليه باب

=

= من الخوف، بحيث شغله عن كل شيء وحمله على الاعراض عما سواه حتى سهل ذلك، وهكذا هكذا إلى أن ارتاض كل الرياضة، وظهرت له الحقائق، وصار ما كنا نظن به، تمرسا وتخلقاً، طبعاً وتحققاً، وإن ذلك أثر السعادة، المقدرة له من الله.

ثم سألنا عن كيفية رغبته فى الخروج من بيته. والرجوع إلى ما دعى إليه من أمر نيسابور، فقال معتذراً عنه:

ما كنت أجوز فى دينى إلى أن أقف عن الدعوة ومنفعة الطالبين بالافادة وقد حق على أن أبوح بالحق، وأنطق به، وأدعو إليه، وكان صادقا فى ذلك.

ثم ترك قبل أن يترك، وعاد إلى بيته، واتخذ فى جواره مدرسة لطلبة العلم، وخانقاه للصوفية، وكان قد وزع أوقاته على وظائف الحاضرين: من ختم القرآن، ومجالسة أهل القلوب. والقعود للتدريس، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ولحظات من معه عن فائدة، إلى أن أصابته عين الزمان، وضنت به الأيام على أهل عصره فنقله إلى كريم جواره بعد مقاساة أنواع من التقصر والمناوأة من الخصوم، والسعى به إلى الملوك، وكفاه الله وحفظه، وصانه من أن تنوشه أيدى المنكبات، أو ينهك ستر دينه بشيء من الزلات. وكانت خاتمة أمره: إقباله على حديث المصطفى ﷺ ومجالسة أهله، ومطالعة الصحيحين: البخارى ومسلم، اللذين هما حجة الإسلام، ولو عاش لسبق الكل فى ذلك الفن بيسير من الأيام يستفرغه فى تحصيله. ولا شك. أنه سمع الأحاديث فى الأيام الماضية، واشتغل بآخر عمره بسماعها ولم تتفق له الرواية، ولا ضرر فيما خلفه من الكتب المصنفة فى الاصول والفروع، وسائر الانواع التى تخلد ذكره، وتقرر عند المطالعين المستفيدين منها: أنه لم يخلف مثله بعده.

مضى إلى رحمة الله يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخر، سنة خمس وخمسمائة، ودفن بظاهر قصبة طابران، والله تعالى يخصه بأنواع الكرامة فى آخرته، كما خصه الله بفنون العلم فى دنياه بمنه.

ولم يعقب إلا البنات. وكان له من الاسباب إرثاً وكسبا: ما يقوم بكفايته، ونفقة أهله وأولاده، فما كان يباسط أحداً فى الامور الدنيوية، وقد عرضت عليه أموال فما قبلها وأعرض عنها، واكتفى بالقدر الذى يصون به دينه ولا يحتاج معه إلى التعرض لسؤال ومنال من غيره.

ومما كان يعترض به عليه: وقوع خلل من جهة النحو يقع فى أثناء كلامه. ورجع فيه فأنصف من نفسه، واعترف بأنه ما مارس ذلك الفن، واكتفى بما يحتاج إليه فى كلامه، مع أنه كان يؤلف الخطب، ويشرح الكتب بالعبارات التى تعجز الأدباء والفصحاء عن أمثالها، وأذن للذين يطالعون كتبه فيعثرون على خلل فيها من جهة اللفظ أن يصلحوه ويعذروه، لما كان قصده إلا المعانى وتحقيقها، دون الألفاظ وتلفيقها.

ومما نقم عليه: ماذكر من الألفاظ المستبشعه بالفارسية فى كتاب كيمياء السعادة والعلوم، وشرح بعض الصور والمسائل، بحيث لا يوافق مراسم الشرع، وظاهر ما عليه قواعد الاسلام. وكان الأولى به والحق أحق ما يقال: ترك ذلك التصنيف والاعراض عن الشرح به. فإن العوام ربما لايحكمون أصول القواعد بالبراهين والحجج، فإذا سمعوا شيئاً من ذلك تخيلوا منه ما هو المضر بعقائدهم. وينسبون ذلك إلى مذهب الأوائل. على أن المصنف اللبيب، إذا رجع إلى نفسه علم أن أكثر ما ذكره: مما رمز إليه إشارة الشرع. وإن لم يبح به، ويوجد أمثاله فى كلام مشايخ الطريقة مرموزة ومصرح بها متفرقة، وليس لفظ منها إلا وكما يشعر أحد وجوهه بكلام موهم، فإنه يشعر سائر وجوهه مما يوافق عقائد أهل الملة، فلا يجب إذن حمله إلا على موافق،
=

وأحكى له ما قاسيته فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد، إلى بقاع[(١)] الاستبصار.

وما استفدته، أولا من علم الكلام.

وما اجتويته[(٢)]. ثانياً: من طرق أهل التعليم، القاصرين لدرك لحق على تقليد الإمام.

وما ازدريته، ثالثاً: من طرق التفلسف.

وما ارتضيته، آخراً: من طريقة التصوف.

وما انجلى لى فى تضاعيف تفتيشى عن أقاويل الخلق، من لباب الحق.

وماصرفنى عن نشر العلم ببغداد، مع كثرة الطلبة.

وما ردنى إلى معاودتى، «بنيسابور» بعد طول المدة.

= ولا ينبغى أن يتعلق به فى الرد متعلق، إذا أمكنه أن يبين له وجهاً فى الصحة يوافق الأصول، على أن هذا القدر يحتاج إلى من يظهره، ويقوم به، وكان الأولى أن يترك الافصاح بذلك كما تقدم ذكره، وليس كل ما يتفرد ويتمشى لأحد تقديره ينبغى يظهره، بل أكثر الأشياء، فيما يدرى يطوى ولا يحكى، فعلى ذلك درج الاولون من السلف الصالح، ابقاء على مراسم الشرع وصيانة الدين عن طعن الطاعنين وغيره المارقين الجاحدين والله الموفق للصواب.

وقد ثبت أنه سمع سنن أبى داود السجستانى، عن الحاكم: أبى الفتح الحاكمى الطوسى، وما عثرت على سماعه، وسمع من الاحاديث المتفرقة آلافاً من الفقهاء فما عثرت عليه ما سمعه من كتاب: مولد النبى، ﷺ من تأليف أبى بكر أحمد بن عمرو بن أبى عاصم الشيبانى، رواية الشيخ أبى بكر أحمد ابن الحرث الاصبهانى الامام، عن أبى محمد: عبد الله بن محمد بن جعفر، بن حيان، ابن المنصف، وقد سمعه الامام الغزالى من الشيخ: أبى عبد الله محمد بن أحمد الخوارى: خوار طابران، مع ابنيه: الشيخين: عبد الجبار وعبد الحميد، وجماعة من الفقهاء.

ومن ذلك ما قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الله بن محمد أحمد الخوارى، أخبرنا أبو بكر بن الحارث الاصبهانى، أخبرنا أبو محمد بن حيان، أخبرنا أبو بكر أحمد ابن عمرو بن أبى عاصم بن إبراهيم بن المنذر الخوارزمى، حدثنا عبد العزيز بن أبى ثابت حدثنى الزبير بن موسى. عن أبى الحويرث قال: سمعت عبد الملك بن مروان، سأل قمات بن أشيم الكنانى: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال: رسول الله ﷺ: أكبر منى وأنا أسن منه، ولد رسول الله ﷺ، عام الفيل، وتمام الكتاب فى جزء مسموع له (نقله الاستاذ عبد الكريم عثمان، عن الطبقات الكبرى للسبكى، فى كتابه النفيس «سيرة الغزالى»).

(١) البقاع ما ارتفع من الارض.

(٢) تقول: اجتويت البلد إذا كرهت المقام به وإن كنت فى نعمه.

فابتدرت لإجابتك إلى مطلبك، بعد الوقوف على صدق رغبتك، وقلت مستعيناً بالله، ومتوكلا عليه، ومستوفقاً منه، وملتجأ إليه:

إعلموا -أحسن الله، تعالى، إرشادكم، وألان للحق قيادكم-: أن أختلاف الخلق فى الأديان والملل، ثم اختلاف الأمة فى المذاهب، كثرة الفرق وتباين الطرق: بحر عميق، غرق فيه الأكثرون، وما نجا منه إلا الأقلون، وكل فريق يزعم أنه الناجى، و«كل حزب بما لديهم فرحون» وهو الذى وعدنا به سيد المرسلين، صولات الله عليه، وهو الصادق الصدوق، حيث قال: «ستفترق أمتى ثلاثاً وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة[1]»، فقد كاد ما وعد أن يكون.

ولم أزل فى عنفوان شبابى -منذ راهقت البلوغ؛ قبل بلوغ العشرين إلا الآن، وقد أناف السن على الخمسين -: أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، أتوغل فى كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع.

لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته.

ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته.

ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته.

ولا متكلماً إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته.

---

(١) روى هذا الحديث على اختلاف فى متنه، فى عدة كتب، بعدة أسانيد. ولكنه لم يرو فى «صحيح البخارى» ولا فى «صحيح مسلم».

وقد قال «ابن حزم» عنه: إنه لا يصح أصلا من جهة الاسناد.

وقال «ابن الوزير» فى «العواصم والقواصم»: إياك أن تغتر بزيادة: كلها فى النار إلا واحدة: فإنها زيادة فاسدة؛ ولا يبعد أن تكون من دسيس الملاحدة.

على أنه قد روى هذا الحديث بالخاتمة الآتية: «اثنتان وسبعون فى الجنة، وواحدة فى النار» وقال المقدسى فى «أحسن التقاسيم»: إن الحديث على هذا الوضع: أصح اسنادا.

ومع ذلك، فقد أخذ مؤرخو الأديان أمثال «الشهرستانى»: يعدون الفرق التى فى النار، ويتكلفون الوصول بها إلى «اثنتين وسبعين فرقة» مع أن تشعب الفرق وإختلاف المذاهب والآراء لا ينتهى حتى تقوم الساعة.

انظر مقدمة كتاب: «التبصير فى الدين» التى كتبها «الشيخ زاهد الكوثرى»، رحمه الله تعالى.

ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته.

ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته.

ولا زنديقاً معطلا إلا وأتحسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته، فى تعطيله وزندقته.

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور. دأبى، وديدنى، من أول أمرى، وريعان عمرى: غريزة، وفطرة من الله، وضعتا فى جبلتى، لا باختيارى وحليتى، حتى انحلت عن رابطة التقليد، وانكسرت على العقائد الموروثة، على قرب عهد سن الصبا، إذ رأيت:

صبيان النصارى: لا يكون لهم نشوء إلى التنصر، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام وسمعت الحديث المروى عن رسول الله ﷺ حيث قال:

«كل مولود يولد على الفطرة: فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه»

فتحرك باطنى إلى حقيقة الفطرة الأصلية، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين، والتمييز بين هذه التقليدات، وأوائلها تلقينات وفى تميزالحق منها عن الباطل اختلافات.

فقلت فى نفسى: أولا، إنما مطلوبى: العلم بحقائق الأمور، فلابد من طلب حقيقة العلم: ما هى؟

فظهر لى: أن العلم اليقينى: هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارناً لليقين، مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه -مثلا- من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً، لم يورث ذلك شكا وإنكاراً، فإنى إذا علمت: أن العشرة: أكثر من الثلاثة، فلو قال لى قائل: لا بل الثلاثة أكثر، بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعباناً. وقلبها، وشاهدت ذلك منه، لم أشك -بسببه- فى معرفتى، ولم يحصل لى منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه!

فأما الشك فيما علمته؛ فلا.

ثم علمت: أن كل مالا أعلمه على هذا الوجه؛ ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين: فهو علم لا ثقة به؛ ولا أمان معه؛ وكل علم لا أمان معه، فليس بعلم يقينى.

مدخل السفسطة
وجحد العلوم

ثم فتشت عن علومى، فوجدت نفسى: عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة، إلا فى الحسيات، والضروريات.

فقلت: الآن بعد حصول اليأس: لا مطمع فى اقتباس المشكلات إلا من الجليات، وهى الحسيات، والضروريات: فلا بد من إحكامها أولا؛ لأتيقن أن ثقتى بالمحسات، وأمانى من الغلط فى الضروريات: من جنس أمانى الذى كان من قبل فى التقليدات، ومن جنس أمان أكثر الخلق فى النظريات، أم هو أمان محقق لا غدر فيه: ولا غائلة له.

فأقبلت بجد بليغ، أتأمل فى المحسات والضرويات، وأنظر: هل يمكننى أن أشكك نفسى فيها؟ فانتهى بى طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسات أيضاً، وأخذ يتسع هذا الشك فيها، ويقول: من أين الثقة بالحواس؟ وأقواها حاسة البصر، وهى تنظر إلى الظل، فتراه واقفاً غير متحرك، وتحكم بنفى الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة -بعد ساعة- تعرف: أنه متحرك، وأنه: لم يتحرك دفعة بغتة، بل على التدريج ذرة، ذرة، حتى لم تكن له حالة وقوف.

وتنظر إلى الكوكب، فتراه صغيرا فى مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار.

هذا، وأمثاله، من المحسات يحكم فيها حاكم الحس، بأحكامه، ويكذبه حاكم العقل، ويخونه، تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته.

فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسات أيضاً، فلعله لا ثقة إلا بالعقليات، التى هى من الأوليات. كقولنا: العشرة أكثر من الثلاثة والنفى والإثبات لا يجتمعان فى الشىء الواحد، والشىء الواحد لا يكون حادثاً قديماً، موجوداً معدوماً، واجباً محالا.

فقالت الحواس: بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات: كثقتك بالمحسسات؟ وقد كنت واثقاً بى، فجاء حاكم العقل فكذبنى، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى، فلعل وراء إدراك العقلى حاكما آخر، إذا تجلى كذّب العقل فى حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذّب الحس فى حكمه، وعدم تجلى ذلك الإدراك، لا يدل على استحالته!

فتوقفت النفس فى جواب ذلك قليلا -وأيدت إشكالها بالمنام، وقالت: أما تراك تعتقد فى النوم أموراً، وتتخيل أحوالا، وتعتقد لها ثباتاً، واستقراراً، ولا تشك فى تلك الحالة فيها، ثم تستيقظ فتعلم: أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل، وطائل؟

فيم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك، بحس أو عقل، هو حق بالإضافة إلى حالتك التى أنت فيها، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك: كنسبة يقظتك إلى منامك، وتكون يقظتك نوماً بالإضافة إليها! فإذا وردت تلك الحالة، تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها.

ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية: أنها حالتهم؛ إذ يزعمون أنهم يشاهدون فى أحوالهم التى إذا غاصوا فى أنفسهم، وغابوا عن حواسهم أحوالا لا توافق هذه المعقولات.

ولعل تلك الحالة هى الموت، إذ قال رسول الله ﷺ:

«الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا».

فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة، فإذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن ويقال له عند ذلك: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

فلما خطرت لى هذه الخواطر، وانقدحت فى النفس، حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل، ولم يكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية، فإذا لم تكن مسلمة لم يكن تركيب الدليل.

فأعضل هذا الداء، ودام قريباً من شهرين، أنا فيهما على السفسطة، بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال.

حتى شفى الله، تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة، موثوقاً بها، على أمر ويقين.

ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله، تعالى فى الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف. فمن ظن: أن الكشف: موقوف على الأدلة المحررة، فقد ضيق رحمة الله الواسعة، ولما سئل رسول الله ﷺ عن «الشرح» ومعناه فى قوله، تعالى:

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ قال:

«هو نور، يقذفه الله، تعالى فى القلب».

فقيل: «وما علامته؟».

قال: «التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود»، وهو الذى قال، عليه السلام، فيه:

«إن الله، تعالى: خلق الخلق فى ظلمة، ثم رش عليه من نوره».

فمن ذلك النور: ينبغى أن يطلب الكشف.

وذلك النور: ينبجس من الجود الإلهى فى بعض الأحايين، ويجب الترصد له، كما قال، عليه السلام: «إن لربكم فى أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها».

والمقصود من هذه الحكايات: أن يعمل فى كمال الجد فى الطلب، حتى ينتهى إلى طلب ما لا يطلب. فإن الأوليات ليست مطلوبة، فإنها حاضرة. والحاضر إذا طلب نفر، واختفى، ومن طلب مالا يطلب لا يتهم بالتقصير فى طلب ما يطلب.

أصناف الطالبين

ولما شفانى الله تعالى، من هذا المرض بفضله. وسعة جوده، انحصرت أصناف الطالبين عندى فى أربع فرق:

١ - المتكلمون: وهم يدعون أنهم: أهل الرأى، والنظر.

٢ - الباطنية: وهم يزعمون أنهم: أصحاب التعليم، والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم.

٣ - الفلاسفة: وهم يزعمون أنهم أهل المنطق، والبرهان.

٤ - والصوفية: وهم يدعون أنهم: خواص الحضرة، وأهل المشاهدة والمكاشفة.

فقلت فى نفسى: الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق، فإن شذ الحق عنهم، فلا يبقى فى درك الحق مطمع، إذا لا مطمع فى الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته: إذ من شرط المقلد أن لا يعلم أنه مقلد، فإذا علم ذلك أنكسرت زجاجة تقليده، وهو شعب(١) لا يرأب(٢) وشعث(٣) لا يلم بالتلفيق والتأليف، إلا أن يذاب بالنار، وتستأنف له صنعة أخرى مستجدة.

فابتدرت لسلوك هذه الطرق، واستقصاء ما عند هذه الفرق:

مبتدئاً بعلم الكلام.

ومثنياً بطريق الفلسفة.

ومثلثاً بتعليم الباطنية.

ومربعاً بطريق الصوفية.

---

(١) الشعب: من الأضداد، وهو هنا بمعنى الشق

(٢) يرأب: يصلح

(٣) شعث: متفرق.

١- علم الكلام

مقصوده وحاصله

ثم إنى ابتديت بعلم الكلام، فحصلته، وعقلته، وطالعت كتب المحققين منهم.

وصنفت فيه ما أردت أن أصنف.

فصادفته علماً وافياً بمقصوده، غير واف بمقصودى.

وإنما مقصوده: حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها عن تشويش أهل البدعة[١].

---

(١) نرى أن الإمام الغزالى -مع هدمه فى النهاية لعلم الكلام- كان مجاملا للمتكلمين، وقد وضحنا رأينا فى هذا العلم، فى المقدمة، ويسرنا أن نذكر هنا، رأى للسلف فى شىء من الاستفاضه.

قال ابن عبد البر، المتوفى سنة ٤٦٣ فى كتاب: «جامع بيان العلم وفضله»: نهى السلف -رحمهم الله- عن الجدال فى الله، جل ثناؤه، فى صفاته، وأسمائه. وأما الفقه، فأجمعوا على الجدال فيه، والتناظر لأنه علم يحتاج فيه إلى رد الفروع إلى الأصول: للحاجة إلى ذلك، وليس الاعتقادات كذلك؛ لأن الله، عز وجل: لا يوصف عند الجماعة: -أهل السنة- إلا بما وصف به نفسه. أو وصفه به رسوله ﷺ، أوأجمعت الأمة عليه. وليس كمثله شىء فيدرك بقياس، أو انعام نظر. وقد نهينا عن التفكير فى الله، وأمرنا بالتفكير فى خلقه الدال عليه.

وعن مصعب ابن عبد الله الزبيرى، قال: كان مالك بن أنس يقول: الكلام فى الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه، وينهونه عنه، نحو الكلام فى رأى جهم، والقدر، وما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل».

وقال أيضاً فى الكتاب نفسه: وقال أحمد بن حنبل: لا يفلح صاحب كلام أبدا، ولا نكاد نرى أحدا نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل.

وقال مالك، أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه، أيدع دينه كل يوم، لدين جديد؟».

قال أبو بكر: تناظر القوم وتجادلوا فى الفقه، ونهوا عن الجدال فى الاعتقاد، لأنه يؤدى إلى الانسلاخ من الدين، ألا ترى إلى مناظرة بشر، فى قوله، عز وجل: «ما يكون من نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم» حين قال: هو بذاته، فى كل مكان. فقال له خصمه؛ فهو فى قلنسوتك، وفى حشك، وفى جوف حمار، تعالى الله عما يقول، حكى ذلك وكيع، رحمه الله؛ وأنا والله أكره أن أحكى كلامهم ... فمن هذا وشبهه نهى العلماء».

من كتاب «التمهيد للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق».

وقد جاء فيه أيضاً عن شيخ الإسلام المروى المتوفى سنة ٤٨١هـ.

وأخرج عن طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه، جده: قال: خرج رسول الله ﷺ: على أصحابه ذات يوم، وهم يتراجعون فى القدر، فخرج مغضباً حتى وقف عليهم، فقال: «يا قوم! بهذا ضلت الأمم قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتاب بعضه ببعض! وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض، ولكن نزل القرآن، فصدق بعضه بعضاً. ما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه فآمنوا به».

-

فقد ألقى الله تعالى، إلى عباده على لسان رسوله عقيدة: هى الحق، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار.

ثم ألقى الشيطان فى وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة، فلهجوا بها، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها.

فأنشأ الله تعالى. طائفة المتكلمين، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب، يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة، على خلاف السنة المأثورة، فمنه نشأ علم الكلام وأهله(١).

= وأخرج عن أبى هيررة، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع فى القدر، فغضب، حتى احمر وجهه، ثم قال: أبهذا أمرتم، أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر. عزمت عليكم ألا تنازعوا.

وأخرج عن أبى الدرداء، وأبى أمامة، وأنس بن مالك، ووائلة بن الأسقع قالوا: خرج إلينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع فى شىء من الدين، فغضب غضباً شديداً، لم يغضب مثله، ثم انتهرنا. قال: يا أمة محمد! لا تهيجوا على أنفسكم ثم قال: أبهذا أمرتكم؟! أو ليس عن هذا نهيتكم؟! إنما هلك من كان قبلكم بهذا. ثم قال ذروا المراء لقلة خيره، ذروا المراء، فإن نفعه قليل، ويهيج العداوة بين الإخوان، ذروا المراء، فإن المراء لا تؤمن فتنته، ذروا المراء، فإن المراء يورث الشك، ويحبط العمل، ذروا المراء، فإن المؤمن لا يمارى، ذروا المرء. فكفى بك إثماً: ألا يزال ممارياً، ذروا المراء فإن الممارى لا أشفع له يوم القيامة، ذروا المراء، فأنا زعيم بثلاثة أبيات فى الجنة: فى وسطها، وربضها وأعلاماً لمن ترك المراء، وهو صادق، ذروا المراء، فإنه أول ما نهانى الله عنه بعد عبادة الأوثان، وشرب الخمر، ذروا المراء، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد. ولكن رضى بالتحريش، وهو المراء فى الدين ذروا المراء، فإن بنى إسرائيل: افترقوا على إحدى وسبعين فرقه، والنصارى على اثنين وسبعين فرقة. وإن أمتى ستفترق على ثلاث وسبعين فرقه، كلهم على الضلال، إلا السواد الأعظم، قالوا: يارسول الله، ومن السواد الأعظم؟ قال: من كان على ما أنا عليه وأصحابى، ثم قال. إن الاسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء، قالوا: يارسول الله، ومن الغرباء؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس، ولا يمارون فى دين الله».

تمهيد ص٢٨٢ – ٢٨٣.

(١) تحدث الأمام الغزالى عن علم الكلام غير مرة فى كثير من كتبه، وتحدث فى «الأحياء» عن الآراء فى كونه حلالا أم حراما، ثم قال.

وإلى التحريم ذهب الشافعى ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف.

قال ابن عبد الأعلى رحمه الله: سمعت الشافعى، رضي الله عنه يوم ناظر حفصا الفرد، وكان من متكلمى المعتزلة يقول: لأن يلقى الله عز وجل، العبد بكل ذنب ماخلا الشرك بالله خيرا له من أن يلقاه بشىء من علم الكلام. ولقد سمعت من حفص كلاماً لا أقدر أن أحكيه.

وقال أيضاً: قد اطلعت من أهل الكلام على شىء ما ظننته قط، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ماعدا الشرك، خير له من أن ينظر فى الكلام:

=

فلقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه، فأحسنوا الذب عن السنة، والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة، والتغبير فى وجه ما أحدث من البدعة.

ولكنهم اعتمدوا فى ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم، واضطرهم إلى تسليمها: أما التقليد، أو إجماع لأمة، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار.

= وحكى الكرابيس: أن الشافعي ﷺ سئل عن شيء من الكلام، فغضب، وقال سل عن هذا حفصا الفرد وأصحابه أخزاهم الله.

ولما مرض الشافعي ﷺ دخل عليه حفص الفرد: فقال له من أنا فقال حفص الفرد: «لا حفظك الله، ولا رعاك حتى تتوب مما أنت فيه.

وقال أيضا: «لو علم الناس ما فى الكلام من الأهواء، لفروا منه فرارهم من الأسد».

وقال أيضا: إذا سمعت الرجل يقول: (الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له).

قال الزعفراني: قال الشافعي: حكمى فى إصحاب الكلام، أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم فى القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأخذ الكلام.

وقال أحمد بن حنبل: لا يفلح صاحب الكلام أبدا، ولانكاد ترى أحداً نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل) وبالغ فى ذمه حتى هجر الحارث المحاسبى مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتابا فى الرد على المبتدعة، وقال له: ألست تحكى بدعتهم أولا ثم ترد عليهم! ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة، والتفكر فى تلك الشبهات، فيدعوهم ذلك إلى الرأى والبحث.

وقال أحمد، رحمه الله: (علماء الكلام زنادقة).

وقال مالك، رحمه الله: أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه، أيدع دينه كل يوم لدين جديد؟. يعنى أن أقوال المتجادلين تتفاوت.

وقال مالك، رحمه الله أيضاً: (لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء).

فقال بعض أصحابه فى تأويله: إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام، على أى مذهب كانوا.

وقال أبو يوسف: (من طلب العلم بالكلام تزندق).

وقال الحسن: (لا تجادلوا أهل الأهواء، ولا تجالسوهم، ولا تسمعوا منهم). وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا.

ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه.

وقالوا: «ماسكت عنه الصحابة -مع أنهم أعرف بالحقائق، وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم- إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر، لذلك قال النبى، ﷺ:

«هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون»؛ أى المتعمقون فى البحث والاستقصاء جدلا.

واحتجوا أيضاً بأن ذلك لو كان من الدين، لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله؛ ﷺ ويعلم طريقه، ويثنى عليه وعلى أربابه؛ فقد علمهم الاستنجاء، وندبهم إلى علم الفرائض، وأثنى عليهم، ونهاهم عن الكلام فى القدر وقال: «امسكوا عن القدر» وعلى هذا استمر الصحابه رضى الله عنهم، فالزيادة على الأستاذ طغيان، وظلم وهم الأستاذون والقدوة -ونحن الأتباع، والتلامذة.

وكان أكثر خوضهم فى استخراج مناقضات الخصوم، ومؤاخذاتهم بلوازم مسلماتهم. وهذا قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلا.

فلم يكن الكلام فى حقى كافياً، ولا لدائى الذى كنت أشكوه[1] شافياً.

نعم، لمّا نشأت صنعة الكلام، وكثر الخوض فيه، وطالت المدة، تشوق المتكلمون إلى محاولة الذبّ عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور، وخاضوا فى البحث عن الجواهر والأعراض وأحكام. لكن لمّا لم يكن ذلك مقصود علمهم، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى، فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة، فى اختلافات الخلق.

ولا أبعد أن يكون قد حصل ذلك لغيرى. بل لست أشك فى حصول ذلك لطائفة، ولكن حصولا مشوباً بالتقليد فى بعض الأمور التى ليست من الأوليات.

والغرض الآن: حكاية حالى، لا الإنكار على من استشفى به، فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء، وكم من دواء ينتفع به مريض ويستضر به أخر.

---

(١) وتحدث الإمام الغزالى فى الإحياء أيضاً عن منفعة علم الكلام وفائدته معبراً بهذا النص عن رأيه الخاص فقال.

وأما منفعته فقد يظن أن فائدته، كشف الحقائق، ومعرفتها على ما هى عليه وهيهات، فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف، وهذا إذا سمعته من محدث؛ أو حشوى، ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا، فاسمع هذا ممن خبر الكلام، ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغافل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمق فى علوم آخر تناسب نوع الكلام، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود.

٢- الفلسفة

أحاصيلها: ما يذم منها، وما لايذم، وما يكفر قائله، وما لا يكفر وما يبدّع فيه، ومالا يبدع، وبيان ماسرقوه: من كلام أهل الحق، ومزجوه بكلامهم لترويج باطلهم فى درج ذلك، وكيفية حصول نفرة النفوس من ذلك الحق- وكيفية استخلاص صراف الحقائق الحق الخالص من الزيف والبهرج: من جملة كلامهم.

ثم إنى ابتدأت -بعد الفراغ من علم الكلام- بعلم الفلسفة. وعلمت يقيناً: أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوى أعلمهم فى أصل ذلك العلم، ثم يزيد عليه، ويجاوز درجته، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم، من غور وغائلة، وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه: من فساده حقاً.

ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك.

ولم يكن فى كتب المتكلمين من كلامهم -حيث اشتغلوا بالرد عليهم- إلا كلمات معقدة مبدّدة، ظاهرة التناقض والفساد، لا يظن الاغترار بها بعاقل عامى، فضلا عمن يدعى دقائق العلوم. فعلمت: أن ردّ المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه: رمى فى عماية.

فشمرت عن ساق الجد فى تحصيل ذلك العلم من الكتب، بمجرد المطالعة، من غير استعانة بأستاذ. وأقبلت على ذلك فى أوقات فراغى من التصنيف والتدريس فى العلوم الشرعية، وأنا ممنو[1] بالتدريس والإفادة لثلاثمائة نفس، من الطلبة ببغداد.

فأطلعنى الله سبحانه وتعالى، بمجرد المطالعة فى هذه الأوقات المختلسة، على منتهى علومهم، فى أقل من سنتين. ثم لم أزل أو اظب على التفكير فيه، بعد فهمه، قريباً من سنة أعاوده وأردده وأتفقد غوائله، وأغواره، حتى اطلعت على ما فيه: من خداع، وتلبيس، وتحقيق، وتخيل اطلاعاً لم أشك فيه.

فاسمع الآن حكايته، وحكاية حاصل علومهم: فإنى رأيتهم أصنافاً، ورأيت علومهم أقساماً وهم -على كثرة أصنافهم- يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد، وإن كان بين القدماء والأقدمين، وبين الأواخر منهم والأوائل، تفاوت عظيم، فى البعد عن الحق، والقرب منه.

(١) مبتلى.

أصنـاف الفلاسفـة

وشمول وصمة الكفر كافتهم

إعلم: أنهم -على كثرة فرقهم، واختلاف مذاهبم-: ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

الدهريون.

والطبيعيون.

والإلهيون.

الـصنـف الأول: الـدهــريــون[1]: وهـم طـائفـة مـن الأقـدمـين: جـحـدوا الصـانع

---

(١) بعد أن ذكر «ستتلانا» كلام اليعقوبى، والغزالى عن الدهرية قال: «فإن لو حاولنا استنباط الأصول التى اعتمدها اليعقوبى والغزالى، فيما ذكراه فى حق الدهرية، وجدنا أرسطو يقول، فى كتاب: «السماء والعالم» حاكيا عن «أنبا ذو قليس»:

إن هذا العالم لم يحدثه أحد من الآلهة ولا من البشر، بل كان أبداً. أهـ.

ثم قال أرسطو فى المقدمة الثالثة من كتاب السماء ما نصه:

أما من ذهب إلى قول «أنبا ذو قليس»، «وديموقريطس»: فإنه قال: إن الأركان لم تحدث باستحالة بعضها فى بعض، بل لا حدوث إلا فى الظاهر، فانها موجودة على حدتها: فتفرق بعد الإجتماع. أهـ.

ثم قال فى كتاب: «الفساد والتكوين» فى المقالة الأولى: وعندهم: أن الأركان إذا اجتمعت فقد تحدث الأجسام، وإذا افترقت فسدت الأجسام.

وعندهم أيضاً: أن الوجود لا يصير أبداً إلى العدم. أهـ.

وقـال «ديوجـانس» فى تاريخ الحكماء: ورأيهم أن العـدم لا يحـدث منه شيء، وأن الوجـود لا يصـيـر إلى العدم. أهـ.

فرذا ما قابلنا هذه النصوص بما فى تاريخ اليعقوبى وجدناها مطابقة، فصلا فصلا، لما ذكره من مذهب الدهريين.

فتقرر حينئذ: أن الدهرية عند العرب: هم شيعة «ديموقريطس» و(أنباذوقليس) وأن الطبيعيين: هم بقية الأقدمين من الفلافسفة.

ومذهب (ديموقريطس): هو الغاية القصوى فى فلسفة اليونان أواخر العصر الأول.

اقتبس منه الأشاعرة قولهم بالجزء الذى لا يتجزأ.

منه أخذ النظام من متكلمى المعتزلة قوله بالكمون.

ومنه أخذ جم غفير من الملاحدة والطبيعيين قولهم فى أنكار البارى ووحدة الوجود.

فمن طابق قول (ديموقريطس) بما عليه الطبيعيون من الفلاسفة فى عصرنا هذا لما وجد بين القولين تفاوتا، اللهم إلا ما نشأ عن تقدم العلوم فى زماننا.

والحق: أن من اقتصر على الطبيعيات، ولم يقل بغير المحسات: لا يسعه إلا اقتفاء أثرهم والتحلى بشعائرهم. مع أن من تبصر فى عواقب الأمور تحقق: أن مثل هذا الرأى: لا يفضى، فى كل زمان، إلا لإنكار الحقائق وهدم دعائم العقل أهـ. (ستتلانا): المذاهب الفلسفية، مخطوط مكتبة الجامعة).

المدبر[1]، العالم القادر وزعموا: أن العالم: لم يزل موجوداً، كذلك. بنفسه، وبلا صانع، ولم

(١) إن الحقيقة التى لا جدال فيها هى: أن الأغلبية العظمى من الفلاسفة ومن العلماء فى جانب الإيمان.
والإلحاد فى جو الفلاسفة، وفى جو العلماء شذوذ.
ومما لا شك فيه أن عباقرة الفلسفة: القدماء منهم والمحدثين: مؤلهون.
فسقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وأفلوطين، وديكارت، وكانت من المؤلهين.
وإذا كان الإلحاد الفلسفى شذوذاً، فإن ذلك لا ينفى أنه حقيقة موجودة، وأن له ممثلين باستمرار، وهم -على حد تعبير الإمام الغزالى- «جحدوا الصانع المدبر، العالم القادر وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه. وبلا صانع ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، كذلك كان، وكذلك يكون أبداً».
و«ديموقريطس»، فى العهد اليونانى؛ هو الذى حاول بكل جهده أن يقيم من الإلحاد مذهباً وكانت فكرته هى: أن المادة قديمة، وهى مركبة من أجزاء لا تتجزأ، وهذه الأجزاء، أو الذرات: دائمة التحرك فى الفضاء اللانهائى؛ ومن اجتماعها تتكون الأجسام، وبافتراقها تفنى، وهكذا استمر الأمر من الأزل، وسيبقى إلى الأبد بدون غاية ولا هدف، إنها الآلية البحتة.
وهذه الفكرة، وإن كانت قديمة، فإنها فكرة كل من يتخذ الإلحاد مذهباً فى العصور الحديثة، وإن اختلفت كيفيات التعبير عنها.
إنها فكرة الماديين المحدثين: كما كانت فكرة الماديين القدماء، ولم يغير من جوهرها تحطيم الذرة أو تفتيتها، اللهم إلا فى كيفية التعبير عنها.
وقد رد القدماء، فى سهولة وفى قوة، على هذا المذهب، وكذلك فعل المحدثون، وكانت حجتهم. من الدقة ومن الإحكام، بحيث تجعل المتأمل فيها لا يتأتى له أن يقول بغيرها.
وقد لخص حجج القدماء الأستاذ «سانلانا» فى المخطوط المعنون بعنوان: «المذاهب الإسلامية».. ونحن نورد تلخيصه الرائع فيما يلى:
«أ) وأما القول بالطبيعة وأن لا شىء غيرها: فهو لا يرضى العاقل المتبصر وكأنه يقول:
نعم، أنا لا أنازع فى كون الطبيعة والحركة: من أصول الموجودات: وإنما توقفت فى كيفية صدور الفعل منها.
فلو لم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد، فمن أين حصل لهذا العالم هذا النظام العجيب، والترتيب الغريب، الذى حارت فيه العقول، وقصرت عن إدراكه الفحول.
كيف ينسب ذلك إلى الاتفاق والصدفة ومجرد البخت، ليت شعرى، كيف اجتمعت تلك الأجزاء، وكيف تألفت علىّ، على اختلاف أشكالها وتباين موادها وقواها؟!، وكيف بقيت على تألفها؟! وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة؟!
وقد شهدت المعاينة: بأن حركات أجزاء لا نهاية لها ولا محرك لا تفضى إلا إلى غاية الالتباس وعدم القياس!
هذا لعمرى، كمثل من وضع حروف المعجم فى ظرف، أو صندوق، ثم جعل يحركها يوماً بعد يوم طمعاً منه أنها تتألف من تلقاء نفسها، فيتركب منها قصيدة بليغة، أو رسالة عميقة فى المنطق، أو كتاب فى الهندسة دقيق!!

يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، كذلك كان وكذلك يكون أبداً. وهؤلاء هم الزنادقة[1].

= أليس ذلك من السفه البين، فإنه لو دام على تحريكها السنين والدهور لما حصل من كده إلا على حروف! فكيف يتصور حدوث هذا الوجود «العالم» بما هو عليه من الإتقان والإحكام وتضافر الأجزاء، وعجيب مناسباتها بعضها لبعض، من حركات اتفاقيه فى خلاء لانهاية له؟!

قال أرسطو فى كتاب: «سمع الكيان»:

«إن كل نظام يدل على وجود العقل».

«ب» وفضلا عن هذا، فإن ما يحصل اتفاقاً لا يحصل إلا مرة واحدة، ولا يتكرر، ولا يسوغ بناء حكم عقلى عليه، ولا يقبل القياس، بخلاف ما شهدت به التجربة فى عالمنا من الثبوت. ولولا هذا لما أمكن إنشاء علم من العلوم الرياضية والطبيعية.

«جـ» هذا، وإذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة، ولا شىء سواها، فمن أين هذه القوة العقلية التى يجدها كل واحد من نفسه؟!

وهى -مع ما فيها: من العجز، والقصور، وكثرة الخطأ- من أظهر الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة فى هذا العالم.

ولا سبيل، من المادة، إلى الأفعال العقلية لما بينهما من المغايرة الأصلية.

فوجود هذه القوة: يستدعى وجود جوهر يجانسها ويماثلها، ليكون أصلا لها ومركزاً.

هل يحتمل: أن ما نشاهده من تصور المعقولات، والكشف عن الكليات وتفريق القضايا، وتركيب القياسات، ليس هو، فى نفس الأمر، إلا أصطكاك جزء من المادة بجزء آخر!!

هل يحتمل: أن ما تضمنه عقولنا: من الأبحاث الدقيقة، والمآخذ العميقة: كالمنطق، والرياضيات، والإلهيات، وما فتنت به القلوب: من الشعر الرائق، والمطرب من الالحان، وسحر البيان: أصله من تلك الأجزاء؟!

وكانبعاث النار من اصطكاك الحجر بالحجر، وذلك فى خصوص النار؛ إذ ليس بين مادة النار ومادة الحجر فرق كبير.

(د) إن المادة غير قادرة على أن تكون علة نفسها، فمن باب أحرى وأولى: أنها لاتكون علة لما هو أعلى منها مكاناً وأهم شأنا، فى درجة الوجود؛ وإلا كان الأخص أصلا لما هو أرفع، وهذا ما يستبعده العقل وتأنفه الفطرة السليم.

(١) يقول «سنتلانا» أيضاً:

«من تبصر فى عواقب الأمور تحقق: أن مثل هذا الرأى لا يفضى، فى كل زمان، إلا إلى إنكار الحقائق وهدم دعائم العقل. كيف لا ومن قال إنه ليس فى الوجود إلا المحس ولا شىء سواه، كيف يمكن له أن يحكم بالوجود؟

وقد أصاب المحقق ناصر الدين الطوسى فى شرح المحصل حيث قال نقلا عن أرسطو وغيره.

الحس أدراك فقط.

والحكم تأليف بين مدركات بالحس أو بغير الحس.

وليس من شأن الحس التأليف الحكمى، لأنه إدراك فقط، فلا شىء من الأحكام محسة أصلا، فإذن كل ما هو

والصنف الثانى: الطبيعيون: وهم قوم أكثروا بحثهم: عن عالم الطبيعة، وعن عجائب الحيوان، والنبات.

وأكثروا الخوض فى علم تشريح أعضاء الحيوانات.

فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى، وبدائع حكمته، ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم مضطلع على غايات الأمور ومقاصدها، ولا يطالع التشريح، وعجائب منافع الأعضاء مطالع، إلا ويحصل له هذا العلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان، لا سيما بنية الإنسان.

إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة -ظهرعندهم، لاعتدال المزاج، تأثير عظيم فى قوام قوى الحيوان به، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم. ثم إذا انعدم، فلا يعقل إعادة المعدوم، كما زعموا. فذهبوا إلى أن النفس: تموت ولا تعود، فجحدوا الآخرة، وأنكروا الجنة والنار، والحشر، والنشر، والقيامة، والحساب، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب، ولا للمعصية عقاب، فانحل عنهم اللجام، وانهمكوا فى الشهوات إنهماك الأنعام.

وهؤلاء أيضاً زنادقة، لأن أصل الإيمان هو: الإيمان بالله، واليوم الآخر، وهؤلاء جحدوا باليوم الآخر، وإن آمنوا بالله وصفاته.

الصف الثالث: الإلهيون: وهم المتأخرون منهم مثل: «سقراط»[1] هو أستاذ «أفلاطون» وأفلاطون أستاذ «أرسطاطاليس».

= محس لا يمكن أن يوصف، من حيث كونه محسا، بكونه يقينيا أوغير يقينى، أوحقا أو باطلا، أو صواباً أو غلطاً، فإن جميع هذه الأوصاف من لواحق الأحكام أهـ: وهو واضح لمن تحقق ماهية الحس، وأنه مقصور بالضرورة على خصوص المدرك لا يتعداه.

على أن المدرك والمدرك لازالا يغيران فكيف يحكم به على غيره، وكيف نبنى عليه حكما عقليا، وكيف نقف على حقيقته، إذ كل ذلك موقوف على ما هو غير الحس فإنى إذا تصورت، مثلا، أنى قد سمعت الصوت فقد تجاوزت حد الإدراك الحسى، وأدخلت فيه حكما عقلياً ليس له بالحس تعلق.

فكل فلسفة مقصورة على مجرد الحس لا يكون مثلها حينئذ إلا الشك فى الحقائق، كما وقع فى اليونان أثناء القرن الرابع قبل الميلاد:

(١) سقراط من أشهر فلاسفة الإغريق، ومؤسس فلسفة الأخلاق وإلى مدارسه الأخلاقية التى شادها تلاميذه من بعده ترجع أكثر الفكر الأخلاقية التى عرفتها فلسفات العصور حتى عصرنا هذا. =

و«أرسطاطاليس» هو الذى رتب لهم المنطق، وهذب لهم العلوم، وحرر لهم ما لم يكن محررا من قبل، وأنضج لهم ما كان فجاً من علومهم.

وهم بجملتهم، ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية، والطبيعية، وأوردوا فى الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم، وكفى الله المؤمنين القتال بتقاتلهم.

ثم رد «أرسطاطاليس» على «أفلاطون»[1] و«سقراط» ومن كان قبله من الإلهيين، رداً

= عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد، وجاهد فى سبيل الحق حتى لقى مصرعه على أيدى حاسديه من أنصار الباطل. فكان مصرعه مأساة دامية لا تزال حتى اليوم تثير أشجان أنصار الحق فى كل زمان ومكان، وتوحى إلى أنفسهم بأسمى مثل البطولة والشجاعة والثبات على الحق.

ومنهجه فى البحث مشهور، والحديث التالى يعطينا صورة منه. وقد جرى بينه وبين (أرسطو ديموس) الذى كان ينكر الإله، ومنه نستبين أيضاً بعض أفكاره.

قال سقراط: (أفى الناس من يعجبك براعته فى الصنائع؟ فقال:

نعم، وسمى من الشعراء والمصورين ممن كان يعده أبرع من غيره.

فقال سقراط: أيهما عندك أرفع شأنا؟ أمن يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل! أم من يصور الأشباح الحية المتحركة.

فقال: من يصنع الصور الحية، اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والاتفاق، لا من عمل العقل.

قال سقراط: إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها، وأشياء أخرى بينة القصد والمنفعة، فما قولك فى تلك الأشياء؟ ما هى التى عندك من فعل العقل، وما هى التى عندك من فعل الاتفاق؟

قال: لا شك أن ماظهر قصده ومنفعته من فعل العقل.

قال سقراط أو لست ترى أن صانع الإنسان فى أول نشأته جعل له آلات الحس لما فى تلك الآلات من المنفعة الظاهرة؟ فأعطاه البصر، والاذنين: ليبصر ويسمع ما يعيشه صادقا. وما فائدة الروائح لو لم تكن لنا الخياشيم وكيف ندرك المطاعم، ونفرق بين المر والحلو والمز، لو لم يكن لنا لسان نذوق به؟ إن بصرنا معرض الآفات، أو لست ترى كيف أعتنت القدرة الإلهية بذلك؟ فجعلت الاجفان كالابواب لتمنع ما يصيب البصر، وجعلت الاهداب كالمناخل لتقيها من أضرار الرياح، وما قولك فى آلة السمع، وهى تقبل جميع الاصوات ولا تمتلىء أبداً؟ أما رأيت الحيوانات، وكيف رتبت أسنانها المقدمة. وأعدت لقطع الأشياء فتلقيها إلى الأضراس فتدقها دقاً..

فإذا تأملت فى ترتيب ذلك، أيمكنك أن تشك: هل هى من فعل الاتفاق أم من فعل العقل؟

قال أرسطو ديموس: نعم إذا تفكرنا فى ذلك، لا شك فى أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته (من مخطوط «ستلانا»).

(١) فيلسوف يونانى ولد سنة ٤٢٩، وتوفى سنة ٣٤٧ق م، ويطلق عليه (أفلاطون الإلهى) ذلك أن الروحانية: تحتل من فلسفته المركز الرئيسى. ونظريته فى (المثل)، وعلى رأسها مثال الخير) مشهورة، وقد ترجم من كتبه إلى العربية حديثا بعض المحاورات، وكتاب (الجمهورية).

لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم، إلا أنه استبقى أيضاً من رزائل كفرهم، وبدعتهم، بقايا لم يوفق للنزوع عنها، فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين: «كابن سينا» و«الفارابى» وأمثالهما.

على أنه لم يقم بنقل علم: «أرسطاطاليس»[(١)] أحد من متفلسفة الإسلاميين كقيام هذين الرجلين، وما نقله غيرهما ليس يخلو عن تخبيط وتخليط، يتشوش فيه قلب المطالع، حتى لا يفهم: وما لا يفهم: كيف يرد أو يقبل؟ ومجموع ما صح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس، بحسب نقل هذين الرجلين، ينحصر فى ثلاثة أقسام:

١- قسم يجب التكفير به.

٢- وقسم يجب التبديع به.

٣- وقسم لا يجب إنكاره أصلاً، فلنفصله.

أقسام علومهم:

إعلم: أن علومهم -بالنسبة للغرض الذى نطلبه- ستة أقسام رياضية، ومنطقية، وطبيعية، وإلهية، وسياسية وخلقية.

١- أما الرياضية: فتتعلق بعلم الحساب، والهندسة، وعلم هيئة العالم، وليس يتعلق شىء منها بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً، بل هى أمور برهانية، لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها، ومعرفتها.

وقد تولدت منها آفتان:

الأولى: أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها، ومن ظهور براهينها: فيحسن بسبب ذلك اعتقاده فى الفلاسفة، فيحسب أن جميع علومهم فى الوضوح، وفى وثاقة البرهان،

---

(١) أرسطو (٣٨٤- ٣٢٢ ق م)، هو : أعظم فلاسفة اليونان الأقدمين ويعده بعض الناس أعظم شخصية فلسفية وجدت حتى الآن، وهو مقدونى الأصل، رحل إلى أثينا وتتلمذ على يد «أفلاطون» ولازمه، ويسمى اتباعه «بالمشائين»، ويلقب هو بـ (المعلم الأول) لأنه أول من رتب المنطق ونظمه، وكونه علماً، له حدوده وأهدافه، وقد طلب إليه «الملك فيليبس المقدونى» تعليم ابنه «الاسكندر» فأخذ يعلمه ثلاث سنوات، وقد ترجم إلى العربية حديثاً من كتبه كتاب «الأخلاق» و«الكون والفساد» و(السياسة) ترجمها الأستاذ الكبير (أحمد لطفى السيد) وترجم له الاستاذ (الأهوانى) كتاب النفس.

كما العلم. ثم يكون قد سمع من كفرهم، وتعطيلهم، وتهاونهم بالشرع، ماتداولته الألسنة، فيكفر بالتقليد المحض، ويقول: لو كان الدين حقاً، لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم فى هذا العلم! فإذا عرف، بالتسامع، كفرهم وجحدهم، فيستدل على أن الحق: هو الجحد والإنكار للدين، وكم رأيت من يضل عن الحق بهذا القدر ولا مستند له سواه!

وإذا قيل له: الحاذق فى صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً فى كل صناعة، فلا يلزم أن يكون الحاذق فى الفقه، والكلام، حاذقاً فى الطب، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلا بالنحو، بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق، وإن كان الحمق والجهل قد يلزمهم فى غيرها، فكلام الأوائل فى الرياضيات برهانى، وفى الإلهيات تخمينى لا يعرف ذلك إلا من جربه وخاض فيه. فهذا إذا قرر على هذا الذى انخدع بالتقليد لم يقع منه موقع القبول، بل تحمله غلبة الهوى وشهوة البطالة، وحب التكايس، على أن يصر على تحسين الظن بهم فى العلوم كلها.

فهذه آفة عظيمة، لأجلها يجب زجر كل من يخوض فى تلك العلوم، فإنها وإن لم تتعلق بأمر الدين، ولكن لما كانت من مبادىء علومهم، يسرى إليه شرهم وشؤمهم فقلّ من يخوض فيها، إلا وينخلع من الدين، وينحل عن رأسه لجام التقوى.

الآفة الثانية نشأت من صديق للإسلام جاهل ظن أن الدين ينبغى أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم: فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها، حتى أنكر قولهم فى الكسوف، والخسوف، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع، لم يشك فى برهانه، لكن اعتقد أن الإسلام مبنى على الجهل، وإنكار البرهان القاطع، فازداد للفلسفة حباً، وللإسلام بغضاً.

ولقد عظمت على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم، وليس فى الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفى، والإثبات، ولا فى هذه العلوم تعرض للأمور الدينية. وقوله عليه السلام:

«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى: لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته؛ فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله تعالى، وإلى الصلاة».

ليس فى هذا إنكار علم الحساب، المعرف بمسير الشمس، والقمر، واجتماعهما، أو مقابلتهما، على وجه مخصوص.

أما قوله، عليه السلام: «لكن الله إذا تجلى لشىء خضع له» فليس توجد هذه الزيادة فى الصحاح أصلا.

فهذا حكم الرياضيات وآفاتها.

٢- وأما المنطقيات: فلا يتعلق شىء منها بالدين، نفياً، وإثباتاً، بل هو النظر فى طرق الأدلة والمقاييس، وشروط مقدمات البرهان، وكيفية تركيبها.

وشروط الحد الصحيح، وكيفية ترتيبه.

وأن العلم. إما تصور، وسبيل معرفته، الحد، وإما تصديق، وسبيل معرفته بالبرهان.

وليس فى هذا ما ينبغى أن ينكر، بل هو من جنس ماذكره المتكلمون وأهل النظر فى الأدلة، وإنما يفارقونهم بالعبارات، والاصطلاحات، وبزيادة الاستقصاء فى التعريفات والتشعيبات.

ومثال كلامهم فيها قولهم: إذا ثبت أن كل(أ) (ب)، لزم أن بعض (ب)(أ) أى: إذا ثبت أن كل إنسان حيوان، لزم أن بعض الحيوان إنسان، ويعبرون عن هذا بأن الموجبة الكلية، تنعكس موجبة جزئية. وأى تعلق لهذا بمهمات الدين، حتى يجحد وينكر؟ فإذا أنكر، لم يحصل من إنكاره -عند أهل المنطق- إلا سوء الاعتقاد فى عقل المنكر، بل فى دينه الذى يزعم أنه موقوف على هذا الإنكار.

نعم لهم نوع من الظلم فى هذا العلم، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يعلم أنها تورث اليقين، لا محالة، لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية، ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط، بل تساهلوا غاية التساهل.

وربما ينظر فى المنطق أيضاً، من يستحسنه، ويراه واضحاً، فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين، فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهية.

فهذه الآفة أيضاً متطرقة إليه.

٣ - وأما علم الطبيعيات: فهو بحث عن عالم السموات، وكواكبها، وماتحتها من الأجسام المفردة: كالماء، والهواء، والتراب، والنار، ومن الأجسام المركبة: كالحيوان، والنبات، والمعادن، وعن أسباب تغيرها، واستحالتها، وامتزاجها، وذلك يضاهى بحث الطب عن جسم الإنسان، وأعضائه الرئيسية والخادمة، وأسباب استحالة مزاجه. وكما أنه ليس من شرط الدين إنكار علم الطب، فليس من شرطه أيضاً إنكار ذلك العلم، إلا فى مسائل معينة، ذكرناها فى كتاب: «تهافت الفلاسفة» وما عداها مما يجب المخالفة فيها، فعند التأمل، يتبين أنها مندرجة تحتها.

وأصل جملتها: أن تعلم أن الطبيعة مسخرة لله، تعالى، لا تعمل بنفسها، بل هى مستعملة من جهة فاطرها. والشمس، والقمر، والنجوم، والطبائع مسخرات بأمره، لا فعل لشىء منها بذاته عنه ذاته.

٤- وأما الإلهيات: ففيها أكثر أغاليطهم، فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه فى المنطق، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها.

ولقد قرب مذهب «أرسطاطاليس»، فيها من مذاهب الإسلاميين، على ما نقله الفارابى[1]، وابن سينا[2].

ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين، أصلا يجب تكفيرهم فى ثلاثة منها، وتبديعهم فى سبعة عشر.

---

(١) «الفارابى»: (٢٦٠ - ٣٣٩هـ) ولد فى «فاراب» وهو إقيم فارسى فى تخوم بلاد (الترك) رحل إلى (بغداد)، ثم استقر به المقام فى كنف (سيف الدولة)، يعيش عيشة الزهد، موجهاً كل همه إلى الدراسة والتأمل. يقول (ابن خلكان): وكان مدة مقامه بـ(دمشق) لا يكون -غالباً- إلا عند مجتمع ماء، أو مشتبك رياض، ويؤلف هناك كتبه، ويتناويه المشتغلون عليه.

وكان (الفارابى) يحسن (الموسيقى) تلحيناً وتوقيعاً، حتى ليحكى (ابن خلكان): أن (الآلة الموسيقية): (القانون) إنما هى من وضعه: وقد أطلق عليه المسلمون: (المعلم الثانى)، كما أطلق على (أرسطو): (المعلم الأول).

وتقدير المؤرخين له متفاوت: فمنهم من يقدمه على (ابن سينا)، ومنهم من يقدم (ابن سينا) عليه.

(٢) (ابن سينا): (٢٧٠ - ٤٢٨هـ) **كان فيلسوفاً عظيما من فلاسفة الإسلام، كما كان له فى الطب قدم راسخة وفهم دقيق، وقد ألف فيه كتاب: (القانون) الذى كان يدرس فى معاهد (أوربا) عدة قرون.**

أما كتبه الفلسفية **فكثيرة ومتداولة، ومن أشهرها كتاب (الإشارات)، وكتاب: (الشفاء) وكتاب: (النجاة).**

ولإبطال مذهبهم فى هذه المسائل العشرين، صنفنا كتاب «التهافت».

أما المسائل الثلاث، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين، وذلك فى قولهم:

١- إن الأجساد لا تحشر[١]، وإنما المثاب، والمعاقب هى الأرواح المجرده، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية.

---

(١) لعل من الإنصاف، الذى يدعو إليه دائما الأمام الغزالى، أن نذكر رأى ابن رشد فى المسائل الثلاث التى كفر بها الامام الغزالى الفلاسفة.

نذكر رأى ابن رشد، مختصراً، عن كتابى: (فصل المقال) و: (الكشف عن مناهج الأدلة).

يقول ابن رشد:

والمعاد مما اتفقت على وجوده الشرائع، وقامت عليه البراهين عند العلماء وإنما اختلفت الشرائع فى صفة وجوده، ولم تختلف فى الحقيقة فى وجوده، وإنما اختلفت فى الشاهدات التى مثلت بها للجمهور تلك الحال الغائبة: وذلك أن من الشرائع من جعله روحانياً أعنى للنفوس، ومنها من جعله للأجسام وللنفوس معا. والاتفاق فى هذه المسألة مبنى على اتفاق الوحى فى ذلك، واتفاق قيام البراهين الضرورية عند الجميع فى ذلك، أعنى: أنه قد اتفق الكل على أن للإنسان سعادتين: أخراوية ودنياوية وانبنى ذلك عند الجميع على أصول يعترف بها عند الكل.

ثم أخذ ابن رشد فى بيان هذه الأصول، من العقل والنقل، ثم قال: فالشرائع كلها، كما قلنا: متفقة على أن للنفس من بعد الموت أحوالا: من السعادة، أوالشقاء، ولكنها مختلفة فى تمثيل هذه الأحوال، وتفهيم وجودها للناس. ويشبه أن يكون التمثيل الذى فى شريعتنا هذه أتم إفهاما لأكثر الناس، وأكثر تحريكا لنفوسهم إلى ما هنالك، والأكثرون هم المقصود الأول بالشرائع.

وأما التمثيل الروحانى فيشبه أن يكون أقل تحريكا لنفوس الجمهور إلى ما هنالك، والجمهور: أقل رغبة فيه، وخوفا له، منهم فى التمثيل الجسمانى، ولذلك يشبه أن يكون التمثيل الجسمانى: أشد تحريكا إلى ما هنالك من الروحانى. والروحانى أشد قبولا عند المتكلمين المجادلين من الناس، وهم الأقل.

ولهذا المعنى، تجد أهل الإسلام -فى فهم التمثيل الذى جاء فى ملتنا فى أحوال المعاد- ثلاث فرق:

فرقة رأت أن ذلك الوجود هو بعينه هذا الوجود الذى ههنا من النعيم واللذة، أعنى أنهم رأوا أنه واحد بالجنس وأنه إنما يختلف الوجود ان بالدوام والانقطاع، أعنى أن ذلك دائم، وهذا منقطع.

وطائفة رأت أن الوجود متباين، وهذه انقسمت قسمين: طائفة رأت أن الموجود الممثل بهذه المحسات: هو روحانى، وأنه إنما مثل به إراة البيان، ولهؤلاء حجج كثيرة من الشريعة مشهورة، فلا معنى لتعديدها.

وطائفة رأت أنه جسمانى، لكن اعتقدت أن تلك الجسمانية -الموجودة هناك- مخالفة لهذه الجسمانية، لكون هذه باليه، وتلك باقية، ولهذه أيضاً حجج من الشرع.

ويشبه أن ابن عباس يكون ممن يرى هذا الرأى لأنه روى عنه أنه قال: ليس فى الدنيا من الآخرة إلا أسماء.

ويشبه أن يكون هذا الرأى هو أليق بالخواص.

وذلك أن إمكان هذا الرأى: ينبنى على أمور ليس فيها منازعة عند الجميع.

أحدها، أن النفس باقية.

-

ولقد صدقوا فى إثبات الروحانية، فإنها كائنة أيضاً، ولكن كذبوا فى إنكار الجسمانية، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به.

٢- ومن ذلك قولهم: إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات(١) وهذا أيضا كفر صريح، بل الحق أنه: «لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض».

٣- ومن ذلك قولهم بقدم العالم وأزليته(٢)، فلم يذهب أحد من المسلمين إلى شىء من هذه المسائل.

= **والثانى:** أنه ليس يلحق عن عودة النفس إلى أجسام أخر المحال الذى يلحق عن عودة تلك الأجسام بعينها. وذلك: أنه يظهر أن مواد الأجسام التى ههنا توجد متعاقبة، ومتنقلة من جسم إلى جسم، أعنى: أن المادة الواحدة بعينها توجد لأشخاص كثيرة، فى أوقات مختلفة، وأمثال هذه الأجسام ليس يمكن أن توجد كلها بالفعل لأن مادتها هى واحدة.

مثال ذلك أن إنساناً مات، وإستحال جسمه إلى التراب، واستحال ذلك التراب إلى نبات، فاغتذى إنسان آخر من ذلك النبات، فكان منه منى حين تولد منه إنسان آخر.

وأما إذا فرضت أجسام أخر، فليس تلحق هذه الحال.

والحق فى هذه المسألة أن فرض كل إنسان فيها: هو ما أدى إليه نظره فيها، بعد أن يكون نظراً لا يفضى إلى أبطال الأصل جملة، وهو إنكار الوجود جملة، فإن هذا النحو من الاعتقاد، يوجب تكفير صاحبه لكون العلم بوجود هذه الحال للإنسان معلوماً للناس، بالشرائع، والعقول».

(١) يذكر ابن رشد عن الإمام الغزالى قوله: إن الفلاسفة: يرون: أنه، سبحانه، لا يعلم الجزئيات ثم يقول: «وليس الأمر كما توهم عليهم، بل يرون: (الفلاسفة): أنه لا يعلم الجزئيات بالعلم المحدث الذى من شرطه الحدوث بحدوثها إذ كان (علم الله) علة لها، لا معلولا عنها، كالحال فى العلم المحدث.

وهذا هو غاية التنزيه الذى يجب أن يعترف به، فإنه قد اضطر البرهان إلى أنه: عالم بالأشياء، لأن صدورها عنه إنما هو من جهة أنه عالم، لا من جهة أنه موجود فقط، أو موجود بصفة كذا، بل من جهة أنه عالم، كما قال تعالى: (ألا يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير). وقد اضطر البرهان إلى أنه غير عالم بها بعلم هو على صفة العلم المحدث، فواجب أن يكون هنالك للموجودات علم آخر، لا يكيف، وهو علم القديم سبحانه. وكيف يمكن أن يتصور أن المشائين من الحكماء، يرون أن العلم القديم لا يحيط بالجزئيات وهم يرون أنه سبب الانذرات فى المنامات، والوحى، وغير ذلك من أنواع الالهامات).

(٢) يقول ابن رشد: **وأما مسألة قدم العالم، أو حدوثه، فإن الاختلاف فيها -عندى- بين المتكلمين من الأشعرية، وبين الحكماء المتقدمين: يكاد يكون راجعاً للاختلاف فى التسمية، وبخاصة عند بعض القدماء، وذلك أنهم اتفقوا على أن ههنا ثلاثة أصناف من الموجودات: طرفان، وواسطة بين الطرفين، فاتفقوا فى تسمية الطرفين، واختلفوا فى الواسطة.**

فأما الطرف الواحد، فهو موجود وجد من شىء غيره، وعن شىء: أعنى من سبب فاعل، ومن مادة، والزمان متقدم عليه -أعنى على وجوده- وهذه هى حال الأجسام التى يدرك تكونها بالحس، مثل تكون: =

= الماء والهواء، والأرض، والحيوان، والنبات، وغير ذلك، فهذا الصنف من الموجودات اتفق الجميع من القدماء والأشعرين، على تسميتها محدثة.

وأما الطرف المقابل لهذا: فهو موجود لم يكن من شيء ولا عن شيء. ولا تقدمه زمان، وهذا أيضاً اتفق الجميع من الفرقتين على تسميته قديما. وهذا الموجود مدرك بالبرهان، وهو الله تبارك وتعالى، الذى هو فاعل الكل، وموجده، والحافظ له، سبحانه وتعالى قدره.

وأما الصنف من الموجود، الذى بين هذين الطرفين. فهو موجود لم يكن من شيء، ولا تقدمه زمان، ولكنه موجود عن شيء -أعنى عن فاعل- وهذا هو العالم بأسره. والكل منهم متفق على وجود هذه الصفات الثلاث العالم، فإن المتكلمين يسلمون أن الزمان غير متقدم عليه، أو يلزمهم ذلك، إذ الزمان عندهم شيء مقارن للحركات والأجسام، وهم أيضا متفقون مع القدماء، على أن الزمان المستقبل غير متناه، وكذلك الوجود المستقبل، وإنما يختلفون فى الزمان الماضى والوجود الماضى:

فالمتكلمون يرون أنه متناه، وهذا هو مذهب «أفلاطون، وشيعته.

و(أرسطو) وفرقته يرون أنه: غير متناه، كالحال فى المستقبل. فهذا الوجود الآخر، الأمر فيه بين أنه قد أخذ شبهاً من الوجود الكائن المحدث، ومن الوجود القديم، فمن غلب عليه ما فيه من شبه القديم، على ما فيه من شبه المحدث، سماه قديماً. ومن غلب عليه ما فيه من شبه المحدث، سماه محدثاً. وهو فى الحقيقة ليس محدثاً حقيقاً، ولا قديماً حقيقا، فإن المحدث الحقيقى فاسد ضرورة، والقديم الحقيقى ليس له علة.

ومنهم من سماة محدثاً أزلياً، وهو (أفلاطون) وشيعته، لكون الزمان متناهيا عندهم من الماضى، فالمذاهب فى العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها أو لا يكفر، فإن الآراء التى شأنها هذا، يجب أن تكون فى الغاية من التباعد، أعنى أن تكون متقابلة، كما ظن المتكلمون فى هذه المسألة، أعنى أن اسم القدم والحدوث فى العالم بأسره هو من المتقابلة، وقد تبين من قولنا: إن الأمر ليس كذلك.

وهذا كله، مع أن هذه الآراء فى العالم ليست على ظاهر الشرع، فإن ظاهر الشرع إذا تصفح ظهر من الآيات الواردة، ففى الأنباء عن إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة، وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين -أعنى غير منقطع- وذلك أن قوله تعالى: (وهوالذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام، وكان عرشة على الماء) يقتضى بظاهره، أن وجوداً قبل هذا الوجود -وهو العرش والماء- وزماناً قبل هذا الزمان: أعنى المقترن بصورة هذا الوجود، الذى هو عدد حركات الفلك. وقوله تعالى: (يوم تبدل الأرض غير الأرض، والسموات) يقتضى بظاهره أن وجوداً ثانياً بعد هذا الوجود. وقوله تعالى: (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) يقتضى بظاهره أن السماوات والأرض خلقت من شيء.

والمتكلمون: ليسوا، فى قولهم أيضاً فى العالم، على ظاهر الشرع، بل متأولون، فإنه ليس فى الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحض، ولا يوجد هذا فى نص أبداً، فكيف يتصور فى تأويل المتكلمين فى هذه الآيات: أن الإجماع انعقد عليه؟ والظاهر الذى قلناه عن الشرع فى وجود العالم، قد قال به فرقة من الحكماء، ويشبه أن يكون المختلفون فى هذه المسائل العويصة إما مصيبين مأجورين، وإما مخطئين معذورين: فإن التصديق بالشيء قبل الدليل القائم فى النفس، هو شيء اضطرارى، لا اختيارى: أعنى أنه ليس لنا أن نصدق، أو لا نصدق، كما لنا أن نقوم، أو لا نقوم. وإذا كان من شرط التكليف الاختيار، فالمصدق بالخطأ من قبل شبهة عرضت له إذا كان من أهل العلم معذورا، ولذلك قال عليه السلام: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب، فله أجران، وإن أخطأ، فله أجر).

وأى حاكم أعظم من الذى يحكم على الوجود بأنه كذا، أوليس بكذا؟! وهؤلاء الحكماء هم العلماء، خصهم الله بالتأويل.

وأما ما وراء ذلك: من تفهيم الصفات، وقولهم، إنه عليم بالذات، لا بعلم زائد على الذات، وما يجرى مجراه، فمذهبهم، فيها: قريب من مذهب المعتزلة، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك.

وقد ذكرنا فى كتاب: فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، ما يتبين فيه فساد رأى من يسارع إلى التكفير فى كل ما يخالف مذهبه.

٥- وأما السياسات: فمجموع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصلحية، المتعلقة بالأمور الدنيوية، والإيالة السلطانية، وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء.

٦- وأما الخلقية: فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها، وذكر أجناسها، وأنواعها، وكيفية معالجتها، ومجاهدتها.

وإنما أخذوها من كلام الصوفية، وهم المتألهون، المثابرون على ذكر الله، تعالى، وعلى مخالفة الهوى، وسلوك الطريق إلى الله، تعالى، بالإعراض عن ملاذ الدنيا. وقد انكشف لهم فى مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها، وآفات أعمالها ما صرحوا بها، فأخذها الفلاسفة، ومزجوها بكلامهم، توسلا بالتجمل بها إلى ترويج باطلهم.

وقد كان فى عصرهم، بل فى كل عصر، جماعة من المتألهين، لا يخلى الله، سبحانه العالم عنهم، فإنهم أوتاد الأرض، ببركاتهم تنزل الرحمة إلى أهل الأرض، كما ورد فى الخبر حيث قال عليه السلام: «بهم تمطرون، وبهم ترزقون. ومنهم كان أصحاب الكهف».

وكانوا فى سالف الأزمنة، على ما نطق به القرآن.

فتولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية، بكتبهم آفتان.

١- آفة فى حق القابل.

٢- آفة فى حق الراد.

١- أما الآفة فى حق الراد فعظيمة؛ إذ ظنت طائفة من الضعفاء أن ذلك الكلام إذا كان مدوناً فى كتبهم، وممزوجاً بباطلهم ينبغى أن يهجر ولايذكر، بل ينكر على كل من يذكره، إذ لم يسمعوه أولا إلا منهم، فسيق إلى عقولهم الضعيفة أنه باطل، لأن قائله

مبطل، كالذى يسمع من النصرانى قول: «لا إله إلا الله عيسى رسول الله» فينكره ويقول: «هذا كلام النصرانى، ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصرانى: كافر، باعتبار هذا القول، أو باعتبار إنكاره نبوة -محمد عليه السلام-؟ فإن لم يكن كافراً إلا باعتبار إنكاره، فلا ينبغى أن يخالف فى غير ما هو به كافر، مما هو حق فى نفسه، وإن كان أيضاً حقا عنده. وهذه عادة ضعفاء العقول يعرفون الحق بالرجال، لا الرجال بالحق.

والعاقل يقتدى بقول أمير المؤمنين «على بن أبى طالب» رضي الله عنه حيث قال: «لا تعرف الحق بالرجال، بل اعرف الحق، تعرف أهله».

والعاقل يعرف الحق، ثم ينظر فى نفس القول. فإن كان حقاً قبله، سواء كان قائله مبطلا، أو محقاً. بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل أهل الضلال، عالماً بأن معدن الذهب: الرغام[1]. ولا نأس على الصراف إن أدخل يده فى كيس القلاب، وانتزع الإبريز الخالص، من الزيف والبهرج، مهما كان واثقاً ببصيرته. وإنما يزجر عن معاملة القلاب القروى دون الصيرفى البصير. ويمنع من ساحل البحر الأخرق دون السباح الحاذق ويصد عن مس الحبة الصبى، دون المعزم البارع.

ولعمرى، لما غلب على أكثر الخلق ظنهم بأنفسهم الحذاقة والبراعة، وكمال العقل، فى تمييز الحق عن الباطل، والهدى عن الضلالة، وجب حسم الباب فى زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلالة ما أمكن، إذ لا يسلمون عن الآفة الثانية التى سنذكرها، وإن سلموا عن الآفة التى ذكرناها.

ولقد اعترض على بعض الكلمات المبثوثة فى تصانيفنا، فى أسرار علوم الدين، طائفة من الذين لم تستحكم فى العلوم سرائرهم، ولم تتفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم.

وزعمت: أن تلك الكلمات من كلام «الأوائل[2]»، مع أن بعضها من مولدات الخواطر، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر.

---

(١) الرغام: التراب.

(٢) يقصد بـ(الاوائل): الفلاسفة القدماء.

وبعضها يوجد فى الكتب الشرعية.

وأكثرها موجود معناه فى كتب الصوفية.

وهب أنها لم توجد إلا فى كتبهم، فإذا كان ذلك الكلام معقولا فى نفسه، مؤيداً بالبرهان، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة، فلم ينبغى أن يهجر، أو ينكر.

فلو فتحنا هذا الباب،وتطرقنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل، لزمنا أن نهجر كثيراً من الحق، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من آيات القرآن، وأخبارالرسول، وحكايات السلف، وكلمات الحكماء، والصوفية: لأن صاحب كتاب: «إخوان الصفا» أوردها فى كتابه، مستشهداً بها ومستدرجا قلوب الحمقى بواسطتها إلى باطله، ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا، بإيداعهم إياه فى كتبهم.

وأقل درجات العالم: أن يتميز عن العامى الغمر(١)، فلا يعاف العسل وإن وجده فى محجمة الحجام، ويتحقق أن المحجمة لا تغير ذات العسل؛ فإن نفرة الطبع منه، مبنية على جهل عامى، منشؤه أن المحجمة إنما صنعت للدم المستقذر. فيظن أن الدم مستقذر لكونه فى المحجمة، ولا يدرى أنه مستقذر لصفة فى ذاته، فإذا عدمت هذه الصفة فى العسل، فكونه فى ظرفه لا يكسبه تلك الصفة، فلا ينبغى أن يوجب له الاستقذار.

وهذا وهم باطل، وهو غالب على أكثر الخلق، فمهما نسبت الكلام، وأسندته إلى قائل حسن فيه اعتقادهم، قبلوه، وإن كان باطلا. وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم، ردوه، وإن كان حقاً.

فأبداً يعرفون ا لحق بالرجال، ولا يعرفون الرجال بالحق، وهو غاية الضلال!!

هذه آفة الرد.

٢- آفة القبول: فإن من نظر فى كتبهم: كإخوان الصفا، وغيره، فرأى ما مزجوه بكلامهم، من الحكم النبوية، والكلمات الصوفية، ربما استحسنها، وقبلها، وحسن اعتقاده فيها. فيسارع إلى قبول باطلهم الممزوج به، لحسن ظن حصل فيما رآه، واستحسنه.

وذلك نوع استدراج إلى الباطل.

---

(١) رجل غمر: لم يجرب الامور.

ولأجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم، لما فيها من الغدر، والخطر.

وكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزالق الشطوط، يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب.

وكما يجب صون الصبيان عن مس الحيات، يجب صون الأسماع عن مختلط تلك الكلمات.

وكما يجب على المعزم ألا يمس الحية بين يديه ولده الطفل، إذا علم أنه سيقتدى به، ويظن أنه مثله، بل يجب عليه أن يحذره: بأن يحذر هو نفسه ولا يمسها بين يديه، فكذلك يجب على العالم الراسخ مثله.

وكما أن المعزم الحاذق إذا أخذ الحية، وميز بين الترياق والسم، فاستخرج منه الترياق وأبطل السم، فليس له أن يشح بالترياق على المحتاج إليه.

وكذلك الصراف الناقد البصير: إذا أدخل يده فى كيس القلاب، وأخرج منه الإبريز الخالص، وأطرح الزيف والبهرج، فليس له أن يشح بالجيد المرضى على من يحتاج إليه: كذلك العالم.

وكما أن المحتاج إلى الترياق، إذا اشمأزت نفسه منه، حيث علم أنه مستخرج من الحية، التى هى مركز السم: وجب تعريفه.

والفقير المضطر إلى المال، إذا نفر عن قبول الذهب المستخرج من كيس القلاب: وجب تنبيهه على أن نفرته: جهل محض. هو سبب حرمانه من الفائدة التى هى مطلبه، وتحتم تعريفه أن قرب الجوار بين الزيف والجيد: لا يجعل الجيد زيفاً كما لا يجعل الزيف جيداً، فكذلك قرب الجوار بين الحق والباطل: لا يجعل الحق باطلا، كما لا يجعل الباطل حقاً.

فهذا مقدار ما أردنا ذكره من آفة الفلسفة وغائلتها.

٣ - مذهب التعليم وغائلته

ثم إنى لما فرغت من علم الفلسفة، وتحصيله، وتفهيمه، وتزييف ما يزيف منه، علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض، وأن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات.

وكانت قد نبغت نابغة التعليمية، وشاع بين الخلق: تحدثهم بمعرفة معنى الأمور، من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق، عنّ لى: أن أبحث عن مقالاتهم: لأطلع على ما فى كتبهم.

ثُمّ اتفق: أن ورد علىّ أمر جازم من حضرة الخلافة، بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم، فلم يسعنى مدافعته، وصار ذلك مستحثاً من خارج، ضميمة للباعث الأصلى من الباطن.

فابتدأت بطلب كتبهم، وجمع مقالاتهم. وكان قد بلغنى بعض كلماتهم المستحدثة، التى ولدتها خواطر أهل العصر، لأعلى المنهاج المعهود من سلفهم فجمعت تلك الكلمات، ورتبتها ترتيباً محكماً، مقارناً للتحقيق، واستوفيت الجواب عنها، حتى أنكر بعض أهل الحق مبالغتى فى تقرير حجتهم، وقال: «هذا سعى لهم، إنهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم لمثل هذه الشبهات، لولا تحقيقك لها، وترتيبك إياها». وهذا الإنكار من وجهة: حق، فلقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبى[1]، رحمهما الله، تصنيفه فى الرد على المعتزلة، فقال الحارث:

«الرد على البدعة فرض».

---

(١) يقول عنه القشيرى: «عديم النظير فى زمانه: علماً، وورعاً ومعاملة وحالا: بصرى الأصل، مات بـ«بغداد» سنة ثلاث وأربعين ومائتين. قال «أبو عبد الله بن خفيف». اقتدوا بخمسة من شيوخنا، والباقون لهم حالهم: (الحارث بن أسد المحاسبى) و(الجنيد بن محمد) و(أبو محمد رويم) و(أبوالعباس بن عطاء) و(عمر بن عثمان المكى)، لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق.

ومما يروى عنه: قوله من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص، زين الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة.

وقد ألف كتباً كثيرة، يوجد بعضها مخطوطا فى (دار الكتب المصرية) وفى (مكتبة الجامعة).

وأنفس ما تعرف من كتبه: (كتاب الرعاية لحقوق الله)، وقد طبعته الآنسة (مرجريث سميث) وطبعناه فى القاهرة طبعة متقنه. وقد طبع له كتاب: (التوهم) بالقاهرة.

فقال أحمد:

نعم، ولكن حكيت شبهتهم أولا. ثم أجبت عنها. فبم تأمن أن يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه، ولا يلتفت إلى الجواب، أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه؟.

وما ذكره أحمد : حق، ولكن في شبه لم تنتشر ولم تشتهر، فأما إذا انتشرت، فالجواب عنها واجب، ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية. نعم، ينبغى ألا يتكلف لهم شبهة، ولم أتكلف أنا ذلك، بل كنت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من أصحابى المختلفين إلى، بعد أن كان قد التحق بهم، وانتحل مذهبهم، وحكى أنهم يضحكون على تصانيف المصنفين، فى الرد عليهم؛ فإنهم لم يفهموا بعد حجتهم. وذكر تلك الحجة، وحكاها عنهم، فلم أرض لنفسى أن يظن بى الغفلة عن أصل حجتهم، فلذلك أوردتها، ولا أن يظن بى أنى ، وإن سمعتها، فلم أفهمها، فلذلك قررتها.

والمقصود أنى قررت شبهتهم إلى أقصى الإمكان، ثم أظهرت فسادها بغاية البرهان.

والحاصل: أنه لا حاصل عند هؤلاء ، ولا طائل لكلامهم.

ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل، لما انتهت تلك البدعة- مع ضعفها- إلى هذه الدرجة.

لكن شدة التعصب، دعت الضالين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم، فى مقدمات كلامه، وإلى مجاحدتهم فى كل ما نطقوا به. فجاحدوهم فى دعواهم «الحاجة إلى التعليم، والمعلم» ودعوهم أنه: «لا يصلح كل معلم، بل لا بد من معلم معصوم، وظهرت حجتهم فى إظهار الحاجة إلى التعليم، والمعلم. وضعف قول المنكرين فى مقابلته: فاغتر بذلك جماعة، وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم، ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق، وجهله بطريقه، بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى المعلم، وأنه لابد وأن يكون المعلم معصوماً، ولكن معلمنا المعصوم هو : محمد، عليه الصلاة والسلام.

فإذا قالوا: «هو ميت».

فنقول: (فمعلمكم غائب).

فإذا قالوا: معلمنا قد علم الدعاة ، وبثهم فى البلاد، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا، أو أشكل عليهم مشكل» .

فنقول: «ومعلمنا قد علم الدعاة، وبثهم فى البلاد، وأكمل التعليم؛ إذ قال الله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى» وبعد كمال التعليم، لا يضر موت المعلم، كما لا تضر غيبته.

فبقى قولهم: «كيف تحكمون فيما تسمعوه ؟، أبالنص، ولم تسمعوه أم بالاجتهاد والرأى، وهو مظنة الخلاف» .

فنقول: نفعل ما فعله معاذ؛ إذ بعثه رسول الله ، عليه الصلاة والسلام، إلى اليمن[1]. أن تحكم بالنص، عند وجود النص، وبالاجتهاد، عند عدمه، بل كما يفعله دعاتهم إذا بعدوا عن الإمام إلى أقاصى البلاد، إذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص، فإن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع الغير المتناهية، ولا يمكنه الرجوع فى كل واقعة إلى بلدة الإمام، وإلى أن يقطع المسافة ويرجع، فيكون المستفتى قد مات، وفات الانتفاع بالرجوع.

فمن أشكلت عليه القبلة، ليس له طريق إلا أن يصلى بالاجتهاد، إذ لو سافر إلى بلدة الإمام لمعرفة القبلة، لفات وقت الصلاة. فإذن جازت الصلاة إلى غير القبلة بناء على الظن. ويقال: إن المخطئ فى الإجتهاد له أجر واحد، وللمصيب أجران، فكذلك فى جميع المجتهدات.

وكذلك أمر صرف الزكاة إلى الفقير، وربما يظنه فقيراً باجتهاد، وهو غنى باطناً، بإخفاء ماله، ولا يكون مؤاخذاً به وإن أخطأ، لأنه لم يؤاخذ إلا بموجب ظنه.

(١) حينما أراد رسول الله ﷺ، أن يبعث (معاذا) قاضياً بـ(اليمن)، قال له
بم تقضى يا (معاذ) ؟
فقال بما فى كتاب الله.
قال: فإن لم تجد؟
قال: بما فى سنة رسول الله.
قال: فإن لم تجد.
قال: اجتهد رأيى.
فقال رسول الله : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لمايحب رسول الله.

فإن قال: «ظن مخالفه كظنه».

فنقول: «هو مأمور بإتباع ظن نفسه، كالمجتهد فى القبلة، يتبع ظن نفسه، وإن خالفه غيره».

وإن قال: فالمقلد يتبع أبا حنيفة، والشافعى - رحمهما الله - أم غيرهما؟».

فأقول: «فالمقلد فى القبلة عند الاشتباه، إذا إختلف عليه المجتهدون، كيف يصنع؟».

فسيقول: «له مع نفسه إجتهاد فى معرفة الأفضل الأعلم بدلائل القبلة، فيتبع ذلك الإجتهاد، فكذلك فى المذاهب».

فرد الخلق إلى الإجتهاد - ضرورة - الأنبياء والأئمة مع العلم أنهم قد يخطئون. بل قال رسول الله ﷺ: «أنا أحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر». أى: أنا أحكم بغالب الظن الحاصل من قول الشهود، وربما أخطأوا فيه. ولا سبيل إلى الأمن من الخطأ للأنبياء فى مثل هذه المجتهدات: فكيف نطمع فى ذلك؟

ولهم ها هنا سؤالان:

أحدهما: قولهم: هذا وإن صح فى المجتهدات، فلا يصح فى قواعد العقائد؛ إذ المخطئ غير معذور، فكيف السبيل إليه؟

فأقول: قواعد العقائد، يشتمل عليها الكتاب والسنة، وما وراء ذلك من التفصيل، والمتنازع فيه: يعرف الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم. وهى الموازين التى ذكرها الله تعالى فى كتابه، وهى خمسة، ذكرتها فى كتاب «القسطاس المستقيم».

فإن قال: خصومك يخالفونك فى ذلك الميزان.

فأقول: لا يتصور أن يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه أهل التعليم، لأنى استخرجته من القرآن وتعلمته منه.

ولايخالف فيه أهل المنطق: لأنه موافق لما شرطوه فى المنطق، غير مخالف له.

ولا يخالف فيه المتكلم: لأنه موافق لمايذكره فى أدلة النظريات، وبه يعرف الحق فى الكلاميات.

فإن قال: فإن كان فى يدك مثل هذا الميزان، فلم لا ترفع الخلاف بين الخلق؟

فأقول: لو أصغوا إلى، لرفعت الخلاف بينهم.

وذكرت طريق رفع الخلاف فى كتاب «القسطاس المستقيم» فتأمله؛ لتعلم أنه: حق، وأنه يرفع الخلاف قطعاً لو أصغوا، ولا يصغون بأجمعهم!!

بل قد أصغى إلى طائفة، فرفعت الخلاف بينهم، وإمامك يريد رفع الخلاف بينهم مع عدم إصغائهم. فلم لم يرفع إلى الآن؟

ولم لم يرفع «على» رضي الله عنه، وهو رأس الأئمة؟ أو يدعى أنه يقدر على حمل كافتهم على الإصغاء قهراً، فلم لم يحملهم إلى الآن.

ولأى يوم أجله؟ وهل حصل بين الخلق، بسبب دعوته، إلا زيادة خلاف وزيادة مخالف؟ نعم!! كان يخشى من الخلاف نوع من الضرر لا ينتهى إلى سفك الدماء، وتخريب البلاد، وأيتام الأولاد، وقطع الطرق والإغارة على الأموال، وقد حدث فى العالم من بركات رفعكم الخلاف، من الخلاف مالم يكن بمثله عهد.

فإن قال: ادعيت: أنك ترفع الخلاف بين الخلق، ولكن المتحير بين المذاهب المتعارضة، والاختلافات المتقابلة، لم يلزمه الإصغاء إليك دون خصمك وأكثر الخصوم يخالفونك، ولا فرق بينك وبينهم؟

وهذا هو سؤالهم الثانى:

فأقول: هذا أولا ينقلب عليك، فإنك إذا دعوت هذا المتحير إلى نفسك فيقول المتحير: بم صرت أولى من مخالفيك، وأكثر أهل العلم يخالفونك؟ فليت شعرى! بماذا تجيب؟ أتجيب بأن تقول: **إمامى منصوص عليه، فمن يصدك فى دعوى النص، وهو لم يسمع النصّ من الرسول؟ إنما يسمع دعواك، مع تطابق أهل العلم على اختراعك وتكذيبك.**

ثم هب أنه سلم لك النص، فإن كان متحيراً فى أصل النبوة، فقال: هب أن إمامك **يدلى بمعجزة عيسى فيقول: الدليل على صدقى، أنى أحيى أباك، فأحياه، فناطقنى بأنه محق، فبماذا أعلم صدقه؟ ولم يعرف كافة الخلق صدق عيسى بهذه المعجزة، بل عليه من الأسئلة المشكلة مالا يدفع إلا بدقيق النظر العقلى، والنظر العقلى لايوثق به عندك،**

ولا يعرف دلالة على المعجزة على الصدق مالم يعرف السحر، والتمييز بينه وبين المعجزة، وما لم يعرف أن الله لا يضل عباده -وسؤال الإضلال وعسر تحرير الجواب عنه مشهور- فبماذا تدفع جميع ذلك؟ ولم يكون إمامك أولى بالمتابعة من مخالفة؟ فيرجع إلى الأدلة النظرية التى ينكرها، وخصمه يدلى بمثل تلك الأدلة، وأوضح منها، وهذا السؤال قد انقلب عليهم انقلاباً عظيماً، ولو اجتمع أولهم وآخرهم على أن يجيبوا عنه جواباً، لم يقدروا عليه.

وإنما نشأ الفساد من جماعة من الضعفة، ناظروهم، فلم يشتغلوا بالقلب، بل بالجواب، وذلك مما يطول فيه الكلام، ولايسبق سريعاً إلى الأفهام، فلا يصلح للإفحام.

فإن قال قائل: فهذا هو القلب، فهل عنه جواب؟

فأقول: نعم! جوابه: أن المتحير لو قال: أنا متحير. ولم يعين المسألة التى هو متحير فيها، يقال له: أنت كمريض يقول: أنا مريض، ولا يذكر عين مرضه، ويطلب علاجه. فيقال له: ليس فى الوجود علاج للمرض المطلق، بل لمرض معين: من صداع، أو إسهال، أو غيرهما. فكذلك المتحير ينبغى أن يعين ما هو متحير فيه. فإن عين المسألة عرفته الحق فيها، بالوزن بالموازين الخمسة، التى لا يفهمها أحد إلا ويعترف بأنه الميزان الحق الذى يوثق بكل ما يوزن به، فيفهم الميزان، ويفهم أيضاً صحة الوزن، كما يفهم متعلم الحساب نفس الحساب، وكون المحاسب المعلم عالماً بالحساب، وصادقاً فيه.

وقد أوضحت ذلك فى كتاب : القسطاس المستقيم، فى مقدار عشرين ورقة، فليتأمل.

وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم، فقد ذكرت ذلك فى كتاب: «المستظهرى» أولا.

وفى كتاب: «حجة الحق» ثانياً، وهو جواب كلام لهم عرض على «ببغداد».

وفى كتاب: «مفصل الخلاف» الذى هو اثنا عشر فصلا، ثالثاً، وهو جواب كلام عرض على «بهمدان».

وفى كتاب «الدرج» المرقوم «بالجداول» رابعاً، وهو من ركيك كلامهم، الذى عرض على «بطوس».

وفى كتاب: «القسطاس المستقيم» خامساً، وهو كتاب مستقل بنفسه، مقصوده: بيان ميزان العلوم، وإظهار الاستغناء عن الإمام المعصوم، لمن أحاط به.

بل المقصود: أن هؤلاء، ليس معهم شيء من الشفاء، المنجى من ظلمات الآراء، بل هم مع عجزهم عن إقامة البرهان على تعيين الإمام ، طالما جاريناهم فصدقناهم فى الحاجة إلى التعليم، وإلى المعلم المعصوم، وأنه الذى عينوه، ثم سألناهم عن العلم الذى تعلموه من هذا المعصوم، وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها، فضلا عن القيام بحلها ! فلما عجزوا أحالوا على الإمام الغائب، وقالوا: إنه لابد من السفر إليه.

والعجيب: أنهم ضيعوا عمرهم فى طلب المعلم، وفى التبجح بالظفر به، ولم يتعلموا منه شيئاً أصلا، كالمتضمخ بالنجاسة، يتعب فى طلب الماء حتى إذا وجده لم يستعمله، وبقى متضمخاً بالخبائث.

ومنهم من ادعى شيئاً من علمهم، فكان حاصل ما ذكره شيئاً من ركيك فلسفة. «فيثاغورس». وهو رجل من قدماء الأوائل، ومذهبه أرك مذاهب «الفلاسفة»، وقد رد عليه: «أرسطاليس»، بل استرك كلامه، واسترذله، وهو المحكى فى كتاب «إخوان الصفا»، وهو على التحقيق حشو الفلسفة.

فالعجب ممن يتعب طول العمر، فى طلب العلم، ثم يقنع بمثل ذلك العلم الركيك المستغثّ، ويظن بأنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم!.

فهؤلاء أيضاً جربناهم، وسبرنا ظاهرهم، وباطنهم، فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام، وضعفاء العقول: ببيان الحاجة إلى المعلم، ومجادلتهم فى إنكارهم الحاجة إلى التعليم، بكلام قوى، مفحم، حتى إذا ساعدهم على الحاجة إلى المعلم مساعد، وقال: هات علمه، وأفدنا من تعليمه: وقف وقال: الآن إذا سلمت لى هذا فاطلبه؛ فإنما غرضى هذا القدر فقط، إذ علم أنه لو زاد على ذلك لافتضح، ولعجز عن حل أدنى الاشكالات، بل عجز عن فهمه، فضلا عن جوابه.

فهذه حقيقة حالهم، فاخبرهم تقلهم[1] فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم.

---

(١) تبغضهم.

٤- طرق الصوفية

ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم، أقبلت بهمتى على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل.

وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله.

وكان العلم أيسر على من العمل. فابتدأت بتحصيل علمهم، من مطالعة كتبهم، مثل: «قوت القلوب» لأبى طالب المكىّ، رحمه الله، وكتب «الحارث المحاسبى» والمتفرقات المأثورة عن «الجنيد»[1]. و«الشبلى»[2]. و«أبى يزيد البسطامى»[3]، قدس الله أرواحهم،

---

(١) سيد هذه الطائفة وإمامهم. وأصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق وأبوه كان يبيع الزجاج: فلذلك يقال له: القواريرى. وكان فقيها على مذهب أبى ثور وكان يفتى فى حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة، مات سنة سبع وتسعين ومائتين ٢٩٧.

قال «الروذبارى»: سمعت «الجنيد» يقول لرجل ذكر المعرفة وقال: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل، فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندى عظيمة. والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا، فإن العارفين بالله تعالى: أخذوا الأعمال عن الله تعالى وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة، إلا أن يحال بى دونها.

وقال «الجنيد»: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول -عليه الصلاة والسلام-

وقال: ومن لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث: لا يقتدى به فى هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة.

وقال: مذهبنا هذا: مقيد بأصول الكتاب والسنة، وعلمنا هذا: مشيد بحديث رسول الله ﷺ، (عن الرسالة القشيرية).

(٢) بغدادى المولد والمنشأ، وأصله من (أسر وشنة). صحب (الجنيد) ومن فى عصره، وكان شيخ وقته حالا، وظرفا، وعلما؛ مالكى المذهب، عاش سبعا وثمانين سنة، ومات سنة أربع وثلاثين وثلثمائة، وقبره بـ(بغداد).

وكان (الشبلى) إذا دخل رمضان جد فوق جد من عاصره ويقول: هذا شهر عظمه ربى، فأنا أول من يعظمه.

(٣) كان من كبار الزاهدين العابدين: قيل: إنه مات سنة إحدى وستين ومائتين وقيل أربع وثلاثين ومائتين.

وذهب مرة لزيارة رجل كان مقصوداً مشهوراً بالزهد، فلما خرج الرجل من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقة تجاه القبلة، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأموناً على مايدعيه.

ومن كلامه: لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به حيث تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة (انظر الرسالة القشيرية).

وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى اطلعت على كنهه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع. فظهر لى أن أخص خواصهم: مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق، والحال وتبدل الصفات.

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة، وحد الشبع. وأسبابهما وشروطهما وبين أن يكون صحيحاً وشبعان: وبين أن يعرف حد السكر، وإنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء ابخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر، وبين أن يكون سكران، بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه وهو سكران، وما معه من علمه شيء. والصاحى يعرف حد السكر، واركانه، وما معه من السكر شيء والطبيب فى حالة المرض. يعرف حد الصحة ، واسبابها، وادويتها وهو فاقد الصحة.

كذلك فرق بين ان تعرف حقيقة الزهد وشروطها، واسبابها، وبين أن يكون حالك الزهد، وعزوف النفس عن الدنيا.

فعلمت يقيناً: انهم ارباب الأحوال، لا أصحاب الأقول. وان ما يمكن تحصيله بطريق العلم، فقد حصلته، ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك.

وكان قد حصل معى -من العلوم التى مارستها، والمسالك التى سلكتها فى التفتيش عن صنفى العلم الشرعية، والعقلية - إيمان يقينى بالله تعالى، وبالنبوة، وباليوم الآخر.

فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان: كانت قد رسخت فى نفس لا بدليل معين محرر، بل بأسباب ، وقرائن، وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها.

وكان قد ظهر عندى: انه لا مطمع فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس عن الهوى. وان رأس ذلك كله: قطع علاقة القلب عن الدنيا: بالتجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، وأن ذلك: لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه، والمال، والهرب من الشواغل والعلائق.

ثم لاحظت أحوالى: فإذا أنا منغمس فى العلائق، وقد أحدقت بى من الجوانب.

ولاحظت أعمالى - وأحسنها التدريس والتعليم- فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة، ولا نافعة فى طريق الآخرة. ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس: فإذا هى غير

خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها: طلب الجاه؛ وانتشار الصيت: فتيقنت: أنى: على شفا جرف هار، وأنى قد أشفيت على النار، إن لم أشتغل بتلافى الأحوال.

فلم أزل أتفكر فيه مدة، وأنا بعد على مقام الاختيار، أصمم العزم على الخروج من بغداد، ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحل العزم يوماً. وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى. لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة إلا وتحمل عليها جند الشهوة حملة، فتفترها عشية. فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى سلاسلها إلى المقام، ومنادى الإيمان ينادى: الرحيل الرحيل، فلم يبق من العمرإلا قليل، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل، رياء وتخييل . فان لم تستعد الآن للآخرة، فمتى تستعد؟. وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟. فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار!!

ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حال عارضة ، إياك أن تطاوعها، فانها سريعة الزوال فان أذعنت لها، وتركت هذا الجاه العريض، والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص، والأمن المسلم الصافى عن منازعة الخصوم، ربما التفتت إليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة.

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعى الآخرة، قريباً من ستة أشهر أولها: رجب، سنة ثمان وثمانين واربعمائة[1] . وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الإختيار إلى الاضطرار: إذ أقفل الله على لسانى، حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوماً واحداً، تطيباً لقلوب المختلفة إلى، فكان لاينطبق لسانى بكلمة واحدة، ولا استطيعها البته، حتى أورثت هذه العقلة فى اللسان، حزناً فى القلب، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشرب، فكان لا ينساغ لى ثريد، ولاتنهضم لى لقمة. وتعدى إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج، وقالوا:

هذا أمر نزل بالقلب، ومنه سرى إلى المراج، فلا سبيل إليه بالعلاج، إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم.

---

(١) فى نسخة أخرى: ست وثمانين وأربعمائة.

ثم لما أحسست بعجزى، وسقط بالكلية اختيارى، التجأت إلى الله تعالى، التجاء المضطر، الذى لا حيلة له. فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه. وسهل على قلب الإعراض عن الجاه ، والمال، والأولاد، والأصحاب.

وأظهرت عزم الخروج إلى مكة، وأنا أدبر فى نفسى سفر الشام، حذراً أن يطلع الخليفة، وجملة الأصحاب، على عزمى فى المقام بالشام. فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد، على عزم ألا أعاودها ابداً. واستهدفت لائمة أهل العراق كافة، إذ لم يكن فيهم من يجوز ان يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينياً، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين. وكان ذلك مبلغهم من العلم.

ثم ارتبك الناس فى الاستنباطات، وظن من بعد عن العراق، أن ذلك كان، لاستشعار من جهة الولاة، وأما من قرب من الولاة، وكان يشاهد إلحاحهم فى التعلق بى، والانكباب على؛ وإعراضى عنهم، وعن الالتفات إلى قولهم، فيقولون: هذا أمر سماوى، وليس له سبب، إلا عين أصبت أهل الإسلام، وزمرة العلم.

ففارقت بغداد، وفرقت ما كان معى من المال، ولم أدخر إلا قدر الكفاف، وقوت الأطفال، ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح، لكونه وقفاً على المسلمين، فلم أرى فى العالم مالا يأخذه العالم لعياله، أصلح منه.

ثم دخلت الشام، وأقمت به قريباً من سنتين، لاشغل لى إلا العزلة، والخلوة، والرياضة، والمجاهدة: اشتغالا بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفيه القلب: لذكر الله، تعالى، كما كنت حصلته من علم الصوفية، فكنت أعتكف مدة فى مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها على نفسى.

ثم رحلت منها إلى بيت المقدس، أدخل كل يوم الصخرة، وأغلق بابها على نفسى.

ثم تحركت فى داعية فريضة الحج، والاستمداد من بركات مكة، والمدينة، وزيارة رسول الله ﷺ، **بعد الفراغ من زيارة الخليل، صلوات الله عليه، فسرت إلى الحجاز.**

ثم جذبتنى الهمم، ودعوات الأطفال إلى الوطن، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه.

فآثرت العزلة به أيضاً، حرصاً على الخلوة، وتصفية القلب للذكر.

وكانت حوادث الزمان، ومهمات العيال، وضرورات المعاش، تغير فى وجه المراد، وتشوش صفوة الخلوة. وكان لا يصفوا لى الحال إلا فى أوقات متفرقة. لكنى مع ذلك لا أقطع طمعى منها، فتدفعنى عنها العوائق وأعود إليها.

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين.

وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها، واستقصاؤها.

والقدر الذى أذكره لينتفع به: أنى علمت يقيناً أن الصوفية . هم السالكون لطريق الله، تعالى، خاصة. وأن سيرتهم: أحسن السير، وطريقهم: أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق. بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم، وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، فى ظاهرهم وباطنهم: مقتبسة من نور مشكلة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

وبالجملة، فماذا يقول القائلون فى طريقة: طهارتها – وهى أول شروطها– تطهير القلب بالكلية عما سوى الله، تعالى.

ومفتاحها – الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة– : استغراق القلب بالكلية بذكر الله.

وآخرها الفناء بالكلية فى الله؟

وهذا آخرها، بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب: من أوائلها. وهى، على التحقيق: أول الطريقة، وما قبل ذلك: كالدهليز للسالك إليه.

ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتى إنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد.

ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها، إلا إشتمل لفظه على خطأ صريح، لايمكنه الإحتراز عنه.

وعلى الجملة: ينتهى الأمر إلى قرب، يكاد يتخيل منه طائفة الحلول.

وطائفة الاتحاد.

وطائفة الوصول.

وكل ذلك خطأ.

وقد بينا وجه الخطأ فيه فى كتاب: «المقصد الأسنى». بل الذى لا بسته تلك الحالة لا ينبغى أن يزيد: على أن يقول:

وكان ما كان، مما لست أذكره فظن خيراً، ولا تسأل عن الخبر

وبالجملة: فمن لم يرزق منه شيء بالذوق ، فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الإسم. وكرامات الأولياء- على التحقيق- هى بدايات الأنبياء. وكان ذلك أول حال رسول الله ﷺ حيث تبتل، حين أقبل إلى جبل «حراء»، حين كان يخلو فيه بربه، ويتعبد، حتى قالت العرب: «إن محمداً عشق ربه».

وهذه حالة يتحققها بالذوق من سلك سبيلها.

فمن لم يرزق الذوق. فيتيقنها بالتجربة والتسامع إن أكثر معهم الصحبة، حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقيناً. ومن جالسهم، استفاد منهم هذا الإيمان، فهم القوم، لا يشقى جليسهم.

ومن لم يرزق صحبتهم، فليعلم إمكان ذلك يقيناً بشواهد البرهان، على ما ذكرناه فى «كتاب عجائب القلب» من كتاب إحياء علوم الدين.

والتحقيق بالبرهان علم.

وملابسة عين تلك الحالة ذوق.

والقبول من التسامع، والتجربة ، بحسن الظن، إيمان.

فهذه ثلاث درجات: «يرفع الله الذين آمنوا منكم، والذين أوتوا العلم درجات».

ووراء هؤلاء قوم جهال: هم المنكرون لأصل ذلك، المتعجبون من هذا الكلام، يستمعون ، ويسخرون. ويقولون: العجب! إنهم كيف يهذون! وفيهم قال الله، تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾، .. ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾.

ومما بان لى، بالضرورة من ممارسة طريقتهم: حقيقة النبوة، وخاصيتها، ولابد من التنبيه على أصلها، لشدة مسيس الحاجة إليها.

حقيقة النبوة
واضطرار كافة الخلق إليها

أعلم أن جوهر الإنسان- فى أصل الفطرة-: خلق خالياً، ساذجاً لاخبر معه من عوالم الله تعالى. والعوالم كثيرة، لا يحصيها إلا الله، تعالى، كما قال: «وما يعلم جنود ربك إلا هو»:

وإنما خبرة فى العالم بواسطة الإدراك، وكل إدراك من الإدراكات: خلق ليضطلع الإنسان به على عالم من الموجودات ونعنى بالعوالم، أجناس الموجودات، فأول ما يخلق فى الإنسان حاسة اللمس، فيدرك بها أجناساً من الموجودات: كالحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، واللين، والخشونة وغيرها. واللمس قاصر عن الألوان والأصوات قطعاً؛ بل هى كالمعدوم فى حق اللمس.

ثم تخلق له حاسة البصر، فيدرك بها الألوان، والأشكال، وهو أوسع عوالم المحسات.

ثم ينفخ فيه السمع، فيسمع الأصوات، والنغمات.

ثم يخلق له الذوق.

وكذلك ، إلى أن يجاوز عالم المحسات: فيخلق فيه التمييز وهو قريب من سبع سنين. وهو طور آخر من أطوار وجوده. فيدرك فيه أموراً زائدة على المحسات لايوجد منها شىء فى عالم الحس.

ثم يترقى إلى طور آخر، فيخلق له العقل: فيدرك الواجبات، والجائزات؛ والمستحيلات، وأموراً لا توجد فى الأطوار التى قبله.

ووراء العقل طور آخر، تنفتح فيه عين أخرى، يبصر بها العيب، وما سيكون فى المستقبل، وأموراً أخر، العقل معزول عنها، كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز.

وكما أن المميز: لو عرضت عليه مدركات العقل لأباها، واستبعدها، فكذلك بعض العقلاء: أبوا مدركات النبوة، واستبعدوها. وذلك عين الجهل إذ لا مستند لهم إلا أنه طور لم يبلغه، ولم يوجد فى حقه، فيظن أنه غير موجود فى نفسه. والأكمة لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الألوان، والأشكال، وحكى له ذلك ابتداء، لم يفهمها، ولم يقر بها.

وقد قرب الله، تعالى ذلك على خلقه: بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة، وهو النوم، إذا النائم يدرك ما سيكون من الغيب، إما صريحاً، وإما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه –وقيل له: إن من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميت، ويزول عنه إحساسه، وسمعه، وبصره فيدرك الغيب– لأنكره، وأقام البرهان على استحالته، وقال: القوى الحساسة أسباب الإدراك فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها، فبأن لا يدركها مع ركودها، أولى، وأحق.

وهذا نوع قياس يكذبه الوجود، والمشاهدة، فكما أن العقل طور من أطوار الآدمى يحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من المعقولات، والحواس معزولة عنها، فالنبوة أيضاً: عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور، يظهر فى نورها الغيب، وأمور لا يدركها العقل.

والشك فى النبوة إما أن يقع:

فى إمكانها.

أو فى وجودها، ووقوعها.

أو فى حصولها لشخص معين.

ودليل إمكانها وجودها.

ودليل وجودها: وجود معارف فى العالم لا يتصور أن تنال بالعقل: كعلم الطب، والنجوم، فإن من بحث عنها، علم – بالضرورة – أنها: لا تدرك إلا بإلهام إلهى، وتوفيق

من جهة الله، تعالى. ولا سبيل إليها بالتجربة. فمن الأحكام النجومية: مالا يقع إلا فى كل ألف سنة مرة، فكيف ينال ذلك بالتجربة، وكذلك خواص الأدوية.

فتبين بهذا البرهان: أن الإمكان: وجود طريق لإدراك هذه الأمور، التى لا يدركها العقل، وهو المراد بالنبوة، لا أن النبوة عبارة عنها فقط، بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل: إحدى خواص النبوة ولها خواص كثيرة سواها. وما ذكرنا فقطرة من بحرها. إنما ذكرناها لأن معك أنموذجا منها: وهو مدركاتك فى النوم. ومعك علوم من جنسها فى الطب، والنجوم، وهى: معجزات الأنبياء، ولا سبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلا.

وأما ماعدا هذا من خواص النبوة: إنما يدرك بالذوق، من سلوك طريق التصوف، لأن هذا إنما فهمته بأنموذج رزقته وهو النوم ولولاه لما صدقت به فإن كان للنبى خاصة ليس لك منها أنموذج، ولا تفهمها أصلا: فكيف تصدق بها وإنما التصديق بعد الفهم.

وذلك الأنموذج يحصل فى أوائل طريق التصوف، فيحصل به نوع من الذوق بالقدرالحاصل ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس إليه.

فهذه الخاصية الواحدة، تكفيك للإيمان بأصل النبوة.

فإن وقع لك الشك فى شخص معين: أنه نبى أم لا؟ فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله: إما بالمشاهدة، أو بالتواتر والتسامع. فإنك إذا عرفت الطب، والفقه، يمكنك أن تعرف الفقهاء، والأطباء، بمشاهدة أحوالهم وسماع أقوالهم، وإن لم تشاهدهم.

ولا تعجز أيضاً عن معرفة كون «الشافعى» – رحمه الله– فقيهاً، وكون «جالينوس» طبيباً، معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير، بل بأن تتعلم شيئاً من الفقه والطب، وتطالع كتبهما. وتصانيفهما: **فيحصل لك علم ضرورى بحالهما.**

فكذلك إذا فهمت معنى النبوة، فأكثرت النظر فى القرآن؛ والأخبار يحصل لك العلم الضرورى بكونه ﷺ، **على أعلى درجات النبوة. وأعضد ذلك بتجربة ما قاله فى العبادات وتأثيرها فى تصفية القلوب وكيف صدق فى قوله: «من أعان ظالماً، سلطه الله عليه»:**

وكيف صدق فى قوله: «من أصبح وهمومه هم واحد (هو التقوى[١]) كفاه لله تعالى هموم الدنيا والآخرة[٢]».

فإذا جربت ذلك فى ألف، وألفين، وآلاف، حصل لك علم ضرورى لا تتمارى فيه.

فمن هذا الطريق. أطلب اليقين بالنبوة، لا من قلب العصا ثعباناً ، وشق القمر ، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده، ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة لخارجة عن الحصر، ربما ظننت أنه سحر، وتخييل، وأنه من الله إضلال فإنه «يضل من يشاء ويهدى من يشاء».

وتردد عليك أسئلة المعجزات: فإن كان مستنداً إيمانك إلى كلام منظوم فى وجه دلالة المعجزة، فينجزم إيمانك بكلام مرتب فى وجه الإشكال والشبهة عليها.

فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن فى جملة نظرك، يحصل لك علم ضرورى، لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين، كالذى يخبره جماعة بخبر متواتر، لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين، بل من حيث لا يدرى، ولا يخرج عن جملة ذلك، لا بتعيين الآحاد. فهذا هو الإيمان القوى العلمى.

وأما الذق فهو: كالمشاهدة والأخذ باليد، ولا يوجد إلا فى طريق الصوفية.

فهذا القدر من حقيقة النبوة كاف فى الغرض، الذى أقصده الآن، وسأذكر وجه الحاجة إليه.

---

(١) ما بين القوسين زيادة عن الجامع الصغير وضعناها لبيان المعنى.

(٢) وفى سنن ابن ماجة، عن رسول الله ﷺ: (ومن جعل الهموم هما واحداً، هم المعاد، كفاه الله هم دنياه. ومن تشعبت به الهموم فى أحوال الدنيا، لم يبال الله فى أى أوديته هلك).

سبب نشر العلم
بعد الإعراض عنه

ثم إنى لما واظبت على العزلة والخلوة، قريباً من عشر سنين، وبان لى –فى أثناء ذلك، على الضرورة، من أسباب لا أحصيها: مرة بالذوق، ومرة بالعلم البرهانى ومرة بالقبول الإيمانى–: أن الإنسان خلق من بدن وقلب، وأعنى بالقلب حقيقة روحه، التى هى محل معرفة الله، دون اللحم والدم الذى يشارك فيه الميت والبهيمة ، وأن البدن له صحة بها سعادته ومرض فيه هلاكه، وأن القلب كذلك، له صحة وسلامة، ولا ينجو «إلا من أتى الله بقلب سليم» وله مرض فيه هلاكه الأبدن الأخرى، كما قال تعالى ﴿وفى قلوبهم مرض﴾ وأن الجهل بالله: سم مهلك، وأن معصية الله بمتابعة الهوى: داؤه الممرض وأن معرفة الله تعالى: ترياقه المحيى، وطاعته، بمخالفة الهوى: دواؤه الشافى، وأنه لا سبيل إلى معالجته بإزالة مرضه وكسب صحته إلا بأدوية البدن تؤثر فى كسب الصحة بخاصية فيها، لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل، بل يجب فيها تقليد الأطباء، الذين أخذوها من الأنبياء، الذين اطلعوا، بخاصية النبوة، على خواص الأشياء فكذلك بان لى –على الضرورة– أى أدوية العبادات– بحدودها، ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء–: لا يدرك وجه تأثيرها بل ببضاعة عقل العقلاء، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص، بنور النبوة؛ لا ببضاعة العقل.

وكما أن الأدوية: تركب من أخلاط مختلفة النوع والمقدار، وبعضها ضعف البعض فى الوزن والمقدار، فلا يخلوا اختلاف مقاديرها عن سر، هو من قبيل الخواص، فكذلك العبادات التى هى أدوية داء القلوب: مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار، حتى إن السجود ضعف الركوع، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر فى المقدار، ولا يخلو عن سر من الأسرار، هو من قبيل الخواص التى لا يطلع عليها إلا بنور النبوة.

ولقد تحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط –بطريق العقل– لها حكمة، أو ظن أنها ذكرت على الاتفاق، لا عن سر إلهى فيها يقتضيها بطريق الخاصية.

وكما أن فى الأدوية أصولا هى أركانها، وزوائد هى متمماتها، لكل واحد منها خصوص تأثير فى أعمال أصولها، كذلك النوافل والسنن: متممات لتكميل آثار أركان العبادات.

وعلى الجملة: الأنبياء: أطباء أمراض القلوب، وإنما فائدة العقل وتصرفه أن عرفنا ذلك، ويشهد للنبوة بالتصديق، ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة، وأخذ بأيدينا، وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين وتسليم المرضى التحيرين إلى الأطباء المشفقين. وإلى ها هنا مجرى العقل، ومخطاه، وهو معزول عما بعد ذلك، إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه.

فهذه أمور عرفناها بالضرور الجارية مجرى المشاهدة، فى مدة الخلوة والعزلة.

ثم رأينا فتور الاعتقادات فى أصل النبوة.

ثم فى حقيقة النبوة.

ثم فى العمل بما شرحته النبوة.

وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق، فنظرت إلى أسباب فتور الخلق، وضعف إيمانهم، فإذا هى أربعة:

١- سبب من الخائضين فى علم الفلسفة.

٢- وسبب من الخائضين فى طريق التصوف.

٣- وسبب من المنتسبين إلى دعوى التعليم.

٤- وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس.

فإنى تتبعت، مدة آحاد الخلق، أسأل من يقصر منهم فى متابعة الشرع، وأسأله عن شبهته، وأبحث عن عقيدته وسره، وقلت له: مالك تقصر فيها؟ فإن كنت تؤمن بالآخرة، ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا، فهذه حماقة! فإنك لا تبيع الاثنين بواحد، فكيف تبيع ما لانهاية له بأيام معدودة؟ وإن كنت لا تؤمن، فأنت كافر! فدبر نفسك فى طلب الإيمان، وأنظر ما سبب كفرك الخفى، الذى هو: مذهبك باطناً، وهو سبب جرأتك ظاهراً، وإن كنت لا تصرح به، تجملاً بالإيمان، وتشرفاً بذكر الشرع!.

فقائل يقول: «هذا أمر، لو وجبت المحافظة عليه، لكان العلماء أجدر بذلك، وفلان من المشاهير، بين الفضلاء، لا يصلى، وفلان يشرب الخمر، وفلان يأكل أموال الأوقاف، وأموال اليتامى، وفلان يأكل إدرار السلطان ولا يحترز عن الحرام، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة، وهلم جرا، إلى أمثاله...

وقال ثان يدعى علم التصوف، ويزعم أنه قد بلغ مبلغاً ترقى عن الحاجة إلى العبادة.

وقائل ثالث يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة!

وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف.

وقائل رابع لقى أهل التعليم فيقول: «الحق مشكل، والطريق إليه متعسر، والاختلاف فيه كثير، وليس بعض المذاهب أولى من بعض، وأدلة العقول متعارضة، فلا ثقة برأى أهل الرأى. والداعى إلى التعليم متحكم لا حجة له، فكيف أدع اليقين بالشك؟».

وقائل خامس يقول: لست أفعل هذا تقليداً، ولكنى قرأت علم الفلسفة، وأدركت حقيقة النبوة: وأن حاصلها: يرجع إلى الحكمة والمصلحة، وأن المقصود من تعبداتها: ضبط عوام الخلق، وتقييدهم عن التقاتل، والتنازع، والاسترسال، فى الشهوات، فما أنا من العوام الجهال، حتى أدخل فى حجر التكليف، وإنما أنا من الحكماء: أتبع الحكمة وأنا بصير بها، مستغن فيها عن التقليد.

هذا: منتهى إيمان من قرأ مذهب فلسفة الألهين منهم، وتعلم ذلك من كتب «ابن سينا» و«أبى نصر الفارابى».

وهؤلاء هم المتجملون بالإسلام.

وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن، ويحضر الجماعات والصلوات، ويعظم الشريعة بلسانه، ولكنه مع ذلك: لا يترك شرب الخمر، وأنواعاً من الفسق والفجور!.

وإذا قيل له:

«إن كانت النبوة غير صحيحة فلم تصلى؟» فربما يقول:

«لرياضة الجسد، ولعادة أهل البلد، وحفظ المال والولد!. وربما قال:

«الشريعة صحيحة، والنبوة حق». فيقال:

فلم تشرب الخمر؟ فيقول:

«إنما نهى عن الخمر؛ لأنها تورث العداوة والبغضاء، وأنا بحكمتى: محترز عن ذلك، وإنى أقصد به تشحيذ خاطرى».

حتى أن «ابن سينا» فى وصية له كتب فيها: أنه عاهد الله، تعالى، على كذا وكذا، وأن يعظم الأوضاع الشرعية ولا يقصر فى العبادات الدينية ولا يشرب تلهياً، بل تداوياً وتشافياً، فكان منتهى حالته فى صفاء الإيمان والتزام العبادات أن استثنى شرب الخمر لغرض التشافى.

فهذا إيمان من يدعى الإيمان منهم وقد انخدع بهم جماعة، وزادهم ضعف اعتراض المعترضين عليهم، إذا اعترضوا بمجاحدة علم الهندسة والمنطق، وغير ذلك، مما هو ضرورى لهم، على ما بينا علته من قبل.

فلما رأيت أصناف الخلق: من ضعف إيمانهم إلى هذا الحد، بهذه الأسباب، ورأيت نفسى ملبة[1] يكشف هذه الشبهة، حتى كان فضح هؤلاء أيسر عندى من شربة ماء، لكثر خوضى فى علومهم، وطرقه، أعنى طرق «الصوفية» و«الفلاسفة» و«التعليمية»، والمتوسمين من العلماء: انقدح فى نفسى أن ذلك: متعين، فى هذا الوقت، محتوم.

فما تغنيك الخلوة والعزلة، وقد عم الداء، ومرض الأطباء، وأشرف الخلق على الهلاك؟

ثم قلت فى نفسى: متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة، ومصادمة هذه الظلمة، والزمان زمان الفترة، والدور دور الباطل؟ ولو اشتغلت بدعوة الخلق، عن طرقهم إلى الحق، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم، وأنى تقاومهم فكيف تعايشهم، ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد، وسلطان متدين قاهر؟.

فترخصت، بينى وبين الله، تعالى، بالاستمرار على العزلة، تعللا بالعجز عن إظهار الحق بالحجة، فقدر الله، تعالى: أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه، لا بتحريك من

(١) ألب المكان: أقام به ولزمه.

خارج، فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى «نيسابور لتدارك هذه الفترة، وبلغ الإلزام حداً كان ينتهى- لو أصررت على الخلاف- إلى حد الوحشة.

فخطر لى. أن سبب الرخصة قد ضعف، فلا ينبغى أن يكون باعثك، على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة، وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ولم ترخص نفسك بعسر معافاة الخلق؟ والله تعالى يقول:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم ألم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾.

ويقول عز وجل، لرسوله وهو أعز خلقه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ويقول عز وجل: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يس والقرآن الحكيم.. إلى قوله: إنماتنذر من اتبع الذكر﴾.

فشاورت فى ذلك جماعة من أرباب القلوب، والمشاهدات، فاتفقوا لإشارة بترك العزلة والخروج من الزاوية.

وانصاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة، متواترة تشهد بأن هذه الحركة: مبدأ خير، ورشد، قدرها الله، سبحانه، على رأس هذه المائة[1] وقد وعد الله، سبحانه، بإحياء دينه، على رأس كل مائة.

فاستحكم الرجاء، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات، ويسر الله تعالى، الحركة إلى «نيسابور» للقيام بهذا المهم، فى ذى القعدة، سنة تسع وتسعين وأربعمائة. وكان الخروج من «بغداد» فى ذى القعدة، سنة ثمان ثمانين وأربعمائة، وبلغت مدة العزلة إحدى عشر سنة.

وهذه حركة قدرها الله، تعالى، وهى من عجائب تقديراته التى لم يكن لها انقداح فى القلب فى هذه العزلة كما لم يكن الخروج من «بغداد» والنزوع عن تلك الأحوال، مما خطر إمكانه أصلا بالبال، والله؛ تعالى، مقلب القلوب والأحوال، و«قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن».

(١) روى أبو دادو، والحاكم، والبيهقى: (إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها).

وأنا أعلم أنى، وإن رجعت إلى نشر العلم، فما رجعت ! فإن الرجوع عود إلى ما كان، وكنت فى ذلك الزمان: أنشر العلم الذى به يكسب الجاه وأدعو إليه بقولى وعملى، وكان ذلك قصدى، ونيتى. وأما الآن فأدعو إلى العلم الذى به يترك الجاه، ويعرف به سقوط رتبة الجاه.

هذا هوالآن نيتى وقصدى وأمنيتى: يعلم الله ذلك منى.

وأنا أبغى أن أصلح نفسى، وغيرى، ولست أدرى، أأصل إلى مرادى أم أخترم دون غرضى؟ ولكنى أومن إيمان يقين ومشاهدة ، أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وأنى لم أتحرك لكنه حركنى، وأنا لم أعمل لكنه استعملنى، فأسأله: أن يصلحنى أولا «ثم يصلح بى؛ ويهدينى؛ ثم يهدى بى، وأن يرينى الحق حقاً، ويرزقنى اتباعه، ويرينى الباطل باطلا، ويرزقنى اجتنابه:

* * *

ونعود الآن إلى ما ذكرناه: من أسباب ضعف الإيمان، فيمن ذكر، بذكر طريق إرشادهم، وإنقاذهم من مهالكهم.

أما الذين ادعوا الحيرة، بما سمعوه من أهل التعليم، فعلاجه: ماذكرناه فى كتاب: «القسطاس المستقيم» ولا نطول بذكره فى هذه الرسالة.

وأما ما توهمه أهل الإباحة، فقد حصرنا شبهه فى سبعة أنواع، وكشفناها فى كتاب «كيمياء السعادة».

وأما من فسد إيمانه بطريق الفلسفة، حتى أنكر أصل النبوة، فقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة، بدليل وجود علم خواص الأدوية والنجوم، وغيرهما، وإنما قدمنا هذه المقدمة لأجل ذلك:

وإنما أوردنا الدليل من خواص الطب والنجوم، لأنه من نفس علمهم، ونحن نبين لكل عالم بفن من العلوم: كالنجوم، والطب، والطبيعة، والسحر والطلسمات، مثلا: من نفس علمه برهان النبوة.

وأما من أثبت النبوة بلسانه، وسوى أوضاع الشرع على الحكمة، فهو، على التحقيق: كافر بالنبوة، وإنما هو: مؤمن بحكيم، له طالع مخصوص يقتضى طالعه أن يكون متبوعا.

وليس هذا من النبوة فى شىء:

بل الإيمان بالنبوة أن يقر باثبات طور وراء العقل، تتفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة، والعقل معزول عنها، كعزل السمع عن إدراك الألوان، والبصر عن إدراك الأصوات، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات.

فإن لم يجوز هذا، فقد أقمنا البرهان على إمكانه، بل على وجوده.

وإن جوز هذا، فقد أثبت أن ها هنا أموراً تسمى خواصا لا يدور تصرف العقل حواليها أصلا، بل يكاد العقل يكذبها، ويقضى باستحالته. فان وزن دانق[1] من الأفيون: سم قاتل؛ لأنه يجمد الدم فى العروق، لفرط برودته. والذى يدعى علم الطبيعة، يزعم أن ما يبرد من المركبات، إنما يبرد بعنصرى الماء والتراب، فهما العنصران الباردان. ومعلوم أن أرطالا من الماء والتراب، لا يبلغ تبريدهما فى الباطن إلى هذا الحد. فلو أخبر طبيعى بهذا، ولم يجربه، لقال: «هذا محال، والدليل على استحالته أن فيه نارية، وهوائية، والهوائية والنارية لا تزيد بها برودة. فنقدرالكل ماء وتراباً، فلا يوجد هذا الإفراط بالتبريد، فان انضم إليه حاران فبأن لا يوجب أولى». ويقدر هذا برهاناً!

وأكثر براهين الفلاسفة فى الطبيعيات والإلهيات، مبنى على هذا الجنس، فانهم تصوروا الأمور على قدر ما وجدوه وعقلوه، وما لم يألفوه قدروا استحالته.

ولو لم تكن الرؤيا الصادقة مألوفة، وادعى مدع: أنه عند ركود الحواس، بعلم الغيب، لأنكره المتصفون بمثل هذه العقول.

ولو قيل لواحد: «هل يجوز أن يكون فى الدنيا شىء هو بمقدار حبة، يوضع فى بلدة، ليأكل تلك البلدة بجملتها، ثم يأكل نفسه، فلا يبق شيئاً من البلدة وما فيها، ولا يبقى هو فى نفسه؟» لقال: **هذا محال، وهو من جملة الخرافات، وهذه حالة النار: ينكرها من لم ير النار، إذا سمعها.**

(١) الدانق بفتح النون وكسرها: سدس الدرهم.

وأكثر إنكار عجائب الآخرة هو من هذا القبيل.

فتقول للطبيعي: «قد اضطررت إلى أن تقول: فى الأفيون خاصية فى التبريد، ليس على قياس المعقول بالطبيعة، فلم يجور أن يكون فى الأوضاع الشرعية من الخواص، فى مداواة القلوب، وتصفيتها، مالا يدرك بالحكمة العقلية، بل لا يبصر ذلك إلا بعين النبوة؟ بل قد اعترفوا بخواص هى أعجب من هذا، فيما أوردوه فى كتبهم، وهى من الخواص العجيبة، المجربة فى معالجة الحامل، التى عسر عليها الطلق، بهذاالشكل:

ب	ط	د
ز	هـ	ج
و	ا	ح

٢	٩	٤
٧	٥	٣
٦	١	٨

يكتب على خرقتين، لم يصبهما ماء وتنظر إليهما الحامل بعينها، وتضعها تحت قدميها، فيسرع الولد فى الحال إلى الخروج، وقد أقروا بإمكان ذلك، وأوردوه فى كتاب «عجائب الخواص»، وهو شكل فيه تسعة بيوت، يرقم فيها زقوم مخصوصة. يكون مجموع ما فى جدول واحد: خمسة عشر، قرأته فى طول الشكل، أو فى عرضه، أو على التأريب.

فياليت شعرى! من يصدق بذلك، ثم لا يتسع عقله للتصديق، بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين، والظهر بأربع، والمغرب بثلاث هى: لخواص غير معلومة بنظر الحكمة؟ وسببها: اختلاف هذه الأوقات، إنما تدرك هذه الخواص بنور النبوة.

والعجب: أنا لو غيرنا العبارة إلى عبارة المنجمين، لعقلو اختلاف هذه الأوقات، فنقول: «أليس يختلف الحكم فى الطالع: بأن تكون الشمس فى وسط السماء، أو فى الطالع، أو فى الغارب، حتى يبنوا على هذا فى تسييراتهم اختلاف العلاج، وتفاوت الأعمال والآجال ولا فرق بين الزوال، وبين كون الشمس فى وسط السماء، ولا بين المغرب وبين

كون الشمس فى الغارب، فهل لتصديقه سبيل؟ إلا أن ذلك يسمعه بعبارة منجم جرب كذبه مائة مرة، ولا يزال يعاود تصديقه، حتى لو قال المنجم له، «إذا كانت الشمس فى وسط السماء، ونظر إليها الكوكب الفلانى، والطالع هو البرج الفلانى، فلبست ثوباً جديداً فى ذلك الوقت قتلت فى ذلك الثوب فإنه لا يلبس الثوب فى ذلك الوقت، وربما يقاسى فيه البرد الشديد، وربما سمعه من منجم، وقد عرف كذبه مرات؟.

فليت شعرى! من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ويضطر إلى الاعتراف بأنها خواص: - معرفتها معجزة لبعض الأنبياء - كيف ينكر مثل ذلك فيما يسمعه من قول نبى صادق، مؤيد بالمعجزات، لم يعرف قط بالكذب؟ فإن أنكر فلسفى إمكان هذه الخواص فى اعداد الركعات، ورمى الجمار، وعدد أركان الحج، وستر تعبدات الشرع، لم يجد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقاً أصلا.

فإن قال: قد جربت شيئاً من النجوم وشيئاً من الطب، فوجدت بعضه صادقاً، فانقدح فى نفسى تصديقه، وسقط من قلبى استبعاده، ونفرته، وهذا لم أجربه، فيم أعلم وجوده وتحقيقه؟ وإن أقررت بإمكانه.

فأقول: إنك لا تقتصر على تصديق ما جربته، سمعت أخبار المجربين وقلدتهم، فاسمع أقوال الأنبياء، فقد جربوا، وشاهدوا الحق فى جميع ما ورد به الشرع، وأسلك سبيلهم، تدرك بالمشاهد بعض ذلك.

على أنى أقول: «وإن لم تجربه فيقضى عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعاً، فانا لو فرضنا رجلا بلغ، وعقل، ولم يجرب المرض، فمرض وله والد مشفق حاذق بالطب، يسمع دعواه فى معرفة الطب منذ عقل. فعجن له والده دواء، فقال: «هذا يصلح لمرضك، ويشفيك من سقمك». فماذا يقضيه عقله، وإن كان الدواء مراً كريه المذاق؟ أيتناوله؟ أو يكذب ويقول: «أنا لا أعقل مناسبة هذا الدواء، لتحصيل الشفاء، ولم أجربه؟، فلاشك أنك: تستحمقه إن فعل ذلك! وكذلك يستحمقك أهل البصائر فى توقفك!

فإن قلت: «فيم أعرف شفقة النبى عليه السلام، ومعرفته بهذا الطب؟، فأقول:

وبم عرفت شفقة أبيك، وليس ذلك أمراً محساً؟ بل عرفتها بقرائن أحواله، وشواهد أعماله فى مصادره، وموارده، علماً ضرورياً لا تتمارى فيه».

ومن نظر فى أقوال رسول الله عليه السلام، وما ورد من الأخبار: فى اهتمامه بارشاد الحق، وتلطفه فى جر الناس بأنواع الرفق، واللطف، إلى تحسين الأخلاق، وإصلاح ذات البين، وبالجملة إلى مالا يصلح إلا به دينهم، ودنياهم، حصل له على علم ضرورى، بأن شفقته على أمته: أعظم من شفقة الوالد على ولده.

وإذا نظر إلى عجائب ما ظهر عليه من الأفعال، وإلى عجائب الغيب، الذى أخبر عنه فى القرآن على لسانه، وفى الأخبار، وإلى ما ذكره فى آخر الزمان، فظهر ذلك كما ذكره: علم- علما ضرورياً- : أنه بلغ الطور الذى وراء العقل وانفتحت له العين التى ينكشف منها الغيب، الذى لايدركه إلا الخواص، والأمور التى لا يدركها العقل.

فهذا هو: منهاج تحصيل العلم الضرورى، بتصديق النبى ﷺ، فجرب، وتأمل القرآن، وطالع الأخبار، تعرف ذلك بالعيان.

وهذا القدر يكفى فى تنبيه المتفلسفة، ذكرناه لشدة الحاجة إليه فى هذا الزمان.

وأما السبب الرابع- وهو: ضعف الإيمان بسبب سوء سيرة العلماء-: فيداوى هذا المرض بثلاثة أمور:

أحدها: أن تقول: «إن العالم الذى تزعم أنه يأكل الحرام، معرفته بتحريم ذلك الحرام كمعرفتك بتحريم الخمر، ولحم الخنزير، والربا، بل بتحريم الغيبة والكذب، والنميمة، وأنت تعرف ذلك وتفعله، لا لعدم إيمانك بأنه معصية، بل لشهوتك الغالبة عليك؛ فشهوته كشهوتك، وقد غلبته كما غلبتك، فعلمه بمسائل وراد هذا يتميزبه عنك، لايناسب زيادة زجر عن هذ ا المحظور المعين، وكم من مؤمن بالطب، لا يصبر عن الفاكهة وعن الماء البارد، وإن زجره الطبيب عنه! ولا يدل ذلك على أنه غير ضار، أو على أن الإيمان بالطب غير صحيح، فهذا محمل هفوات العلماء.

الثانى أن يقال للعامى: «ينبغى أن تعتقد: أن العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه فى الآخرة، ويظن أن علمه ينجيه، ويكون له شفيعاً، حتى يتساهل معه فى أعماله، لفضيلة علمه، وإن جاز أن يكون زيادة حجة عليه، فهو يجوز أن يكون زيادة درجة له، وهو ممكن، فهو، وإن ترك العمل، يدلى بالعلم.

أما أنت أيها العامى، إذا نظرت إليه، وتركت العمل وأنت عن العلم عاطل فتهلك بسوء عملك، ولا شفيع لك!».

الثالث: وهو: الحقيقة، أن العالم الحقيقى، لايقارف معصية إلا على سبيل الهفوة. ولا يكون مصراً على المعاصى أصلا: إذ العلم الحقيقى: مايعرف أن المعصية: سم مهلك وأن الآخرة: خير من الدنيا، ومن عرف ذلك، لا يبيع الخير بما هو أدنى.

وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التى يشتغل بها أكثر الناس، فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم إلا جرأة على معصية الله تعالى.

وأما العلم الحقيقى: فيزيد صاحبه خشية، وخوفاً، ورجاء، وذلك يحول بينه وبين المعاصى، إلا الهفوات التى لاينفعك عنها البشر فى الفترات وذلك لا يدل على ضعف الإيمان. فالمؤمن مفتن تواب وهو بعيد عن الإصرار والإكباب.

* * *

هذا ما أردت أن أذكره فى ذم الفلسفة، والتعليم، وآفاتهما، وآفات من أنكر عليهما، لا بطريقه.

ونسأل الله العظيم: أن يجعلنا ممن آثره واجتباه، وأرشده إلى الحق وهداه وألهمه ذكره حتى لا ينساه، وعصمه عن شر نفسه حتى لا يؤثر عليه سواه، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد إلا إياه.

فهرس الموضوعات